أيام الطفولة والشباب

عبد الله قبرصي يتذكر 3

96425

عبد الله قبرصي يتذكر 3

الكتاب: عبد الله قبرصي يتذكر
المؤلف: عبد الله قبرصي
القياس: ٦٠ × ٩٠
عدد الصفحات: ٢٤٨
تصميم الغلاف: الحداثة
الخطوط: هداية للتحقيق والتنضيد الإلكتروني والتصحيح
اللوحة: للفنان محمد علي الخطيب
الطبعة الأولى: ١٩٩٦
جميع الحقوق محفوظة

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
بيروت - حارة حريك - شارع العضيمي -
بناية عويدات - ص.ب: ١٤٥٦٣٦ ت: ٨٣٣٩٨٩

أيام الطفولة والشباب

عبد الله قبرصي يتذكر 3

للمؤلف

- وحي الظلام (شعر).
- نحن ولبنان.
- مصرع السمنة.
- عبد الله قبرصي يتذكر(1)
- عبد الله قبرصي يتذكر(2)
- وكتب ومحاضرات ومقالات لاتزال مخطوطات تنتظر الطبع.

الإهداء

إلى رفيق الصبا والشباب
فؤاد سليمان
الذي كاد ينساه أهل القلم
وهو من أسياده

اكتبت هذه المذكرات سنة 1980
ولم تطبع إلاّ هذا العام 1996

المقدمة

أيها القارىء الكريم

نحييك أولاً ونشكرك أنك أقبلت على قراءة ذكريات طفولتنا وشبابنا!

هانحن على أبواب السابعة والثمانين من عمرنا ولا نزال نشعر أن الطفولة تنغل في صدرنا والشباب يحترُّ في عروقنا. إنها نعمة من نعم المولى أن الشيخوخة لم تهزمنا إلا في الأذن![1]

نحن في خطر فقدان الأذن السليمة نسبيّاً!

لقد روينا في هذه الذكريات كثيراً من التفاصيل التي قد لا تستمتع بها إلا أنها عزيزة علينا كما هي عزيزة عليك ذكرياتك، كنت كهلاً أو كنت شاباً، أو كنت في سن متقدمة. لأنها عزيزة رويناها!

لم نقل لك مثلاً لماذا أسمينابكرنا ـ ولي العهد ـ المحامي صباحَ، صباحاً. ولا لماذا أسمينا ضحى وعاطفاً وضياء وحناناً...

بعد أن ولد صباح في مستشفى الطبيب النابغة حبيب الخوري سعادة وقد ساعدنا على دفع نفقاته الدكتور علي شلق أبو الفضل ـ وزير البريد والبرق والاتصالات السلكية واللاسلكية. حالياً ـ وكناقداخترنا له اسم « نبال » أي تصغير « هاني بعل » أعظم قائد في كل الأمم وكل العصور كما يقول زعيمنا أنطون سعادة. ورحنا نزفّ إلى أصدقائنا الكبار: أمير الشعر الأخطل الصغير، وأحد سادة المجاهدين علي ناصر الدين، والصحافي الكبير ميشال أبو شهلا، فراحوا بنا يستهزؤن.

كيف صار « هاني بعل نبالاً »؟... اخترعنا على الفور اسم صباح، فوافق الجميع...

---

(١) أصيب المؤلف بفقدان سمع أذنه اليمنى سنة ١٩٧٧

ثم جاءت ضحى، فتذكرنا رأد الضحى، وولد عاطف فقلنا لندق باب القلب، وعدنا إلى النور مع ضياء وإلى القلب مع حنان! . . .

وعندما رحنا نحسب حساب الأسماء في القاموس ، هللناوكبرنا. صباح وضحى وضياء هم النور، العقل، وعاطف وحنان هما العاطفة أي القلب. . . أسماء أولادنا جمعت القلب والعقل . . . أليس ذلك جيداً؟ . . .

طفولتنا وشبابنا، وما فيهما من مآسٍ وأفراح . . . أيّة أفراح؟ . . المآسي هي الغالبة، ننتهي في هذا الكتاب سنة 1936.

أما بعد، فقد صدر لنا كتابان عن الحزب السوري القومي الاجتماعي في جزئين . . عبدالله قبرصي يتذكر . . .

وعندنا مخطوطة عن استشهاد سعادة وما تلاه حتى سنة 1955كما عندنا مخطوطة عن محاولة الانقلاب الفاشلة سنة 1961-1960 .

وإذا سمح لنا العمر سنكتب ذكرياتنا عن عبر الحدود، تحت كل سماء لنذكر الذين آزارونا على تحمل المنفى عشر سنوات متواليات .

كما نذكر مجلتنا الندوة وماذا حققنا من أعمال لاتزال آثارها باقية في دنيا الاغتراب! .

هكذا إذن، نكون على استعداد للرحيل في أيّة لحظة لأن ذكرياتنا تبقى بعدنا تحدّث عمّا كنا . . .

لايموت الإنسان إلاّ إذا أراد أن يموت! .

الداعي لكم بالخير

عبدالله قبرصي

في 25/ 7/ 1996

ملاحظة: لا يحكمن القارىء على الكتاب والأسماء الواردة فيه إلا بعد قراءة آخر سطر من سطوره.

المؤلف

عبد الله قبرصي مع عروسه جورجيت بربر 1935

المقدمة

جبَّار الكورة

عبد اللّه قبرصي يتذكّر طفولته وشبابه

سمعت عنه قبل أن أتعرّف إليه. كان عبد اللّه قبرصي رفيقاً للمرحوم عمي المهندس سليم جحا في مدرسة دير البلمند وفي مدرسة الفرير في طرابلس لذلك كان يأتي إلى منزلنا في بشمزين قبل أن أولد، أصبح صديق العائلة. وهكذا نشأت وأنا أسمع باسمه يتردّد في بيتنا قبل أن أراه ثم أصبح الاستاذ عبد اللّه قبرصي صديقاً لي ولنفرٍ من أصدقائي.

وهو صديق وفيّ، خُلق ألوفاً مثل أبي الطيّب المتنبي الذي يقول:

خُلِقْتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شَيبي موجعَ القلبِ باكيا

وهو خَلوق ودُودٌ. قريب من الناس يصح فيه قول الشاعر:

كـأنـكَ مـن كـلِّ القلـوبِ مكـوّنٌ فـأنـتَ إلـى كـلِّ الأنَـامِ حبيـبُ

وكنتُ أسمع زوج خالتي يروي كيف خباؤه في منزلهم في «المتخّتْ» حين كان مطارداً أواسط الثلاثينات والدرك يبحثون عنه في مناطق الكورة. يومها كتب كتابه الرائع «مصرع السّمُّنة»، فكان السّمُّنة التي لم يستطع الصيّاد اصطيادها!

في ٢٥/ ١/ ١٩٩٥ أقام اتحاد الكتّاب اللبنانيين تكريماً له حضره حشد كبير من رجالات السياسة وأهله وأصدقائه ومحبيه ومحازبيه وهم كُثر يومها قلتُ فيه[١]:

---

(١) عبد اللّه قبرصي في الميزان، الناشرون أصدقاء عبد اللّه قبرصي. الطبعة =

«قصيرُ القامة طويلُ الباع، قويُّ الصوت، ضعيفُ السَمْع، جريء في قول كلمةِ الحقِ، كريمُ اليدِ، كريمُ النَفْسِ، محمودُ الصفات، محبٌّ للناس، وفيٌّ لأصدقائه. يحمل هذا الكوراني العنيد على كتفيه نضالَ حزبٍ طيلة ستين سنةً كاملة، فجمع في سيرته مسيرة حزبه!.

محام بارز وأديبٌ وشاعر وشيخٌ من شيوخ المناضلين. صادق مع نفسه كما هو صادقٌ مع الآخرين. متواضع لا ينتفخ! ألوفٌ أنوفٌ، بقي في عصر التهافت والتزلّم والتزلّف، محافظاً على كرامته وأصالته...

متمرّدٌ، معارضٌ، مشاكسٌ، مشاغبٌ، وثائر! ولو لم يكن كذلك لما كان عبد الله قبرصي!!».

هذا اليتيم العصامي بنى نفسه بنفسه عجنته الحياة فخبزها على نار تجاربه! عانى الحرمان والعذاب. حياته كفاح متواصل. صادق فيما يقول لا يعرف التزييف والتزوير.

بدأ حياته يتدرّب باكراً على السجن الذي عرفه وألِفه في حياته عندما أصبح شاباً. وهو يقول في مقدمة «ذكرياته»: «إن ذكرياته لا بدّ أن تكون أمثولة للناس، يتعلّمون منها تحدّي الأقدار والصمود في وجه المحن والمصائب والمتاعب واليتم والحرمان يضاف إلى ذلك ما فيها من مشوّقات، كأنها قصة طويلة، لها كل مقومات القصة المثيرة».

يخاطب الناس كل الناس. وذكرياته ليست حزبية ولا متحزبة، وليست عصبية ومتعصبة، يهمّه أن يقرأها بنو قومه وان يتعاطوا معها ويتعاونوا بدافع التعاطي مع الحرف والكلمة، كما يتعاطون مع مشاغلهم اليومية، سواء أكانوا في الريف أم في المدينة.

= الأولى ١٩٩٥ (ص ١٧٧ ـ ١٧٨).

فهو أديب من الشعب يخاطبه بلغته، يعرض عليه شجونه وشؤونه، توقه وشوقه، رغباته ومطامحه، وهو صريح لا يخفي شيئاً ولا يستر مكشوفاً! يسير دائماً في الطرق المكشوفة ويمشي في وضح النهار ويقص حكاياته كما يندى الفجر على الأزاهر لكي يتلافى الوقوع في الغموض أو السير على قشر الموز أو الأنفاق المظلمة.

* * *

في ٢٧/ ١٠/ ١٩١٠ ولد عبد اللّه إبراهيم قبرصي في بلدة دده في منطقة القَلْع في الكورة، سكانها منقسمون مناصفة بين الروم الارثوذكس والمسلمين السنّة. أخذ عن والده حدّة الطبع وعن والدته عفة اللسان فجمع بين عصبيته في الدفاع عن حقه وعقيدته وقناعته. وبين رويّته ودماثته في تعامله مع الناس فكسب حبّهم واحترامهم.

عاش وحيداً مثل والده الذي تركه، وهو في الثالثة من عمره، ورحل إلى كوراساو ثم ما لبثت والدته أن رحلت إلى دنيا الآخرة فعاش يتيماً تكفّله جده وجدته. صدق المثل الذي يقول: «ما أعزّ من الولد إلاّ ولد الولد»!.

يقول عن جدته: «جدّتي كانت قدّيسة القرية. هي التي تقدّم الرُقَى للمرضى والمُصابين بالعُقم، هي التي كانت تكشف الإصابات بالعين وتعالج اللوزتين... هي التي كانت تؤمن قبل كل الناس بمار الياس»!.

وأما هو فمنذ طفولته كان علمانياً. لم يدخل التعصب الطائفي إلى قلبه ولا إلى عقله... فلعل هذه العلمانية هي التي شجعته على اعتناق العقيدة القومية الاجتماعية التي قوامها القومية السورية العربية والعلمنة في أضلاعها الرئيسية كما يقول.

* * *

تعلّم فكّ الحرف في دكان الإسكافي شحادة عبيد الذي جمع بين مهنة الاسكافية والتعليم. لكنه تعلم على نفسه لأن أهم ما يتعلمه الإنسان من الحياة وليس من الكتب فمن لم تعلمه الحياة ما تعلّم شيئاً هاماً.

يصف لنا طفولته بما فيها من شيطنة وعذاب . . . ابن ست أو سبع سنوات كان يرعى البقر والماعز تحت المطر وفي البرد والصقيع . كأن لم يكفه ما لقيه في طفولته من الحرب العالمية الأولى تلك الحرب التي عانى شعب لبنان من أهوالها أقلّها الجوع والمرض كالرمد والملاريا والحمّى والسلّ والأوبئة وأكل الجيف والموت جوعاً .

التجارب التي مرّ بها في طفولته جعلته يصبح رجلاً قبل أوانه يتحمل مسؤوليته وأن ينضج باكراً . بين الغرور والتواضع يخبرنا عن الشيطنة والولدنة ومغامراته الصبيانية . ولما كان الديك الفصيح من داخل البيضة يصيح فقد برّز في قراءة رسالة بولس الرسول بناء على طلب الخوري يعقوب . ومن فرط اجتهاده ، كان يأكل العِلم أكلاً كما يقولون ! .

وهو يقول : «في بلادنا عادة قبيحة ، الناس لا يحبون الأطفال ويضيقون بهم ذرعاً . . . فيما يكاد الأطفال في الغرب يُعبدون» .

اختير في مدرسة البلمند ليلقي خطاباً بالفرنسية ترحيباً بالجنرال غورو ـ الذي أعلن قيام دولة لبنان الكبير في ١ أيلول سنة ١٩٢٠ ـ عندما جاء لزيارة الدير ! في ذكرياته حِكَم وتجارب ومواعظ : «المرء بأخلاقه لا بحذائه» ! .

سريع النكتة خفيف الظل يقول في استاذ العربية في مدرسة الفرير في طرابلس يوسف الفاخوري ، الذي كان يدّعي بأنه شاعر : «إن شعره كالخبز اليابس ، لا يصلح حتى للفتوش» ! .

ذاق كثيراً من مرارات الحياة وقليلاً من حلاواتها ! كان يعتقد بأن النحس يلازمه ! . ترى لو لم تكن المرارة موجودة فهل كان الإنسان يعرف لذّة طعم الحلاوة ؟ ! .

حياة الإنسان في الحركة والنشاط لأن الماء الذي لا يتحرك يصبح آسناً ! .

كان نهماً يقرأ كل ما تقع عليه يده من كتب ومجلات وجرائد. تأثر بجبران خليل جبران وكادت «الأجنحة المتكسرة» تحمله إلى عالم الأحلام والأشواق والحب! متأرجحاً بين الواقع والخيال، بين الممكن والمُحال! يهرب من المصائب وهي تلحق به وهو الذي يقول: «ما أكرم الحياة بالمتاعب والهموم وما أبخلها بالصفاء والسعادة!».

يا لسذاجته! كان مع صديقه جبران جريج يدرسان في طرابلس وكانا متيمين بفتاتين فاتنتين تدرسان في مدرسة الروم ـ وداد وأختها لولو (مالك) ـ من بطرام وقد تغزل بجمالهما الأخطل الصغير في قصيدته «نسيتُ لون الليالي»:

وليلـة فـي «بِطّـرامٍ» أُخـذتُ بهـا وقد جعلنا بزوغَ الفجر مِيقاتا[1]
في مجلسٍ مَالِكيٍّ، لو منحتُ به جنّاتِ عدنٍ، لقالَ القلبُ: هيهاتا!

يحومان حول مدرسة الروم لعلّ الحظ يسعفهما فيلمحان الفتاتين! وبينما هما في ضياع: «وإذ بمشعوذ طويل القامة أسود اللون كثّ اللحية، يحمل مسبحة تكاد تلامس الأرض، يمرّ بهما ويحيّيهما قائلاً: ألستَ عبد اللّه قبرصي، ألستَ جبران جريج؟ فذهلا وسألاه ماذا يريد؟ فأجاب: أنتما مغرمان، وأنا الكفيل بإحضار من تحبان اليكما. ادفعا بعض المال. فنقداه ما كان معهما وهو قليل فقبل. ثم أخذ إبرة وخيطاً وادخل الإبرة في جلد كل منهما دون أن يشعرا بألم. ثم أعطى كلاً منهما عَظْمة بيضاء وقال: عندما ترغبان في لقاء الحبيبة. إضغطا العَظْمة على قطعة جوخ من طقمكما فيتم اللقاء! صدقاه وراحا يحفان قطعة العظم ليلاً نهاراً ولم يظفرا إلاّ بالخيبة!.

* * *

(١) شعر الأخطل الصغير، بشاره عبد اللّه الخوري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٢) (ص ٣٣٧).

ليست فتوّته كلها حب وهيام دون جدوى! بل فيها جدّ ودأب وسهر اللّيالي في الدرس والتحصيل وتحقيق النجاح وحيازة الأوليّة. كان يكره قساوة وتشدد رهبان الفرير ولكنه استفاد منهم وتعلم. وها هو يصف أحدهم بلغ الخامسة والسبعين: «شعره أبيض كثلج صنين، وجهه أحمر كنبيذ فرنسا. وصوته مكبوت كأنما يصعد من حلقه مجروراً جرّاً». وقد صفق طويلاً لهذا الراهب الذي قال في الاحتفال بيوبيله الذهبي: «لكل إنسان وطنان، وطنه وسوريا»، وهو في الأصل: «لكل إنسان وطنان وطنه الذي ولد فيه وفرنسا[1]»

فإذا كان لكلمة «سوريا» وقع السحر لديه فهو كوراني ـ بل هو جبار الكورة يفاخر بكورته متعصب لها!.

في المدرسة لم يتعلم الدروس المطلوبة وحسب بل كان يصغي للمواعظ والإرشادات التي يسمعها في المناسبات والخطب والوصايا ولعل أكثر ما أثّر في نفسه الدعوة لأن يعتصم بالفضيلة والحماسة وهو يعلق على ذلك فيقول مختصراً فلسفته في الدين والحياة:

«ما أصاب مني وتراً حساساً هو الدعوة إلى الحماسة لأن كلمة فضيلة كما كنا نقرأ في الكتب تُفهم عند كل بلد أو عند كل إنسان، حسب فلسفته الخاصة لأن الدين نفسه، وإن كان في الوصايا قد حدد الفضائل كما حدد الرذائل ونهى عنها، لم يستطع أن يكبح جماح الغرائز ولا أوقف موجة القتل والسلب والزنى والخيانة... والكفر باللّه... وبالقيم ـ إن الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لم يستطع أن يمنع القويّ عن أكل الضعيف، أو قتله أو سجنه. الحق للقوي... رغم كل الوصايا وكل الفلسفات.

---

(١) مجلة «الجامعة» لفرح أنطون، الجزء الخامس، ألسنة الخامسة، نيويورك، ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٦ (ص ٢٠٩).

الحماسة . . . الحماسة للحق وللحقيقة، الحماسة للحرية، الحماسة للذود عن حياض الوطن وسيادته، الحماسة للثورة على المظالم والمقالب والنفاق، ذلك هو الذي اسميه الحماسة المقدسة»! .

يروي لنا كيف أن جده قد سار ليلاً من قريته إلى طرابلس ليصلها قبل طلوع الفجر ويعطيه ٥ ليرات ذهباً كان جده قد استدانها لكي يتمكن الفتى من مشاركة رفاق صفه في رحلة إلى اللاذقية بعد أن كان قد أرسل له رسالة يخبره فيها بأنه سينتحر إذا لم يرسل له الليرات الذهبية! هذا تصرف الولد. وفي كل إنسان طفل لا يموت إلا بموته . . . قد تكون هذه الطفولة الراقدة في الباطن، ملهمة الكثير من الفضائل، كما قد تكون سبباً لتصرفات خرقاء لا يقرها منطق.

فالطموح بالنسبة إليه كان بمثابة مهماز يدفعه إلى المثابرة والمكافحة وتخطّي الصعاب فهو لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب ولا حتى ملعقة خشب! .

يقول: «حتى في صف البكالوريا لم يكن في جيبي من المال ما يكفي لأشتري كعكة أو اشرب قنينة كازوز! من الفقر والحرمان واليتم، من وراء البقر والماعز، من مدارس القلمون وبرسا وبيترومين والبلمند والصفا استطعت بالصبر والاجتهاد على احتمال كل أنواع الشقاء والتعب والسهر المضني وبالطموح المتقد المحرِّض، أن أحمل شهادة مدرسية توازي البكالوريا. . الحرقة الوحيدة التى لوّعت فؤادي أي لوعة أن ليس لي أم ولا أب حولي وإن يكن أبي حياً في المهجر»! . فلم تكتمل فرحته. لا أحد يحل محل الأهل.

* * *

بنى عبد اللّه قبرصي حياته حجراً حجراً. يشاركه القارىء همومه وأفراحه، نجاحه وسقوطه، وخيبات أمله، كفاحه وطموحه. وليست الأسماء التي يذكرها في «ذكرياته»، والتي تزيد على المئات، هي المهمة وليس مهماً من هو والده

ووالدته، جده وجدته، أخواله وأعمامه، ومن هم رفاقه، وأترابه، ومعلموه. ومع من يلعب أو يتشاجر... المهم أنه في «ذكرياته» هذه يصور لنا حياة طويت وطريقة عيش ومرحلة زمنية كانت صعبة جداً فيها شقاء وعذاب، فيها حرب قاسية، فيها دموع وموت، فيها جوع وجهل ومرض، كل هذه الأحداث جَبَلَت شخصيته وكوّنتها. الكفاح ومقارعة الأقدار وشق الطريق الصعبة الوعرة أهم بكثير من السير على طريق ممهدَّة سهلة... مفروشة بالورود!.

والكوراني الذي يقرأ هذه «الذكريات» لاشك يعرف عدداً كبيراً ممن يدور عليهم الكلام مما يمنحه المزيد من المتعة!.

وهذه «الذكريات» بما فيها من سذاجة وأخبار طريفة ومآزق ومقالب ونجاح وفشل وصعود وهبوط وتحدٍّ وغرور، وفرحته بنيل الشهادة وتحقيق طموحاته بحيث يصبح «بطلاً» و «رمزاً». فهو أول من نال شهادة الحقوق، ليس فقط في قريته دده، بل وفي جميع قرى القلع الـ ١٨. فكان القدوة للآخرين!.

لقد رفع رأس القلع! «طِلِعْ من الزوباع مِسَّاس» كما يقول المثل[١]. فرجل القانون يساوي رجلين كما كانوا يقولون!.

كانت أول دعوى يترافع فيها ويربحها أقامها عمه ضدّ والده يطالبه بدين له بموجب سند أخذه منه عندما كان في كوراساو مؤرخ سنة ١٩١٤ وكان قد مات بمرور الزمن. لبس روب المحاماة وبدأ يتدرّج ويصعد السلّم درجة درجة. أخذ اسمه يلمع في عالم المحاماة وقلبه يدق للحب موزعاً بين حب جورجيت

---

(١) الزُوباع: نبات برّي يؤكل كالصعتر: المِسّاس: قضيب طويل يوضع في طرفه مسمار يسوق به الفلاح الثور. مَثَلٌ شائع في منطقة القلع ـ حيث يتوفر الزُوباع ـ يُضرب للعمل الخارق أو لنتاج شيء هام من شيء ليس ذي شأن.

والحزب. كان الشعر المفتاح الذي فتح قلب جورجيت بربر من بتعبورة الكورة ابنة شقيقة المحاميين إبراهيم وفهيم الخوري اللذين كان يتدرّج في مكتبهما في بيروت. كانت جورجيت، قبل سماعه يلقي قصيدته في ذكرى الشهداء والتي كان ألقاها في دمشق وهو لمّا يزل طالباً في كلية الحقوق، تتشاوف عليه وتتكبّر وتجر ذيلاً طويلاً! فأصبحت تميل إليه وتتودّد. ثم ما لبثت أن طلبت منه أن يعلّمها الفرنسية ففرح بذلك وعلمها الفرنسية والغرام... ثم علقت الصنّارة!.

* * *

يتحدث عن ناس بسطاء يعرفهم. يذكر حسناتهم وسيئاتهم، سقطاتهم وتجلياتهم... الناس الذين يبقون في الذاكرة ويدخلون في الوجدان فلا تستطيع أن تخرجهم منه بسهولة!.

عجيبة هذه الذاكرة! هذا الصندوق المدهش الذي يستبقي الأشياء والأحداث ويحفظها ثم قد تغيب عنه فيستعيدها ولكنه لا يمحوها!.

نشأ عبد اللّه قبرصي وترعرع على عزّة النفس وحب الحرية مرفوع الجبهة شامخ الأنف. كان من دعاة الاستقلال والتحرر رافضاً الانتداب الفرنسي على لبنان والذين يسيرون في ركابه.

في رأس بيروت وجد حبّين بدلاً من حبٍ واحدٍ لازماه طيلة عمره: حبه لجورجيت بربر الفتاة التي أسرت فؤاده، ولأنطون سعاده الذي سلبه عقله وكان أن سكن في الغرفة التي كان يسكن فيها أنطون سعاده في دار آل الحدّاد في شارع جان دارك في رأس بيروت وهي ما تزال قائمة. فوق محل «بولار»، عرّفه على أنطون سعاده قبل أن يعلن تأسيس حزبه، موسى سليمان، وهو يقول عن الانطباع الذي تركه في نفسه للوهلة الأولى: «كان الرجل يكبر تدريجياً في عيني وكنت أصغر في عينيّ نفسي. كان يعلو حتى أصبح مارداً عملاقاً، وأنا أضمرُ حتى أصبحت في حجم العصفور».

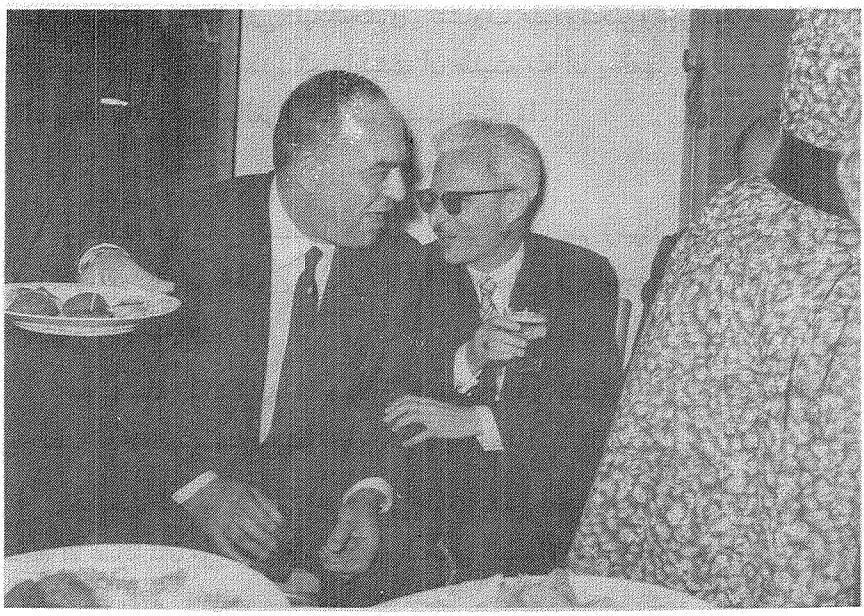

في منزل الصديق نعيم الحاج في بيروت تاريخ ٣٠/ أيار/ ١٩٦٠
مع الجنرال جميل لحود والد قائد الجيش إميل لحود

في الحزب السوري القومي كانت ولادته الثانية وما لبث إن أخذ بلبّه فأصبح أسير فلسفته ومبادئه فاقسم اليمين على مبادىء الحزب ـ التي كان أنطون سعاده كتبها بخط يده على دفتر من الدفاتر المدرسية ـ في خريف سنة ١٩٣٤ . أصبح رجلاً صاحب قضية ووهب حياته للحزب وأصبحت تتنازع قلبه عاطفتان: حبه لحبيبته وحبه لحزبه . وهكذا يتزوج زوجته والحزب فيكون قد اتخذ الحزب ضُرَّة لها! .

يجيب زوجته عندما سألته إذا كان يحب أحداً أكثر منها قائلاً: «أُحب أكثر منك اللّه وسورية، ولكن أحبك أكثر من نفسي» . وهكذا مشى على درب الجلجلة: جلجلة الحزب فعانى بسببه السجن والنفي والخوف والتشّرد والحرمان والإقامة الجبرية وحتى حكم الإعدام . . .

الغيرة هي الوجه الآخر للحب! أم أَن الحب والغيرة متلازمان كوجهي الدينار؟! وهو يرى أن الغيرة غذاء للحب إذا اعتدلت ومرض عضال مفسد للحب إذا تطرّفت! .

ورغم كل شيء لا شيء يساوي حلاوة الحب وناره المحرقة .

وهكذا بات نشاطه موزعاً بين المحاماة والحب والحزب .

قصة حبه ممتعة مثل قصته مع الحزب . وهو يروي لنا تفاصيل هذا الحب الذي رغم كل المصاعب ينتصر في النهاية وتعود جورجيت إليه بعد مغامرات عنيفة وشجار وعتاب وتهديد ومواقف متشنجة بلغت حد الهوس والجنون . . .

وهو لم يبتعد عنها إلا ليقربها من نفسه آخذاً بالمبدأ القائل: إن من يتهالك على المرأة تنبذه ومن يهرب منها تهرب إليه! .

يتصارع مع قلبه من أجل الفوز بحبيبته ويتصارع مع واجبه من أجل إدخال أعضاء جدد في الحزب .

* * *

كان عبد اللّه قبرصي ـ أبو صباح ـ يجد نفسه أحياناً وليس في جيبه قرش واحد فيستدين ويرهن ساعته ويبيع ما ورثه عن والده من أرزاق ليفي الدين ثم ما يلبث أن يلجأ إلى الاستدانة من جديد!.

وهكذا ينفق بأيام، ما يجمعه بأشهر. وبات يحاول التوفيق بين تنفيذ أوامر الحزب وزعيمه وتنفيذ أوامر زوجته.

فالزواج يتطلب أشياء كثيرة: استئجار المنزل وشراء الحاجيات والفرش وما إلى ذلك. بيد أن الزوجة الفاضلة بدلاً من أن تطلب من زوجها أكثر مما يستطيع أن يقدّمه، تكتفي بالموجود وتقنع! وإذا كانت أكثر من فاضلة وقديسة باعت صيغتها وحِليّها لتشتري الأدوات المنزلية الضرورية ومستلزمات تأسيس المنزل كما فعلت زوجته جورجيت. ورغم ذلك لم يتمكّنا من شراء طاولة سفرة فكانا يأكلان على ماكنة الخياطة ـ التي سبق لهما وأن استخدماها كصندوق بريد لرسائل الحب المتبادلة ـ، وعلى ضوء الشموع لأنه لم يكن في طاقته الاشتراك في التيار الكهربائي. وهو يعلّق على ذلك قائلاً: لولا الحب ما استطاع زوجان فقيران أن يتحملا حياة زوجية بدأت بالسجن واستمرت بالحاجة والحرمان والاضطهاد زمناً طويلاً».

يقول في خاتمة: «ذكرياته»: «إنه يكتب هذه الذكريات عن عهد الطفولة والشباب ولا يزال، رغم تقدمه في السن، يشعر بالطفولة والشباب، على امتداد هذه السنين، وما رحلت طفولته ولا رحل شبابه! تلك نعمة من نعم الحياة عليه، تعويضاً ـ على ما يتصوّر ـ عما أُصيب به من مصائب ونكبات ومحن وما عانى من اضطهاد وحرمان».

وأنا أقول إن عبد اللّه قبرصي صاحب هذه «الذكريات». الذي بلغ السادسة والثمانين من عمره ـ أطال اللّه عمره ـ لا يزال طفلاً في السادسة والثمانين.

إن المذكرات والذكريات هي نوع من أنواع الأدب ولعلها الأصدق والأقرب إلى النفس!.

وإذا كانت غاية الأدب، كما يراه أبو حيّان التوحيدي، صاحب «الإمتاع والمؤانسة»، الإمتاع والمؤانسة فقد أمتعنا عبد اللّه قبرصي في «ذكرياته» أي إمتَاع!.

وبعد هذه الجولة الممتعة برفقة الأستاذ عبد اللّه قبرصي ـ جبّار الكورة ـ ليس الهدف منها تلخيص «ذكرياته» ـ التي أجمل ما فيها صدقها ـ وإنما الاستشهاد ببعض ما ورد فيها تاركاً للقارىء أن يكتشف متعة قراءتها ليقر معي بأن لقب «جبّار الكورة» ليس بكثير على عبد اللّه قبرصي!.

* * *

الدكتور ميشال جحا

مقدمة

عبد اللّه قبرصي يتذكر طفولته وشبابه

لا يكتب عادة مذكراتهم أو ذكرياتهم إلا الذين لعبوا دوراً هاماً في الحياة العامة، سياسية كانت أو أدبية أو فنية. فلماذا أكتب ذكرياتي وأنا لا أعدو كوني رجلاً عادياً؟.

لقد نشرت في مجلة صباح الخير ـ البناء على مدى سنتين «عبد اللّه قبرصي يتذكر» فحفزني ما لاقت ذكرياتي، وهي في معظمهما حزبية ـ سياسية، من ترحيب وتشجيع، إلى أن أكتب هذه الذكريات الخاصة، من الطفولة إلى الكهولة، لعلي ملاق نفس الترحيب والتشجيع من جهة، ولاني بالفعل أشعر أنا الرجل العادي، ان ماتخطيت من عقبات وما لاقيت من أهوال في طفولتي وشبابي ـ فضلاً عن كهولتي، لم يكن عادياً وإن ذكرياتي لا بد أن تكون أمثولة للناس، يتعلمون منها تحدي الأقدار والصمود في وجه المحن والمصائب والمتاعب واليتم والحرمان يضاف إلى ذلك ما فيها من المشوقات، كأنما هي قصة طويلة، لها كل مقومات القصة المثيرة. لم يكن دافعي فقط ما ذكرت، فقد وقع بين يدي كتاب المربي والأديب الأستاذ الدكتور أنيس فريحة «قبل أن أنسى...» فرحت اتصفحه دون حماسة، إلى إن بلغت ربعه الأول، فرأيتني التهم الثلاثة أرباع الباقية التهاماً. رحت أترعه كما يترع المشتاق كأسه المفضل. ما انفككت عنه، حتى فككت آخر عقده، وأتيت عليه من الدفة إلى الدفة وأنا نشوان، معجب بقدرة الرجل على تخطي نفسه و... المستحيلات التي وقفت في وجهه. قلت في خلدي أن الأستاذ فريحة، أفادني وعلمني إذ أتاح لي أن أرحل معه عبر السنوات الماضية إلى أيام صباه

وشبابه. وفي ذكرياته الكثير مما أصابني ومما لاقيت في الحياة من حرمان وعذاب، فلماذا لا أكتب سيرة حياتي، كي لا أنسى أنا أيضاً.

وكان الحافز الأخير، كلمة قرأتها في أحد أعداد مجلة «المستقبل» الصادرة مؤقتاً في باريس من أن أكذب ما في الأدب المذكرات أو الذكريات. أثارت هذه الكمات غضبي وكدت أكتب إلى المجلة المحترمة رسالة تصحيحيّة. ثم احجمت. ولكن جوابي كان في الإسراع إلى البدء بكتابة هذه الذكريات لتثبت «للمستقبل» أنها علي خطأ.

لقد سبق أن كتبت الصفحات الطوال عن «عبد اللّه قبرصي يتذكر» ونشرتها جزأين وكنت أطالب برسائل خاصة، أو في الذكريات نفسها، كل من أذكرهم من الأحياء أن يصححوا واقعة من الوقائع التي كنت أرويها، كي لا أظلم أحداً ولا أقول إلا حقاً. وحتى الآن لم أتلق رسالة تصويب واحدة. إنه لدليل على أن ذاكرتي لم تسجل إلا الوقائع كما وقعت وإلى أني أروي ما أرويه بصدق لامخادعه للنفس ولا للآخرين فلا أكذب على الذات ولا على الآخرين وان لا مبالغة في دوري وطاقتي ولا انتقاصاً منها.

ويهمني بعد هذا أن أكتب للناس. إن هذه الذكريات ليست حزبية ولا متحزبة. أنها ليست عصبية ولا متعصبة. يهمني أن يقرأها بنو قومي وأن يتعاطوا معها ويتعاملوا بدافع التعاطي مع الحرف والكلمة، كما يتعاطون مع مشاغلهم اليومية، سواء أكانوا في الريف أم في المدينة.

لا يستوقفني ما تقوله عني الخاصة، أنها تريدني أن أغوص باستمرار على اللآليء والآحجار الكريمة وأن أنقلها إلى عيونها والأذهان. لست قادراً على التلبية لأن ليس باستطاعة كل الناس أن يتعاملوا مع اللآليء والأحجار الكريمة أما لأنهم لا يفهمون قيمتها وأما لأنهم ليسوا قادرين على اقتنائها.

لاكن أديباً من الشعب، أخاطبه بلغته، بشجونه، وشؤونه بتوقه وشوقه،

برغباته ومطامحه . أن أحفز ما فيه من سمو نفسي كامن، ليجد في طلاب تحقيقه، أدركه أم عجز عن أدراكه . المهم أنني كنت الحافز إلى الخير .

صحيح أن الأدب ليس وعظاً وارشاداً . أنه استجابة لنداءات وهواتف داخلية تدفع بالإنسان إلى الحركة، إلى العطاء إلى التفاعل مع مجتمعه مع مواطنيه، مع تراب وطنه، ليظل في حلبة الانتاج، ليظل فاعلاً أو منفعلاً، مؤثراً أو متأثراً، فلا يهدأ له أوار ولا مسار .

أنني أسير دائماً في الطرق المكشوفة وأمشي في وضح النهار، أقص حكايتي كما يندى الفجر على المزاهر، لكي أتلافى الوقوع في الغموض أو المسير على قشر الموز أو في الانفاق . . . المظلمة .

سيرى القارىء كيف صنعت نفسي عصباً عصباً، شريان شريان، لبنة لبنة، لقد جبلتها من الحرمان والعذاب والكفاح . حتى إذا أشرفت على نهاية المطاف، أشرف مرتاح الضمير قرير العين، وأني وفقت إلى حد كبير بين تحقيق حاجاتي المادية النفسية كأنسان، وبين حقوق شعبي ووطني علي .

بقي سؤالٌ يجيب عليه القارىء، هل في هذا الزمن الأسود الرديء، زمن الفواجع والمجازر والقصف والجرف والخطف، متسع لكتابة الذكريات؟ أو متسع لقراءتها؟ أنا كتبت للقيامة لا للموت، للأمل لا لليأس، للسلام لا للحرب . لتسقط الحرب وليحيى السلام وسيحيا لأن لا حياة بدونه .

نيسان ١٩٨٦

عبد الله قبرصي

الحركة الثقافية

تكريم الأمين عبد الله قبرصي 1991

من المهد إلى اليتم

في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٩١٠ مع تباشير الفجر كان مولدي، في بيتنا القائم حالياً كتلة من أحجار وخراب. أبي إبراهيم عبد الله قبرصي وأمي سعدى يعقوب الزاخم وأنا ولدهما البكر. وقريتي دده من قرى الكورة الشمالية.

والدي كان اسكافياً تارة وتارة أخرى مكارياً. كانت هاتان المهنتان أفضل المهن في قريتنا. روى لي سمعان خضير من برسا ـ جارة ضيعتنا ـ إن والدي كان عصبي المزاج... أثناء تدرجه في صناعة الأحذية عندما كانت تستعصي عليه احدى مراحل الشد والمط، كان يرمي بالقطعة التي بين يديه أرضاً ويضرب عن العمل إلى أن يهدأ طبعه. وروى لي شيوخ القرية من بعض أترابه ورفاق عمره، أن بغله كان محملاً شعيراً وقمحاً ويصعد في طريق «العريض» الوعرة فسقط كيس الشعير وانفخت وتبعثر ما فيه من حبوب. فهب والدي يؤنب البغل قائلاً: «هذه مؤنتك لإسبوع، ستصوم جوعاً...».

أما أمي فعلى العكس من أبي. كانت هادئة عفيفة القلب واللسان. تروي لي جدتي أنها منذ نعومة أظافرها كانت عوناً لها في تدبير المنزل، ورعاية أختها الصغرى بسمة وأخوانها الأكبر جرجس وحنا وأنطونيوس.

والدي تعلم في مدرسة القرية وأصبح يقرأ ويكتب بسهولة. ختم المزامير والرسائل «والفتاخوس». إذن أخذ الشهادة...

أما أمي فيبدو أنها كانت أمية كخالتي بسمة التي لا تزال على قيد الحياة. (ماتت قبل طبع ونشر هذه الذكريات).

كانت عائلتي زاخم ـ عائلة أمي ـ وقبرصي تتنافسان على زعامة القرية. إلا أن جدتي شمس (والدة أبي وأصلها من بلدة المنية من عائلة قليمة) مرضت مرضاً

عضالاً وأشرفت على الموت. ووالدي وحيدها لا شقيقة له ولا شقيق. طلبت جدتي نسطة إلى فراشها وعرضت عليها أن تزوج والدي من ابنتها الكبرى سعدى. كانت أملاكنا وسيعة وجدي عبد اللّه مستودع أمانات الضيعة وكان والدي مهيب الطلعة، وإن عصبي المزاج. فضحكت جدتي نسطة شيخاني في عبها كما يقولون في دده، وهرولت تبشر أمي بالعريس. إلا أن أمي كانت ميالة إلى يعقوب إبراهيم صاحب أكبر فرن عندنا. فزجرتها جدتي وحملت عليها مع جدي وأخوالي إلى أن رضيت، فاستدعي الكاهن الخوري يعقوب البشواتي، وحول سرير جدتي شمس المحتضِرة جرى الأكليل بمراسيمه الأرثوذكسية الفخمة: «بالمجد والكرامة كللتهما...».

كانت أمي وأبي في سن متقاربة أبي في الثامنة عشرة وأمي مثله.

رزق والدي من بعدي طفلة وطفلاً، توفي كل واحد منهما في المهد. وسافر والدي إلى كوراساو ـ جزيرة الزمرد والياقوت آنذاك ـ لاحقاً بعمي مخائيل القبرصي وخالي حنا، وهو ينوي أن يهيأ لي ولأمي مسكناً لائقاً ليستدعينا إليه في أول فرصة.

وقد روى لي والدي بعد أن تعرفت إليه ـ وكنت قد بلغت السادسة والأربعين من عمري كما سيرى القارىء. إنه وهو يودع أمي قال لها مطمئناً: قريباً يا سعدى ستلحقين بي أنت وعبد اللّه، فأجابته وكأن هاتفاً يهتف بها من داخل: «لن أراك بعد اليوم يا إبراهيم» يعرف الإنسان أحياناً كثيرة بالحدس ما يعتبر نبوءات.

هذه الرواية من والدي وما كانت تذكره لي جدتي نسطة الشيخاني عن اعتلال صحة والدتي بعد سفر أبي، وكانت قد وضعت أختي المتوفاة «سيدة» منذ أمد قصير، تدل أنها كانت مصابة بما نسميه حمى النفاس ولم يكن هنالك طبيب معالج، فراح يعالجها المغاربة الذين لا يزال صوتهم يرن في أذني «دوا للعين، دوا للرأس...»

هؤلاء المغاربة كما تدل أسماؤهم كانوا يأتون من شمال أفريقيا بالأدوية والعقاقير، فيعالجون الناس بلا قاعدة ولا قياس. . . يبدو أن أمي ماتت ضحية جهلهم.

لا أذكر شيئاً عن أمي ولكن أفترض أن والدي سافر سنة ١٩١٣ في منتصفها فماتت بعد سفره بقليل أي بفترة لا تزيد عن الثلاثة أشهر.

الموت يصدم حتى الأطفال. الصدمة وحدها جعلتني أتذكر أمي ممددة على الأرض جثة هامدة، والنسوة من حولها يولولن ويندبن وأنا أحاول أن أقفز فوق جثمانها لاعباً.

الصدمة تجعلني أتذكر كيف كان تابوتها مزركشاً بالأبيض والأحمر لأنها كانت لا تزال في مطلع شبابها (٢١ عاماً) وحاملوه يهدمون قسماً من الدرج في مدخل سلم بيتنا ليتمكنوا من إنزاله إلى الطريق العام. وأنا أقول للناس ضاحكاً «أمي رايحه ع بيروت لتجلبلي ملبساً». يا للأطفال لا يفكرون إلا ببطونهم. لا بأس فكثير من الحكام والرأسماليين والاقطاعيين ورجال الدين لا يفكرون إلا ببطونهم. . . أيضاً.

لعلماء النفس والبيولوجيا أن يقرروا إذا كان طفل في الثالثة من عمره، يستطيع أن يتذكر وقد أصبح الآن في السبعين هذه الوقائع: لون التابوت، والقفز فوق الجثمان، والأم الذاهبة إلى بيروت لتشتري لوحيدها ملبساً.

عمي ديب القبرصي وخالي حنا عادا من كوراساو في بداية الحرب أو بعد بدايتها بقليل. أذكر أن القرية خرجت لاستقبالهما وكانا يلبسان كل واحد برنيطة ويمتطيان كل واحد جواداً.

كان جدي يعقوب وجدتي نسطة، قد أخذاني على عهدتهما وكان عم والدتي جبور الزاخم قد أخذ وكالة عامة من والدي ليدير أملاكنا الواسعة. يظهر أو والدي لم يكن يثق بجدي يعقوب وإلا لماذا أوكل أملاكه لأخيه؟.

لم أشعر في تلك السن بفراغ. كان همي أن ألعب مع أترابي وأن آكل وأشرب وأنام. كانت حاجاتي الصغيرة مؤمنة. لم أحس أن اليتم نكبة حلّت بي.

أبان الحرب بدأ خالي حنا بتشييد منزله الوسيع الذي لا يزال قائماً في دده (١). لم يستطع إكماله ولكن بعض غرفه كانت قد أصبحت جاهزة. وبدأ أيضاً بالتجارة التي كان قد تعلم أصولها وفنونها في جزيرة كوراساو... فراح يشتري كميات من القمح ويخزنها في البناء الجديد ثم يبيعها بأسعار باهظة.

كان خالي مولعاً بالعلم، هو شبه الأمي. وكان في القرية إسكافي يدعى شحادة عبيد يمارس مهنته في بيته، وبالوقت نفسه يعلم الأولاد الصغار الأحرف الهجائية ومبادىء القراءة والحساب. وفي الخامسة من عمري دخلت هذا «المعهد العالي» معهد المعلم شحادة الذي كان يكتب لنا أحرف الهجاء على كرتونة، فإذا ختمناها، كتب لنا بعض الأفعال وبعض الأسماء. ثم الأرقام الحسابية.

لا أعتقد أنني اتقنت شيئاً في دكان المعلم شحادة ـ المدرسة ـ سوى أن ألفت مع عقل ساسين وإبراهيم حنا الزاخم «عصابة» للسطو على مشمشة وكروم المقدسي جرجس الزاخم ـ مختار الضيعة آنذاك أو شيخها لطائفة الروم الأرثوذكس. فاتني أن أذكر أن دده مؤلفة من طائفتين متوازيتين من السنّة والروم الأرثوذكس.

وفي موسم المشمش تآمرت مع ركني العصابة إبراهيم وعقل على سرقة المشمشة. فاستأذنا الواحد بَعْدَ الآخر لنخرج في حاجة نفسنا. ثم تسللنا إليها وأكلنا من مشمشها حتى التخمة. وعدنا نتضاحك ونتغامز. كنت أنا الأقصر قامة لكن الأدهى، فرتبت الأمر كي يدخل رفيقاي قبلي إلى المدرسة. وما أن سمعت ضرب العصا والبكاء والصراخ، حتى هرولت راكضاً باتجاه بيت جدي. وجدت الخال حنا يتمشى فسألني: لماذا أنت هنا؟ الساعة ما بلغت بعد العاشرة، كيف

تركت المدرسة؟ . . . تلعثمت وبكيت واعترفت بالذنب الذي ارتكبت . . . فغضب خالي وأنبني، ثم ساقني أمامه معنفا إلى الدكان ـ المدرسة . . . ودخل قبلي طالباً لي الغفران والصفح . . . الشفاعة مقبولة عند الله فكيف يرفضها إنسان تقي كالمعلم شحادة؟ .

نجوت من العقاب ولكن ظللت خائفاً من عقاب عنصري العصابة الآخرين . بقليل من الدهاء الطفولي والقضامي استرضيتهما وعدنا عصابة خير عوضاً عن أن نظل عصابة سرقة وسطو .

دخل قريتنا كان من الزيتون والتوت والحليب والتين والعنب والكلس . . . وخاصة من المواد الثلاث الأولى . فرحتي الكبرى كانت موسم قطاف القز . كنت أساعد جدتي وأقبض أجرتي . يا للسعادة في شراء بعض الملبس والقضامي و«المعلّل» .

إلا أن مواسم القز والتين والعنب لم تكن تخلو من المآسي . فمع هذه المواسم كان يقبل على ضيعتنا موسمان : موسم الرمد في العيون، وموسم الملاريا عن طريق البرغش . . . الرمد يأتينا من الغبار والبرغش مما كنا نسميه «الرامية» وهي نوع من خزان مفتوح لتجميع مياه الشتاء بقصد سقاية المواشي صيفاً . بدأت، بعد وفاة والدتي وسفر والدي، تنهال علي المصائب ولنقل ملاحقة الأقدار، كنت مصاباً بالرمد في بيت جدي . كنت أعالج بالقطرة وبمنديل أسود ألف به رأسي وأمنع الذباب من نقل الجراثيم إلى سواي . . . جدتي مشت إلى الكروم «لتمشق» ورق التوت طعاماً لدود القز، وتركتني في البيت وحيداً . صرخت مطالباً بمرافقتها . ركضت وراءها باكياً فهددتني بعصا غليظة . ارتدعت مؤقتاً . ما إن غابت عني لحقت بها . وكان علي أن أمرّ قرب «الرامية» والمنديل على عيني . . . ضللت طريقي وعثرت رجلاي، فوقعت في قلب الماء اتخبط طلباً للنجاة . لو لم يبادر أحد أبناء القرية لانتشالي، لبقيت هناك جثة هامدة . أذكر إن رجلي علقتا إلى فوق

ورأسي إلى تحت، لأفرغ الماء الموحل من أحشائي. . . ما ظن أحد أنني سأنجو، ولكنني نجوت.

أما العصابة الثلاثية فأذكر عنها نبذتين، الواحدة منها أن رفيقي عقل وإبراهيم تآمرا علي، يوماً كنا نقفز فوق حفرة يرمى فيها رماد الفرن، وكان الفرن فرن «ريما». . . قفزنا حتى تعبنا. وكنت أقفز وحدي في الشوط الأخير، فإذا بأحدهما يدفعني من وراء فأقع في الرماد المحرق. . . لو لم تنجدني صاحبة الفرن لاحترقت في الرماد.

انتشلت، اتخبط بحروقي كالطير الذبيح. . . وحملت إلى دار جدي حيث غطست باللّبن الرائب، ولفلفت بالشراشف، بضعة أيام، كانت الشراشف توجع الحروق التي أطفأها اللبن.

أما الثانية، فقد أفقت صباح أحد الأيام وجدي يعقوب يعاقب جدتي نسطة: «شو هذا عبد اللّه» ما يكفينا عن طعميه بهل أيام الحرب. لسّا عم بجيب لي أولاد الضيعة تطعميهم معو؟.

وجدتي تضع يدها على فمه هامسة: «يا بو جريس اسكوت هَلّأ «بيسمعك». . . كنت قد سمعت وسكتّ. ولكن ظل رفيقاي يأتيان كل يوم ويأكلان معي، بعد أن نلعب ركضاً وقفزاً وتسلقاً على رؤوس الشجر وهبوطاً عنها إلى تراب دده الأحمر اللامؤذي. كانت جدتي حصني الحصين. كانت ترى في وجهي وجه أمي سعدى التي ظلت تندبها حتى لفظت آخر أنفاسها في ١٨ شباط ١٩٣٧.

أما عن الملاريا فحدث بلا حرج. مع الرمد الموسمي كانت تأتي لتخض أعصاب الكبار والصغار. لا مناعة لأحد ضدها، ولا قوة تروضها. . . الدكتور جرجي عون من بشمزين وقامته الفارعة ووجهه الأسمر الناشف وكل شيبته ووقاره ثم حبوب الكينا يوزعها بالآلاف، ثم الأبر الطويلة المخيفة، كلها لم تكن تجدي نفعاً: الحمى تأخذ حرية الامتداد إلى أجل غير مسمّى.

إن الله قد حباني مناعة ضد الموت (والبرهان أني لا أزال حياً حتى اليوم) أما ضد المرض فقد كنت أوهى من زند معطوبة.

داهمتني الملاريا أولاً وثانياً وثالثاً. عاماً بعد عام. وكان في قريتنا مزار يدعى مزار «مار الياس» هو عبارة عن مغارة تذكر بعض النسوة الغاديات ليلاً إلى طرابلس لبيع الحليب، أنهن شاهدن شعلة نور تخرج منها ذات ليلة. . . . لقد ظهر مار الياس على الحلابات. فإذا بالمرضى يتقاطرون من كل الطوائف ومن الجوار، فضلاً عن أهل الضيعة لينالوا الشفاء على يد القديس الياس. . .

وجدتي كانت قديسة القرية. هي التي تقدم الرقى للمرضى والمصابين بالعقم. هي التي كانت تكشف الإصابات بالعين وتعالج اللوزتين. . . هي التي كانت تؤمن قبل كل الناس بمار الياس.

عندما لم تجدِ إبر الدكتور جرجي عون في معالجة مرضي قررت جدتي حملي إلى المغارة، إلى حضن مار الياس الحي ليظهر علي ويمنحني العافية. . . حملتني على ظهرها. . . وقد كنت ولا أزال خفيف الوزن، وأنزلتني إلى المغارة، وأشعلت الشموع وأحرقت البخور، وركعت على الحجارة وصلت على نيتي وعني. وتركتني وذهبت إلى بيت المير علي عبد الرحمن الأيوبي المجاور للمغارة. أعترف أني خفت. . . لو ذهبت إلى المغارة اليوم أخشى أن أخاف، فكيف في تلك السن الطرية؟ ما أن مرت دقائق طويلة، حتى وقفت على قدمي صائحاً: «يا ستي، يا ستي، أجا مار الياس» وطعماني قربان. . . وأنا صحيت؟. . .»

لا أذكر إذا كنت شفيت حقاً، ولكن أرجح أنني لم أشف. مار الياس أو سواه من القديسين يمكن أن يشفوا أمراضاً عصبية، أما الملاريا وباقي الجراثيم فمستعصية عليهم، لا يمكنهم أن يحلوا محل الكينا ولا محل الطبيب جرجي عون.

جدتي القديسة المؤمنة قبلتني، ركعت وقدمت الشكر، وتركت الشموع مشعشعة وحملتني إلى المنزل ورائحة البخور تملأ صدري. . . وهي تبشر بحدوث الأعجوبة، لله كم أنا ضعيف الإيمان بالأعاجيب وكبير الإيمان بارادة الحياة. . . وبالقضاء والقدر أحياناً.

جاءنا في هذه المرحلة معلم من الشام يدعى المعلم الياس. . . لا أذكر له أصلاً ولا فصلاً. أذكر أن المير عمر الأيوبي وأخته كانا يأتيان من «الغريبة» (أجل كان في قريتنا غريبة قبل غريبة أحداث لبنان) ليتلقنا العلم على يد المعلم الياس. لا أذكره بالخير لأنه كان صارماً. . . صارماً أكثر من المعلم شحادة. لا يعرف معنى للتساهل ولا للتسامح. ويل لمن يأتي غير حافظ امثولته. كان نصيبه الضرب بقضيب من الرمان، ثم العقاب الأشد منعه من الذهاب لتناول طعام الغداء.

لا أزال وأنا أذكر هذا المعلم «الملفان» اتحسس جوعي. . . فقد زربني عدة مرات لتقاعسي عن حفظ أمثولتي.

والصورة الأخيرة التي لا تغيب عن ذهني هي صورة الخوري يعقوب، خوري الضيعة الذي مات مؤخراً، عن عمر يناهز المئة وخمس سنين.

كانت جدتي تخيفني كما تخيف كل الأمهات أطفالهن بالخوري يعقوب، الكث اللحية، الطويل القامة، الرهيب العينين. . . . إذا عصيتم أوامرنا ـ تقول الأمهات ـ فإننا نشكوكم إلى الخوري يعقوب. مقصه جاهز لقطع لسانكم. . . ما كنت يوماً أعذب جدتي وأتجرأ على مواجهة الخوري يعقوب. . . إذا لمحت جبته السوداء من بعيد، أعود مسعوراً لأختبىء في جذع شجرة أو في بيت الجيران، دافناً رأسي بالشراشف والوسادات.

كان الخوري يعقوب في طفولتي شبحا مرعبا لي ولأطفال القرية. . . كان بعبعاً رهيباً.

من أطرف ما أذكر عن طفولتي اليتيمة ـ التي لم أشعر باليتم فيها بسبب حنان جدتي وعطفها وكرمها ـ وهو تكليفي بنطارة الكرم والتفاح والمشمش والإجاص في مواسمهما الصيفية.

كانت جدتي إذن تقيمني ناطوراً... شرطي كان معروفاً سلفاً. أن يكون إلى جانبي إبراهيم حنا الزاخم وعقل ساسين... وكنا بالحقيقة نواطير أمناء. نراقب الأشجار كل بدوره حتى إذا وقعت حبة من شجرة تلقفناها وتقاسمناها، إلا إذا كان أحدنا جائعاً فكان يهرب بها منفرداً ويلتهمها ليعود إلينا، والغصة في حلوقنا، نهدد ونتوعد دون تنفيذ...

رغم أن خالي صار تاجر قمح، لم تمر السنوات الأولى من الحرب دون أن نذوق طعم الجوع، وما أمره وآلمه... كنا نستعيض عن الخبز بالبلوط، بقشر ليمون الحامض، ببعض النباتات كالكعلول... كما كنا نلتهم صحن الرز المطبوخ ولو كان طعمه كازا وغازاً.

الجوع لا يرحم. إنها كلمة حق.

ولكن كم كان شبحه في الحرب مرعباً، حتى نحن الصغار، إذ كنا في طريقنا إلى المدرسة نرى جثث العجائز والشباب والصبايا، يتنادى أهل القرية لحملها وطمرها كيفما اتفق... نحن الأطفال سمعنا أن أماً في القرية القريبة من ضيعتنا «القلمون» أكلت طفلها لتسد رمقها وتبقى على قيد الحياة...

كان صعباً على خيالي الصغير أن يصدق أن الحياة أقوى من الأمومة... وأني لمؤمن بعد تجاربي في الحياة، وفي كل أنحاء العالم أن الأم هي ظل الله على الأرض. إذا لم تكن المرأة إلا أمّاً أو مشروع أم لكفاها اعتزازاً وفخراً. ولكان على الناس أن يقدسوها...

كم أثرت في عقلي الباطن مشاهد جثث الناس الملقاة على الطريق، التي مات

أصحابها جوعاً . . . لست أدري . إنني أدري شيئاً واحداً هو أن هذه المشاهد لم تكن تحزنني بل كانت تخيفني حتى الارتعاب .

الأطفال أنفسهم يخشون الموت . حب الحياة يولد مع الطفل ويموت مع العجوز ليبعث في أبنائه وأحفاده ، ويظل الناموس الطبيعي يحول كل شيء الاه . . . إنه الحي الباقي .

لم يكن جداي ولا خالي حنا بمتعصبين طائفياً ، رغم أن التعصب لم يكن غريباً عن جو القرية . كنت أسمع دون أن أفهم أو أعي كلمة مسلم ومسيحي . ما كانت تقع في ضيعتنا حوادث بين المسلمين والنصارى تلفت النظر . في مدرسة المعلم الياس ، أيام الحرب ، كنا نتلاعب ونترافق ، إسلاماً ومسيحيين ، دون تمييز أو تفريق . تغير الوضع عندما انتقلنا إلى المدرسة العثمانية الرسمية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا على البيادر . كان مكتوباً على حيطانها : «بادى شاهم شوق ياشا» (عاش سلطاننا طويلاً) .

وكان المعلم فيها شيخاً معمماً ، يضربنا بمناسبة وبدون مناسبة بعصا غليظة كانت لا تفارق طاولته . ثم بعد الدرس كان علينا أن ننتظم صفوفاً ونهتف بادي شاهم شوق يا شا ، دون أن ندرك معناها ، وأن نخرج الواحد بعد الآخر ، بصمت واحتشام . المسلمون في مدرسة الشيخ كانوا أسياداً ، وكنا نحن المسيحيين اتباعاً . التعصب كان ولا يزال يولد على أيدي الأغبياء من رجال الدين أو رجال الدنيا . لم نشعر أن تصرف الشيخ ولّد عند رفاقنا المحمديين عقدة الاستعلاء كما لم يولّد عندنا عقدة النقص . إذا علق بيننا أي شجار ، لا نسأل ما هو دين الفريق الآخر . كنا نقتتل بالحجارة أو نشتبك بالإيدي فيصيب أحدنا قريبه إذا كان في صفوف الأعداء ، لا يلتفت إلى كونه محمدياً أو مسيحياً . منذ طفولتي كنت علمانياً . لم يدخل التعصب الطائفي إلى قلبي ولا إلى عقلي . . . ولعل هذه العلمانية هي التي كانت طريقي في مستقبلي لاعتناق العقيدة القومية الاجتماعية التي قوامها القومية السورية العربية والعلمنة في أضلاعها الرئيسية .

في كنف العمومة

كنت على وشك بلوغ السادسة من عمري عندما تحركت غيرة آل قبرصي من آل الزاخم بسببي.

كيف نشأ قبرصي في كنفهم، إذن سيصبح زاخمياً. وبدأت المفاوضات ولكن لم تسفر عن نتيجة. فجهز آل قبرصي، وعلى رأسهم عمي ديب (الذي كان قد أصبح مختار الضيعة) حملة لنقلي بالقوة إلى داره. لو ترك الأمر لي لتقرير مصيري، ما كنت تخليت عن جدي وجدتي وخالي حنا، كنت أعيش عندهم، أنا اليتيم، وكانوا لي أماً وأباً. رغم أنّ جدي كان بخيلاً، إلا أنّ جدتي كانت تعوض من حنانها وكرمها ما كان يبخل به جدي علي. أما إرادتي الصغيرة فلم تكن بعد قادرة على فرض نفسها ولا على إظهار ميلها بحرية. جرت عملية خطفي بسرعة. أذكر أني كنت أولول طالباً النجدة. لم ينجدني أحد. كان خالي متغيباً في طرابس وجدتي وحدها تحسن الصراخ ولا تحسن القتال... ككل الضعفاء. لما عاد خالي مساء أخرج من خزانته بندقيته ودعا عرابي عبد اللّه الزاخم لمعاونته، وكادت أن تنشب معركة السلاح لاسترداد لو لم يتداركها العقلاء ويعودون بالنتيجة لإرادة أبي بأن يكتبوا له وهو يفصل النزاع.

كان بيت عمي عامراً بالزوار أصحاب المصالح أو أقرباء أو أصدقاء. عمي ديب كان رجلاً أنيقاً وقوي الشخصية وقديراً. أما امرأته آجيا، فقد كانوا يسمونها «الحنشاء» أي الحية ذات الرأسين، وكان كبير أولاد عمي، يكبرني بخمس سنوات والصغيرة أولمبيا من جيلي. لم أشعر بالغربة إلا بعض ساعات. كان مفروضاً علي ألا اتجه إلى دار أجدادي وأخوالي إلى أن أحصل على ترخيص بالزيارة. بدأت أتدرب على السجن باكراً جداً.

لم تكن عملية خطفي دون خلفيات ودون مآرب، ولم تكن الغيرة على الدم

القبرصي وحدها المحرك. كانت لي أملاك واسعة متروكة عن جدي لوالدي عبد اللّه القبرصي: كروم زيتون وعنب وأرض بور تزرع حبوباً. وكان في نفس البناية التي سكنها أبواي معصرة زيتون تدر الخيرات والبركات.

الذي يستولي عليّ يستولي على هذه الثروة في ذلك الزمن الحربي العصيب والناس تموت جوعاً على الدروب والفقر يأكل أجساد الناس وأرواحهم.

ألفت البيت الجديد بسبب ولديّ عمي جورج وأولمبيا. هجرني أترابي الأوائل إبراهيم حنا وعقل ساسين ليصبح أبناء عمي أترابي الجدد. أولمبيا كانت عسلاً فيما كان جورج حنظلاً وشوكاً. كان يعتدي علي وعليها معا، مما مكن بيني وبينها أواصر الصداقة إلى جانب أواصر القربى.

الا أنّ الشر الأكبر كان يصدر عن امرأة العم «الحنشاء». لم تكن تطاق لا من زوجها ولا من ولديها. لا تسمع من فمها كلمة حنو وأمومة. تعمل في الحقل وفي البيت بحرارة غريبة. لا تتعب. ولكنها تقتص من زوجها ومنا نحن الثلاثة الكسالى... ويلنا إذا أكلنا لقمة خبز أو تين أو صعتر بغيابها. أوامرها أوامر قائد عسكري دكتاتور. لا تقبل الاعتراض ولا أية مراجعة. إذا نبس واحد منا بكلمة احتجاج، كان نصيبه الضرب المبرح، لا فرق بين اليد وقضيب الرمان أو الحجر الثقيل... الحنشاء لم تكن تعرف المحبة أو التساهل وكانت تشاكس عمي فيخشى لسانها ويتلافى شرها بكل وسائل الترغيب والترهيب.

شهدته يوماً يضربها بكرسي على رأسها فيشجه، فينزف الدم منه نهراً وهي تبتعد عنه لترميه بالحجارة الضخمة فيهرب منها ويحتمي داخل البيت.

ما كان العنف ولا اللطف ليجديا معها. لقد خلقت بالشراسة فلبست لسانها وكل متحرك فيها وساكن. هي وحدها كانت تجعل البيت جحيماً. وأنا وعمي وأولاد عمي نحاول أن نطفيء ناره بما تيسر من مؤامرات وألعاب نقوم بها في غيابها. حضورها كان كابوساً رهيباً...

عملية الأنقاذ كانت في الذهاب إلى المدرسة قبل الظهر وبعده. يروي عني أبناء قريتي - وبعضهم لا يزال حياً يمكن استنطاقه - أني والناس سهرانون في دار عمي كنت أسمع أمثولاتي وأنا نائم بصوت عال. كان عمي يقول عني: هذا الولد سيكون نابغة زمانه، ويلي من هذه النبؤة كم هي كبيرة علي. كانت جدتي تجلس بعيداً لتلقي نظرة علي وتطمئن أني بخير. آمنت أن ما أعز من الولد إلا ولد الولد... كان منظرها تسترق اللحظات مني يحزنني كما يحزن الصغار حزناً صغيراً عابراً.

لم تكن المدرسة الرسمية، ولا مدرسة المعلم شحادة ولا مدرسة المعلم الياس، تفتح أبوابها بانتظام. الحرب هي الحرب، لا تبقي على نظام ولا على انتظام. النكبة كانت تحل بنا أيام العطلة.

«فالحنشاء» السوداء كانت تعد لنا برنامجاً حافلاً بالعمل الشاق. بعضنا كان يضطر إلى مرافقتها إلى الحقول لجمع الأعشاب طعاماً للطروش والحطب طعاماً للمواقد. والبعض الآخر يضطر لرعاية الطروش هذه، لا فرق بين صيف وشتاء. والطروش كانت بقراً وغنماً وماعزاً. كانت القرعة ترسو على رأسي في سوقها إلى المراعي أكثر الأحيان.

ليتصور القارىء طفلاً في السادسة أو السابعة من عمره، ما استقامت له قامة، ولا اشتد له ساعد، يسوق بقرة حلوباً، واثنين من الماعز والغنم، متحملاً مسؤوليتها، وحده أحياناً تحت المطر، وفي البرد والصقيع.

من ذكرياتي كراع، أني وجدت مع بعض الأتراب، نرعى طروشاً في خارج قرية بيترومين المجاورة لقريتنا. فداهمنا الناطور (وهو لا يزال حياً يرزق) والطروش داخل الزيتون، فانقض علينا فجأة بعصاه الغليظة وجزمته الخشنة وصوته المرعب وشتائمه المقذعة: فرّ رفاقي أما أنا فما وجدت قوة بي للفرار. استسلمت

صائحاً بالناطور: «**دخيلك. دخل أمك. دخل أبيك. اعف عني**». وعفا الناطور عني فسارعت إلى تقبيل يديه شكراناً وعرفاناً. كانت تلك المرأة هي الأولى والأخيرة.

كانت زوادتنا من خبز الشعير لا تكفينا. فكان علينا أن نبحث عن البلوط أو الكعلول أو بعض الأعشاب لنشعر بالاكتفاء. كنا نلجأ بعض الأحيان إلى لبّ الليمون الحامض عوضاً عن الخبز وسواه. أما إذا كنا نلبس، فالحالة لم تكن أفضل. أذكر في زمن الشتاء اني كثيراً من الأحيان كنت أذهب إلى الحقول حافياً، وإلا فلابسا حذاء عتيقاً تنفذ المياه منه إلى قدمي فاشعر بالقشعريرة. وعلى رأسي وجسمي قطعة من الخيش الخشن التف بها متقياً المطر والبرد... ولكن أي خيش يقي من المطر إذا وقى من البرد؟.

يبدو لي وأنا أكتب بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على هذه الوقائع، أني أحياها من جديد. ويبرز أمام وجهي شبح «**الحشناء**» المرعب، لا تعرف أن تقول لأحد سلم «**دياتك**» مهما اتقن عمله ونفذ مهمته بأمانة. الكلمة الحلوة غريبة عنها غربة كاملة. على شفتيها اللعنة والشتيمة وكلمة «يكسر دياتك» عند كل مخالفة مهما كانت طفيفة وخفيفة. لو تجسد الله على الأرض لما حاز رضاها. لقد ولدت بالنقمة ولا بد أن تموت بالنقمة. وقد ماتت رحمها الله بعد أن قطعت رجلها في حادث سيارة. (في آخرتها عادت انسانة من لحم ودم. كنت أشعر بعد عودتي إلى القرية من بيروت أنها كانت تقبلني بحرارة... هل الثورة طبع فيّ أم تطبع واكتساب؟ إذن لندرس معاً هذه الواقعة:

ضاق صدري أنا وابن عمي جورج. هو في الثالثة عشرة وأنا في السابعة أو الثامنة وقد كومتنا «الحنشاء» كومة متحركة أنا وهو وأولمبيا، وراحت ترمي بثقلها علينا تقصد خنقنا... ثم تأخذ قضيباً لينا، وتنهال علينا ضرباً ثم لكزا برجليها، متى تعبت الواحدة استعانت بالأخرى... لقد أوجعتنا حتى الدم ولم تجدنا فتيلاً ولولتنا وبكاؤنا والصراخ.

ولم يكن عمي حاضراً ليسارع إلى نجدتنا كما كان يفعل أكثر الأحيان غاضباً شاتماً.

أولمبيا طفلة لا يمكن تثويرها. . . . أنا وابن العم. ذهبنا بعيداً في الكرم وتداولنا في هذه الحالة التي لا تطاق واتخذنا القرار الآتي: يدخل ابن العم من شباك الحديد، يكسر الخزانة، يستولي على ما فيها من نقود. ثم نشد الرحال معاً إلى الفيحاء طرابلس، ونعرض نفسنا على أحد الأفران نستخدم خدماً لكي نخرج من تحت سلطان «الحنشاء».

ابن العم كان آية من الشطارة والخفة. ما مرت ساعة إلا وجاءني مهرولاً وقال لي: لثركض. المال في جيبي. . . لنركض بين الزيتون. الدنيا صيف لا وحل في الأرض ولا صخور. ورحنا نركض باتجاه دير مار يعقوب. كانت لنا عمة هناك اسمها ظريف. روينا لها قصتنا فاعطتنا رغيفين من الخبز ولكن زجرتنا وأمرتنا بالعودة فوراً إلى القرية. فتظاهرنا بالطاعة والامتثال. إلا أن ما قرر كان قد قرر. عدنا إلى الركض عبر الطريق الوعر المؤدي من الدير إلى طرابلس. لم يكن في ذلك الزمان لا طريق عربات ولا عربات. ووصلنا إلى الرابية وجلسنا في ظل صخرة عالية ورحنا نفكر ونتأمل. لم يكن في كل تلك الناحية لا وقع أقدام ولا صوت إنسان.

ما العمل؟

أنا تراجعت. قلت لابن العم: اين نذهب. لا نعرف أحداً. المال الذي معنا يكفينا يوماً أو يومين. ثيابنا نظيفة لكنها مهلهلة. أين ننام؟ . . . عند من نعمل. أين الفرن الذي نقصده؟ رحنا نضرب أخماساً بأسداس. قررنا بالنتيجة أن عملنا ضرب من الجنون وانّا إلى البيت عائدون . . .

وعدنا متمهلين متظاهرين بأننا كنا في نزهة إلى الدير، كانت «الحنشاء» قد بدأت تضطرب. لنحسب أنها صخرة. الصخرة تحنو على الإنسان إذا لجأ إليها.

ما أن رأتنا حتى بادرتنا: قولوا لأبيكم كنتم في الدير. أبوكم هيأ لكم قصاصاً صارماً . . . لا تقولوا أنكم فررتم. أنا لم أقل له أنكم سرقتم الخزانة؟.

يا الله من أين جاءتها هذه العواطف الإنسانية؟ . . . هي إنسانة حقاً؟ أم صارت إنسانة للحظة لتعاود سيرتها الأولى في الشراسة والشر بعد مرور دقائق أو ساعات.

وكان أن نجونا بفضلها . . . ولأننا نسجل للمحسن إحسانه وللمسيء أساءته، نسجل لها هذا الفضل ـ اليتيم.

لست من رأى «روسو» في أن الإنسان يولد صالحاً والبيئة تفسده. . . الإنسان يولد صالحاً أو سيئاً، والأطفال بغالبيتهم قساة. وامرأة العم ولدت من رحم أمها «حية رقطاء». رغم فضلها اليتيم علينا.

لماذا كنت قاسياً على فراخ الدجاج، على الصيصان؟ لماذا كنت أراقبها، ثم انقض عليها، فآخذ عنقها بين يدي وأدقها أو اخنقها وأرميها أرضاً؟ . . .

كانت الصيصان تخص جارنا نقولا خليل الذي لا يزال حتى الآن حياً ومقعداً بسبب فالج أصابه . . . قضاءً وقدراً.

عدد فراخه ينقص كل يوم واحداً اثنين. ما السبب؟

راح الشاب يترصد متخيفاً وراء الحائط . . . فإذا بي ـ وقد كنت أراقبها ـ انقض على واحد منها. يغل في حائط. فاتبعه واسحبه وادق رأسه وأرميه . . . عرف نقولا خليل خصيمه . . . فانتهرني من بعيد ثم رماني بحجر أصاب جبهتي، فوقعت اتخبط بدمي . . . ثم شفيت . . .

كدت أدفع حياتي لقاء رؤوس الصيصان . . . تعلمت ألا أكون قاسياً.

الضربة كادت تكون قاضية وأثرها التربوي لا يزال على جبهتي وفي أطواء ذاكرتي.

علمني عمي ديب أمثولة في السرقة لا أزال أذكرها. أخذني إلى بيتنا وصعدنا معاً إلى الغرفة الكبرى التي قيل: إنها أول بيت في قريتنا علا على البيوت الأخرى، والتي كان ينزل فيها الضيوف الكبار مثل مطران الأبرشية، أو سواه من موظفي الدولة. كان هنالك تحت السقف، على ظهر خزانة كبيرة مرصوصة إلى الحائط، صندوق جهاز أمي... كانت جدتي حريصة على هذا الجهاز، فاستبقت مفتاح الصندوق في حوزتها. حريصة لأنها هي التي اشترت المصاغ والثياب الثمينة من مالها الخاص، وحريصة لأن المصاغ والثياب الثمينة آثار تذكر بابنتها الراحلة في ربيع العمر.

تسلق عمي الخزانة ووصل إلى الصندوق وأنا أنظر إليه مذهولاً. ثم خلع الصندوق وحمل منه كل غال وثمين، مصاغاً دسّه في جيبه والثياب لفها بمنشفة، وأوصاني بأن آخذها متسللاً بين الزيتون مجتهداً ألا يراني أحد.

هكذا اشتركت في سرقة جهاز أمي ولم أنقل لجدتي خبرها... تفادياً لتفاقم الخلاف...

كنت أكره شرب الحليب كرهاً شديداً واعتبره نوعاً من الدواء المقيت.

مرضت يوماً وأمر الطبيب بحميتي عن كل مأكل الاه...

كان الزمن موسم الزيتون... ذهب الجميع إلى الكرم وبقيت وحدي والحليب الساخن إلى جانب فراشي، والخبز المرقوق في المعجن قبالة عيني، وقابليتي مفتوحة الشفتين. تطلعت ذات اليمين وذات الشمال، فلم أجد أحداً. حملت الطاسة وخرجت بها إلى الحقل أمام البيت وحفرت لها في التراب قبراً ودفنتها فيه. ورحت إلى المعجن التهم الخبز المرقوق... ثم عدت إلى الفراش انتظر عودة «الحنشاء»... والبرداء.

لماذا كنت هكذا أبله؟

لماذا دفنت الحليب والطاسة معاً؟

سألتني عند عودتها : أين الحليب؟

قلت : شربته

قالت : وأين الطاسة؟

فتلعثمت ثم أدليت باعتراف كامل . وكانت الطامة الكبرى .

يبدو أن قضبان الرمان أفادتني ، فنهضت في اليوم التالي معافى . . . القضبان أم الخبز المرقوق كانت العلاج ؟ . لست أدري .

كان عمي ديب ـ مختار الضيعة ووجيهها ـ عصرياً في تفكيره . لقد سافر وتعرف إلى العالم الغربي في حضارته وعاداته عبر هجرته إلى جزيرة كوراساو وأميركا الجنوبية .

ثم نحن نعيش في قريتنا بين المحمديين . . . والطهور (الختان) عندهم من النظافة ، من الإيمان . . . قرر عمي أن نختن أنا وابن عمي . . . لم أكن أعرف معنى الختان .

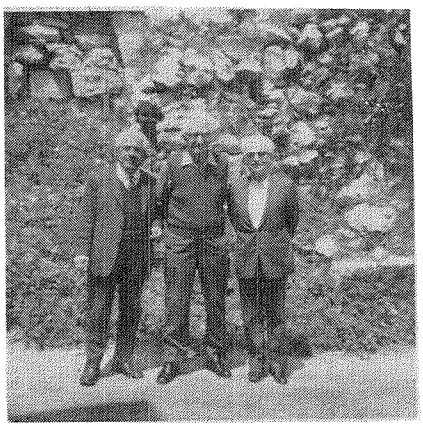

مع الرئيس جان روشا ووديع عيسى في دده ـ الكورة أمام بيته المهدوم
الرئيس روشا هو رئيس المحكمة المختلطة التي حاكمت سعادة والمؤلف سنة 1936

أرسل في طلبي إلى الحقل حيث كنت أرعى البقر وكان قد هيأني لتقبل العملية الجراحية بابتكار رواية عن خروج الحمام من السقف.

فاقبلت راكضاً لا ألوي على شيء...

وجدت خالتي بسمة بانتظاري على الطريق، فاستوقفتني. كدت لا أسمع فركضت ورائي... فوقفت: قالت: إنهم سيبترون «حمامتك». إلى أين أنت راكض؟

أجبتها بالعكس: سأرى كيف يطير الحمام من سقف بيتنا. ما أهون أن يقتنع الأطفال بالخرافات!! كان عمي قد قص علينا أن المطهر سيأتي ويجب أن ننبطح أرضاً وأن نتطلع إلى السقف لنرى الحمام يطير من قلبه.

صدقت عمي ولم أصدق خالتي.

انبطحت أرضاً وحدقت في السقف، وقد وضع شرشف أبيض على عيني، وما مرت لحظات حت كان الدم يسيل... وأنا أصرخ من شدة الألم. أحسست أن عملية ذبح قد حصلت فعلاً وطار الحمام من خيالي إذ لم يخرج حمام ولا من يحزنون.

أهم ما أسداه إليّ عمي ديب من خدمة أنه حبّب العلم إليّ وهكذا فعل فيما بعد خالي حنا يعقوب الزاخم.

بعد أن رحل المعلم الياس واقفلت المدرسة الرسمية أبوابها، أرسلنا عمي إلى بيترومين إلى مدرسة ياسمين الحاج. درست هناك مدة قصيرة. ثم انتقلنا إلى مدرسة لا أذكر من كان يديرها تقع بين بيترومين وده لا يزال البناء الذي كانت تشغله قائماً.

ثم انتقلنا إلى مدرسة الخوري يوسف في برسا ومنها إلى مدرسة القلمون.

ما كانت مدرسة تقفل أبوابها حتى كان هم عمي أن يجد لنا غيرها. كان الناس في دده يعزفون عن العلم والمدارس أما عمي فكان جل مبتغاه أن يرانا أنا وأولاده في مدرسة ما.

عن بيترومين لا أذكر شيئاً... اسم ياسمين الحاج ظل عالقاً في ذهني للعلاقة الوثيقة التي ربطتني في ما بعد بالسيد جرجس الحاج وأولاده عزيز وسليم وعبد اللّه، وباختهم أجيني ثم بالراهب مخائيل الذي كان يدرس في أثينا ثم في معهد السوربون في باريس.

أما عن برسا فاذكر أن الخوري كان يأخذنا قبل الدرس إلى الصلاة. وهناك يعلموننا أن نتلو «أبانا الذي في السموات» و «يا قديسة مريم صلي من أجلنا نحن الخطاة»... الخ.

ولم أكن أفهم العبارات الأخيرة: «الآن وساعة موتنا»... فكنت أتمتم «الآن وساط ناط». لم أفهم عبارة الصلاة على حقيقتها، إلا عندما دخلت بعد سنوات عدة، مدرسة الفرير في طرابس ورحنا نصليها باللغة الفرنسية صباحاً ومساء.

في القلمون رجعنا إلى الشيوخ. كان المعلم شيخاً معمماً. أذكر أني كنت حفظت في المدارس التي تعاقبت عليها أحرف الهجاء ورحت أتقن القراءة والكتابة. إلا أن الحساب كان همي. لم أحب الأرقام لا كبيراً ولا صغيراً...

والمؤسف أن شطارتي في القراءة والكتابة لم تكن لي شفيعاً عن تقصيري في الحساب. إن أذنيّ لا تزالان تؤلماني كلما تذكرت كيف كان يعاقبني الشيخ على هذا التقصير، إذ يرفعني من أذني ثم يرميني أرضاً... هؤلاء الأغبياء من المعلمين ربوا في نفسي كره الحساب، كرهته حتى الصفوف العليا، ولم أتوافر على دراسته بصبرٍ وطول أناة. إلا من أجل احراز المرتبة الأولى.

حبي الأول الطفولي

حب الطفولة كم أذكره ضاحكاً. جمعتني بابنة عمي أولمبيا مصيبة دكتاتورية أمها «الحنشاء» كما جمعتني بها السن المتقاربة. نحن مولودان في سنة واحدة أو هي أكبر مني بعام على الأكثر. نذهب معاً إلى المدرسة. نأكل معاً. وتقع علينا العقوبات الصارمة واللكم واللكز معاً.

من ألطف ذكريات الطفولة البريئة إني كنت يوماً مع أولمبيا في بيتنا، الذي كان سائباً لا يسكنه أحد فجرحنا اصبعينا بشوكة. رحت أشرب دمها وتشرب دمي، عهداً مقدساً بأن نظل نحب بعضنا مدى الحياة. . .

لله در الطفولة. . . تعمد عهد الحب بالدم القاني دون أن تفهم معنى الدم أو معنى الحب. . .

كنت ناطوراً بارعاً

وقعت علي القرعة بأن أَنطر طوال الصيف الإجاص الذي كان في كرمنا ـ كرم والدي ـ المعروف بكرم عثمان الذي أصبح اليوم ملكاً لخالي حنا. وكان في الكرم «زريعة» مقتي وخيار وبطيخ. . . .

كانت فرحتي الكبرى أن أبتعد عن «الحنشاء» ولو إلى حين. وأقمنا في الكرم خيمة، كنت أنام فيها مع ابن جبران المنتدبين لنطارة كرومهم المحاذية لكرمنا.

من الكروم التي كانت محاذية كرم آل سعد وكرم آل زاخم.

كانت رهجة وأخوها سمعان سعد ينطران كرمهما وأنا وسليم الزاخم (أبو الدكتور أنطوان والمهندسين اللامعين جورج وعبد الله وإبراهيم والبير الزاخم) ننطر كرومنا. كانت تقوم بيننا معاهدات حسن جوار. لا أذكر أننا تشاجرنا ولا مرة واحدة. كنا أخوة ولا نزال.

كم حدث لي وللصحب، أن ننتظر ضوء القمر وهدوء الليل، فنهاجم الاجاص، ونأكل منه ما لذ وطاب ثم نطوف على المقتي والخيار فنلتهم الناضج منه . . . ألا يسمى هذا في اللغة الوضعية : حاميها حراميها؟

ولم تكن النطارة مصدر ابتعاد عن «الحنشاء» بقدر ما كانت سبيلاً للهو والمرح والبحبوحة. كنا نتسابق كل يوم ركضاً، ثم نتسابق في القفز من الحيطان العالية أو من الأشجار. نصعد إليها، ثم نغمض الأعين ونصيح : «أمي شلحتني والعدرا (مريم العذراء) استلقتني ـ «نرمي بأنفسنا على التراب الأحمر. كانت العذراء تحرسنا حقاً. فما من مرة أصيب أحدنا برضة أو بجرح . . .

تلك الهواية الرياضية، الركض والقْفز، كانت هوايتي الوحيدة في تلك السن المبكرة ولعلها هي السبب في صقل جسمي النحيل وجعله قادراً على مقاومة الجراثيم والأمراض . . . والمحن.

قلت إن جدتي كانت أمية وجدي شبه أمي. أعتقد أنه كان يحسن توقيع امضائه ويتلو كل يوم عند تباشير الفجر بعضاً من المزامير، ثم صلاة خاصة يبدؤها ب : «يا فتاح يا رزاق يا موزع الأرزاق . . . الخ».

لما مضى على وجودي عند بيت عمي عام وبعض العام أصبحت في مأمن من الرقابة والمحاسبة إذا مررت ببيت جدي. لذلك كنت أكثر من التردد لاتزود بطيبات ما كانت تحفظه لي جدتي من مأكل ومشرب. كنت أعوض عن بخل وتقتير امرأة عمي بخيرات جدتي.

الامتحان الذي كنت أمر به عند جدي وجدتي بعد أن لازمت المدرسة سنتين كان معرفة تلاوة الرسائل في الكنيسة يوم الأحد . . . كنت خجولاً في طفولتي ولا أزال إلى الآن رغم ما مررت به من تجارب ومحن. احسنت قراءة الرسائل (رسائل بولس الرسول إلى أهل تسالونيكيا، وأفسس وكورنثيا . . .) في الكنيسة وتعهدت بأن أتلوها في حفلة أكليل أو عماد خاصة. وبالفعل كانت هنالك حفلة في بيت إبراهيم النجار بالقرب من البيادر. طلب إلى الخوري يعقوب أن أتلو الرسائل.

فتشجعت وتلوتها. لم يكن عمري أكثر من ثمان أو تسع سنوات.

دموع الفرح غطت وجه جدتي، وكانت جائزتي ريالاً مجيدياً. وذاع خبر قراءة الرسائل في القرية، فإذا أنا المجلي المتفوق... هكذا كانت قريتي، الأمية، ترفع على أكتافها من يجيد قراءة رسائل بولس الرسول وتمنحه «شهاداتها العليا» ولقب «النابغة».

عرس خالي سنة ١٩١٩

كان خالي حنا يحنو علي كأنما أنا ابنه، طالماً كان أعزب. ذكرى الفاجعة بأمي كانت تملأ قلبه بالعطف وبالمحبة لي. ما مرّ بي يوماً ألا ونقدني بعض الدراهم ابتاع بها القضامي والسكر وأباهي بها الأتراب والرفاق. فجأة سمعت أن خالي خطب عروساً من أميون وأنه سيتزوجها قريباً. وبالفعل بدأت الاعدادات للعرس. خالي كان من وجهاء القرية ومن أثريائها، فعرسه يجب أن يكون من مواسم أفراحها الباهرة والنادرة.

لا أذكر من العرس إلا الدبكة والطعام يرصف صحوناً تلو صحون على الأرض، والعرق في القناني وبنات القرية في أبهى ما لديهن من حليّ وملابس، والشباب بالسراويل والجزمات يعرضون عضلاتهم، رقصاً ودبكاً، وألعاب حَكَم (سيف وترس بالعصي) وحلقات ميجانا...

نحن الأطفال كنا ننتظر العرس لنتفرج، مؤملين أن يلتفت إلينا الطباخون، فيقدموا لنا شيئاً من بقايا ما طبخوا من خيرات. دورنا في كل عرس أن نحشر أنفسنا بين الكبار، وأن نُطرد ثم أن نعود... في بلادنا عادة قبيحة، الناس لا يحبون الأطفال ويضيقون بهم ذرعاً... فيما يكاد الأطفال في الغرب يُعبدون. ويل للذي يضرب طفلاً في الشارع في فنزويلا التي سافرت إليها سنة ١٩٦٣.

خرجت القرية لاستقبال العروسين القادمين من أميون، على ظهر الخيل.

كنت أركض لأِعتلي شجرة أو حائطاً وألقي نظرة على عروس خالي.

كانت ترتدي ثوب الأكليل الأبيض الهفهاف، والطبول والزمور تتقدم موكبها. وهي تمتطي حصانها المزّينُ تضع يدها على رأسها احتراماً للمستقبلين. وخالي على فرس وراءها وجدتي إلى الوراء تغني وتزغرد وتبارك، وتتقدم الجميع فرقة من الشباب تردد: يا عريسنا عريس جديد. كان يتميز بهذه الفرقة إبراهيم النجار ومخايل سعد ويعقوب جبور وجرجس الياس الديري وإبراهيم الديري وخليل متّى وعبد اللّه إبراهيم ونجيب عيسى وسواهم! . كانت عروس خالي من ملكات حمال الكورة.

بعد أسبوع كانت العادة ولا تزال عندنا في القرى أن «يرد العروسان الرِجل» إلى أهل العروس، أي أن يتوجها في موكب إلى دارها. فتوجها في الأحد التالي إلى أميون، وتم الاستقبال والوليمة في دار المرحوم عبد اللّه الشماس الصيدلي الذي مات احتراقاً في صيدليته قضاءً وقدراً وكان خال امرأة خالي. زوجته السيدة ماري وأولادها نجيب ونجيبة ورضا هم الذين أحاطوني وجعلوني أشعر أني لست غريباً. (نجيب تزوج المطربة صباح ثم افترقا).

حسبني أهل أميون ابن العريس، فرحت أقسم الايمانات المغلظة إني ابن أخته، فصدقوني أخيراً. ألا أن الشك أستمر يخامر العروس إلى أن تعرفت إلى الحقيقة الموثوقة.

وقد شعرت في تلك الرحلة الأولى إلى أميون بأني صرت رجلاً عندما دعيت مع المرافقين إلى طاولة طعام عامرة، وجلست على كرسي، وأمامي لأول مرة في حياتي شوكة وسكين ومنشفة سفرة وكباية فارغة لمّاعة...

شربت مع الشاربين قليلاً من العرق، يمكن أنها المرة الثانية. ثم طلب إلى أن أغني. إن صوتي بشع فكيف استطاع الناس الاصغاء إلي لو لم أكن طفيلا؟...

غنيت «جمال محمله وجراس بتعن»... هذا الموال لا يزال على السنة

الناس في القرى حتى يومنا . كلما تذكرت أني غنيت أسائل نفسي هل سمعني الناس أم هربوا من صوتي البشع ! البراءة في الأطفال تعوض عن كثير من عيوبهم . ! ! !

وصرت أتردد إلى بيت خالي متحبباً إلى العروس . كانت لطيفة ، تحيطني بكل أنواع الرعاية والضيافة بعد أن ثبت لها أني ابن أخت عريسها لا ابنه من زوجة أخرى .

عرس خالي كان نقطة تحول في حياتي : شعرت أن بأمكاني أن أجلس إلى طاولة سفرة وأن أجالس الرجال . . . كما كان الطعام والشراب بالنسبة إليّ نوعاً من الفتح ، فلأول مرة أكلنا في أميون في وليمة أهل العروس الكبة بلبنية والبزاق بطحينة . . . جدتي لم تكن تتقن مثل هذه المآكل البورجوازية . أشهى مآكلنا في دده وأغناها كانت الكبة النية (مرة في الأسبوع) والمجدرة والمخلوطة والهندباء والرشتة وكبة حيلة وسائر أنواع الخضار المتوفرة بالسعر الرخيص .

مرة أخرى النجاة من الموت المحتم .

كانت الحرب قد وضعت أوزارها ودخل الحلفاء إلى بلادنا . . . أذكر كيف كانت الفرقة الهندية التابعة للجيش البريطاني تغطي رمل البحصاص .

أَخذني خالي إلى طبيب أميركي في مستشفى المينا أظن أنه الدكتور بويز الشهير في كل الشمال ، ليفحص عيني اليمنى المغطاة بنقطة بيضاء تحول بيني وبين البصر . كانت هذه العين قد أصيبت بسبب أحد الرهابين في دير مار يعقوب الذي حملتني أمي إليه ، وعمري لا يتجاوز التسعة أشهر ليعالجها من الرمد ، فعالجها بمسحوق وكحول **أدت إلى عماها** . هكذا كانت عيني ضحية غباء راهب في دير . . . خالي كان مهتماً بإزالة الغشاوة عن عيني وإجراء عملية فيها لعلها تستعيد صحتها . الدكتور بويز أكد أن لا أمل بالشفاء . لقد فات الآوان .

ولم يعد معي خالي إلى الضيعة بل ارسلني مع أم عبد النور يزبك ، التي كانت

مع الكثيرات من نسوة قريتنا ينزلن مع تباشير الصباح إلى المينا (أسكلة طرابلس) لبيع الحليب ويعدن باكراً).

سلكت أم عبد النور طريق البساتين، وكنت أسير وراءها صامتاً. فجأة انبرى لنا من وراء الأشجار جندي هندي حاملاً بيده سوطاً. راود المرأة عن نفسها مهدداً وهو يعالجها بالإشارات تارة هادئاً وطوراً غاضباً، هي لا تفهم وأنا لا أفهم. عندما تمادت في صدها أراد اغتصابها، فما كان منها ألا أن رمت بما كانت تحمل من أدوات، وأخذت حذاءها وراحت تضربه، وهو يضربها بسوطه. أنا لم أجد أفضل من الفرار سبيلاً للنجاة. إن أم عبد النور القوية الساعدين والقلب، خرجت من العراك. مظفرة. لم ينل منها الهندي وطرا...

في ذلك النهار، وأنا في طريقي مع المرأة إلى القرية شاهدت مشهداً أثر بي وأثارني ولا يزال. أحدى المومسات تضاجع جندياً في مغارة مكشوفة. إن خيالي الطفولي تكهرب، وكلما كبرت وحتى هذه السن المتقدمة (لقد بلغت السبعين)[1] لاتزال حواسي تستعيد هذا المشهد بالرغم من فجوره، عندما بلغت سن المراهقة كنت أرتجف اشتهاء عندما تقفز إلى ذاكرتي صورتها العارية. في تلك السنة نفسها ١٩١٩ في أواخر الصيف كنا بامر من «الحنشاء» ننقي القمح المسلوق المعد للبرغل على طبلية عريضة. فجأة بدأ القمح يرقص على «الطبلية» وينزلق إلى الأرض، والبيت كله يهتز. امرأة عمي كانت قد خرجت خارج المنزل، وعندنا على المقعد الطويل على مقربة منا ضابط لا أزال اذكر اسمه توفيق حماده نائم في قيلولة. بدأ تراب المنزل ينهال عليه وهو مغرق في النوم، ثم فجأة استيقظ ونحن الأطفال نرقص مع البرغل هازجين، فإذا به يهرول ويحملني بيديه ويرميني خارجاً، ثم يسقط البيت كأنما صاعقة مرعبة لفته ورمته أرضاً. كانت تلك المرة الرابعة التي

---

(١) كتبت هذه المذكرات سنة 1980 (١٩٨٠).

نجوت فيها من الموت بأعجوبة، وهذه المرة بفضل الضابط حمادة من بعقلين. لو تأخر ثانية واحدة لكانت كافية لأهلاكنا معاً تحت الانقاض!.

كانت تلك المرة الأولى أيضاً التي أواجه فيها غضب الطبيعة الأعنف على الإنسان العاجز. لقد دمرت بعض منازل القرية وطمرت الانقاض بعض الجثث البريئة. الذين من جيلي كلهم يذكرون هزة الـ ١٩١٩.

الفرنسيون في القرى

كان اللبنانيون، بعد أن حصدتهم المجاعة والفقر أبان الحرب، ينتظرون الفرج والعون من فرنسا الأم الحنون. إلا أن مواطنينا الموارنة كانوا أقرب الناس إلى قلبها، أي ماروني أمين وصادق لأي فرنسي يلتقيه، ما عدا أولئك الذين أعماهم الحقد، فاستخدموا الموظفين الفرنسيين للانتقام من خصومصم، كانوا مسيحيين أو كانوا مسلمين.

وأظهر الفرنسيون عند دخولهم الأراضي اللبنانية، عطفا على هؤلاء الذين يوالونهم، والذين نكبتهم الحرب أي نكبة وراحوا يسلمونهم الوظائف الكبرى رغم شكاوى باقي المواطنين واحتجاجاتهم على هذه الامتيازات المغرضة.

أرسلوا يحصون الفقراء واليتامى والمحتاجين في القرى، وتم الاحصاء في قريتنا بواسطة المختار ومدير الناحية، ومن ثم طلب إلى الذين سجلت أسماؤهم النزول في يوم معين إلى طرابلس. كان اسمي وارداً بين أسماء اليتامى، فنزلت مع النازلين.

اقتادنا الكبار إلى مكان قرب مطرانية الروم الأرثوذكس في حي النصارى في طرابلس. وكان المولجون بتوزيع المعونات في طابق علوي يقفون على شرفة، يتلون الاسماء حسب اللوائح التي بين أيديهم، حتى إذا ورد اسمي سارعت لالتقط حزمة، فتحتها فوجدت فيها ثياباً لا أذكر إذا كانت عبارة عن قميص أبيض من الكتان

وبنطلون قصير. بعد عملية التوزيع هذه، كان مستشار المنطقة ممثل حاكم لبنان الكبير، يبلغ المختار عزمه على زيارة القرية، فاطل علينا أصيل يوم أحد واسمه بيشون أو غير ذلك. فإذا القرية بشبانها وشيبها واطفالها وعجائزها، تهب لاستقباله حتى البيادر. وقد سارت الجموع وراءه تصفق وتزغرد وإحدى العجائز واسمها رفقة تنشد: دخلك يا ميسو بيشون بدي منك تنورة. والجموع تردد انشادها... يبدو أن عملية التوزيع الأولى ما أغنت الناس عن ذل السؤال، فهم يطالبون بتوزيع آخر.

في قريتنا كما في كل قرى لبنان ـ كنا ولا نزال إلى حد ما ـ اغنياء بنفسية العبيد. الأتراك ربّوا روح الاستذلال والخنوع عند عامة الشعب، واستمرت هذه الروح فاعلة في عهد الفرنسيين الأول، إلى أن راحت تزول تدريجياً مع المعرفة والعلم والتقدم وبعد الثورة السورية وثورة الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو، ومواقف الكتلة الوطنية في الشام وأبرز ممثليها في لبنان عبد الحميد كرامي ورياض الصلح. من جبل العرب مع سلطان باشا الأطرش وعادل ارسلان ومن دمشق الشام مع هاشم الأتاسي وفوزي القزي ولطفي الحفار وجميل مردم وفخري البارودي حلّت علينا طلائع العزة القومية فأصبح لنا نحن الفتيان منارات وقادة وطنيون. ولا نزال في الكورة نذكر حتى اليوم أركان الكتلة الوطنية فارس الخوري ولطفي الحفار وزملائهم الذين كانوا منفيين في أميون.

عندما كان يفد إلى قريتنا بعض الجنود من الحامية الفرنسية المرابطة في طرابلس، واحد أو اثنان أو ثلاثة كانت القرية تتسابق لإكرامهم، وهم يوزعون على مستقبليهم ما بحوزتهم من سكاكر وسكاير... لا أزال أذكر بقرف كيف أن أهل قريتي كانوا يعاملون الجنود كأنهم أسياد فاتحون، وهم أي أهل القرية خدم عندهم وعبيد... هكذا ربانا الأتراك الطغاة. أي فرق اليوم بين المواطن اللبناني وذاك الذي كان خارجاً من الحرب خائفاً أن يموت جوعاً على يد الفرنسيين كما مات على عهد الأتراك أباؤه وأجداده.

أما الفرنسيون، وقد تعرفت إلى أكثرهم لأني كنت قد تعلمت بعض الكلمات الفرنسية، فما أزال أذكر أنهم كانوا في منتهى **الكياسة واللطف**، ما بدرت من أحدهم ـ على الأقل بحضوري ـ أية بادرة سوء أدب أو أية بادرة استعلاء أو عجرفة كتلك التي ترافق انفار الجيش المنتصر في الحروب الكبرى.

في مدرسة دير البلمند

سأطيل الكلام عن دير البلمند لأن شخصيتي انبنت بين جدرانه. أقول انبنت ولا أقول ولدت لأن حياة القرية، ومجتمع القرية، بعاداته وتقاليده كانا الصانعين الأولين للقواعد التي تأسست عليها. خاصة وأن العلم أثبت أن الشخصية الإنسانية تتكون في السنوات **الخمس الأولى من العمر**.

كانت البداية صعبة. التلامذة كانوا قادمين من مدارس ابتدائية وأكاد أقول بدائية كمدرسة المعلم شحادة عبيد ما عدا زملائنا من بشمزين وكوسبا فالبلدتان عاصمتان ـ عذرا من أميون ـ متقدمتان على قرى «القلع» ومنها قريتنا دده.

كان علينا أن نحمل زوادتنا من التين المطبوخ والصعتر والزيتون والكبة المقلية والبيض المسلوق والخبز المرقوق لتكفينا من يوم الاثنين حتى يوم السبت. كنا في البدء تلامذة خارجيين. نأكل على حسابنا وننام كل ثلاثة أو أربعة في صومعة معدة أصلاً للرهبان. الصومعات لا يزال بعضها حتى اليوم موجوداً، إلا أن أكثرها مرّت عليه يد المعماري والدهان، فأعيدت صياغتها ودهنها من جديد.

لا أزال أذكر كيف كنا نتجمع في دده ونسير معاً، كل يحمل «قفة» على ظهره ونسير في المطر والزمهرير، بعد ظهر يوم الأحد من كل أسبوع وكنت أنا الأصغر بين الفرقة، والأضعف، كنت أقع أحياناً كثيرة وتدمى ركبتاي، وعوضاً عن أن يشفق علي الرفاق، ، كانوا يهزأون مني، ويتضاحكون. . . كنت أتعذب، لأن اليتم

كان يطاردني في وهن جسمي وقصر قامتي، كأن لا يكفي طفولتي اليتيمة عقاباً، حتى أوقع بي القدر ضعف البنية الجسدية . . . في الصومعة كنّا ننام، ولكن كنا ندرس في صالة وسيعة. لم أكن منذ طفولتي كثير الصبر على القراءة والكتابة. كنت ولا أزال عصبياً. التهم الفروض والامثولات التهاماً. ثم أطبق كتبي وأفكر بالزوادة. كنت أيضاً عديم الصبر على الجوع. . . ولا أزال. كان المعلمون الروس البيض مختصين بتعليم الصفوف العليا، أما صفنا فكان من نصيب السيدة ماري، والدة المحامي المعروف موسى برنس، التي كانت تعلمنا الفرنسية. ومديرة دروسها.

كان الناظر شماساً أسمه حنانيا كساب، شعلة من الذكاء وتوقد الذهن. ما كان أحد منا يتجرأ على رفع بصره عن كتابه ولا أن ينبس ببنت شفة خوفاً من قصاصه. لم يكن صارماً فحسب بل كان مرعباً رغم قصر قامته هو الآخر. . .

أما معلمونا فكانوا جديين. يتوفرون على تعليمنا في حمية الرسل. في سنة ١٩٢٠ـ ١٩٢١، أصبح بمقدورنا أن نكتب مواضيع انشاء وقد حفظنا الصرف من ألفه إلى يائه حفظاً دقيقاً. ثم أن نصرف الأفعال بالفرنسية ونحفظ بعض الأشعار السهلة. شعرت أني بالفعل أصعد سلم المعرفة، مشغوفاً بما سيأتي. تميزت منذ الأسابيع الأولى باجتهادي وحسن سلوكي مما أثار حفيظة رفاقي من أهل القرية حسداً. كانت حياتنا في دير حياة نساك يصلون للعمل أكثر ما يصلون لله وأن نكن مضطرين لدراسة التعليم المسيحي، من العهد القديم إلى العهد الجديد وأن نقدم امتحاناً بهذه المادة كما في سائر المواد الأخرى.

كان من رفقائنا الشماس إيليا كرم الذي صار مطراناً على أبرشة جبل لبنان في الثلاثينات. وكان مسموحاً لنا أن نتمشى على سطح الدير المعروف «بأبو الاجراس» وأن نصغي إلى أحاديث العجائب التي صنعتها مريم العذراء، وكيف شوهدت شعلة تنطلق في ليلة عاصفة من دير البلمند لتحط في دير ناطور وتنقذ بحارة كانوا تائهين في ذلك الليل البهيم.

أهم ما أذكر من السنة الأولى زيارة قام بها الجنرال غورو ذو الساعد الابتر إلى ديرنا. لو لم أكن متفوقاً على الاقران لما اختارتني المعلمة ماري، من دون سائر التلامذة لالقي بضعة أسطر باللغة الفرنسية في استقباله وأقدم له باقة من الزهر.

كان الرجل مهيباً في لباسه العسكري وأوسمته اللماعة. ألقيت خطابي بين يديه مرتجفاً، وسلمته باقة الزهر، فتسلمها مبتسماً وانحنى وقبلني..

دير البلمند ملك لبطركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس. إنه وقف من أوقافها. لا سلطلة لمطارنة الأبرشية عليه. لذلك لم يكن غبطة البطريرك غريغوريوس حداد (بطريرك العرب) كما كانوا يلقبونه، راضياً عن إدارة الأرشمندريت اغناطيوس (الذي صار فيما بعد مطران حماه) فاستبدله بالارشمندريت الكسندروس جحا القادم حديثاً من روسيا، والذي أصبح فيما بعد مطراناً لطرابلس ثم حمص.١

حدث جلل غيّر مجرى حياتي، في تلك المرحلة. فقد كنت في فرصة عيد الفصح في القرية. وقعت في بئر بيتنا جرّة. فتطوعت لانتشالها بواسطة ما نسميه خرصاً. أنزله إلى البئر وأدور به ذات اليمين وذات الشمال، فيعلق في أذن الجرة، وانتشلها سالمة معافاة.

كانت الساعة نحو الثانية بعد الظهر، والحر شديد والشمس استوائية وأنا أعاند البئر والخرص والشمس وأصرّ على انتشال الجرة الغارقة في القعر...

أصبت بدوار، وبوجع رأس ممض. وأنا في هذه الحالة، نادتني «الحنشاء» أن أبادر لمساعدتها في «مشق» أوراق التوت. فتوسلت إليها أن تعفيني. فأصرت. فعاندت. فنزلت من أعلى التوتة فهربت. فلحقت بي وضربتني بحجر أصابني في كاحلي الأيمن، فكدت أفقد صوابي. حدث ذلك سنة ١٩٢٠ ـ وأنا في العاشرة من عمري ـ. لم أطق هذه الإهانة. ما إن استرحت لحظة من ضربة الحجر واستعدت

صوابـي، حتى تناولت حجراً ورحت أسترق الخطى إلى أن وصلت قرب امرأة عمي وضربتها على رأسها غدراً.صرخت «أخ» ووقعت على التراب. فاعتقدت أنها قتلت. فطار صوابـي ورحت أعدو في الكروم، إلى أن بلغت شجرة زيتون، تسلقتها بخفة، إلى ذروتها، والتصقت بأحد عواميدها، واختفيت بين أغصانها كما يفعل طائر يستضيفنا أيام الزيتون ندعوه «الخبّيت». كان قلبـي يخفق خفقاً شديداً، وأتنفس بصعوبة. ووجع رأسي لا يزال ممسكاً بخناقي.

صمدت في ذلك الوضع منتظراً أن يلحق بـي ابن عمي فينزلني عنوة، أو أن أسمع جرس الكنيسة يدق دقات الحزن إيذاناً بوفاة «الحنشاء»... لم يحدث لا هذا ولا ذاك. إلا أنني أيقنت أن لا رجوع إلى دار عمي ديب الذي كان قد سافر من جديد إلى جزيرة كوراساو... لا رجوع خوفاً من الانتقام الفاجر. «الحنشاء» لا تطيق أن يضربها طفل مثلي. إنها ستدق رأسي.

انتظرت إلى أن خيم الظلام، ونزلت بهدوء من شجرة الزيتون، وتسللت تحت جنح الدجى إلى دار جدي وجدتي. كنت خجلاً وخائفاً أن أطرد بعد أن استقريت في بيت عمي لا آبه لهما ولا أسعى للعودة إليهما.

رحت أجهش بالبكاء، وإذا بجدتي تسمع بكائي فتتجه إلـيّ قائلة: عبد الله عبد الله عبد الله ما بك؟ وراحت تضمني إلى صدرها وتقبلني. كانت فرحة بعودة الابن الشاطر. قلت لها: قتلت امرأة عمي. اذهبـي إلى البيادر وتنصتي إذا كان هنالك صراخ أو عويل... اعرفي حقيقة ما أصاب «الحنشاء» وعودي إلـيّ وإياك أن يستدل أحد أني هنا... إن قوانين الجزاء لم تخطىء عندما حمّلت ابن السبع سنوات مسؤولية جزائية.

فذهبت وعادت بعد قليل من الوقت لتقول لـي: إن امرأة عمك مثل الهرّة بسبع أرواح. لا يمكن أن تموت. فرحت وقلت لجدتي: لن أعود إلى بيت عمي.

أعطيني ورقة وقلماً. أريد أن أكتب مكتوباً لوالدي أن يعزل عمي من الوكالة وأن يسلم أملاكنا لخالي حنا. أريد أن أعود إليكم.

نزل هذا الخبر على جدتي برداً وسلاماً. وجاءتني بالورقة والقلم، وعلى ضوء سراج شحيح كتبت إلى والدي أخبره كل ما ارتكبته امرأة عمي بحقي من وحشية وتعذيب وتجويع. ووضعته في غلاف وقلت لجدتي أن تطلب من خالي إرساله على عنوان والدي... لم أكن أعرف هذا العنوان: لم أكن أعتبر أن لي أباً إلا بقدر ما أنا بحاجة إلى أملاكه. جاء خالي حنا من طرابلس متأخراً فوجد المكتوب على طاولته. ففتحه وقرأه وناداني: «لا يهمني إن أرسل لي أبوك الوكالة أو لم يرسلها. لن أسمح بعودتك إلى بيت عمك. لماذا لم تخبرني قبل اليوم عن سوء معاملتهم لك». ثم ذهب إلى خزانته ففتحها وتناول بندقية ووضعها على الطاولة مضيفاً: «إذا كان آل قبرصي يريدون الحرب فنحن هنا». هذه المرة كانت الحرب من أجلي وشيكة الوقوع. والمرة الأولى تداركها العقلاء.

المهَم امرأة عمي لم تمت.

أخذني خالي إلى طرابلس، واشترى لي طقماً جديداً وقمصاناً وحذاء. ثم اقتادني إلى دير البلمند في اليوم التالي وسجلني تلميذاً داخلياً ودفع القسط عني. كنت أسير في حلتي الجديدة بين الأتراب كالطاووس... وصرت تلميذاً داخلياً. أنام في غرفة المنامة مع التلامذة الداخليين وآكل معهم. لم أعد بحاجة لحمل «القفة» المليئة بالمآكل الناشفة. أصبحت تلميذاً داخلياً آكل على طاولة في صحون نظيفة، يخدمني خدم ويغسلون عني الصحون... وداعاً أيها الخبز اليابس والبيض العفن والحلاوة تصبح مرة لتكرار ازدرادها صباحاً ومساءً وكل يوم من أيام الأسبوع... وداعاً أيتها الصومعة ندنق فيها من البرد أيام الشتاء ونختنق من الحر أيام الصيف.

لقد انتظمت حياتي المدرسية، وصرت في وضع يمكنني من التوفر على

العلم وطلب المعرفة، مشبعاً جوعي إلى الدرس والمطالعة. كنت ألتهم دروسي التهاماً. لذلك حزت على رضى معلمي ورئيس المعهد رضى كاملاً شاملاً. لقد برزت منذ الأشهر الأولى في صفي، كما يذكر كل رفقائي من الدكتور عفيف مفرج إلى موسى وعفيف سليمان، إلى المهندس عبد الله دوميط، وإسحاق عون إلى سمعان وميشال نصر إلى جرجس سابا، وجرجس سمعان إلى ميشال إلياس، وكلهم من الذين نجحوا في الحياة، وتفوقوا في المهن التي مارسوها. كان فؤاد سليمان أصغر مني وبالتالي في صف أدنى بدرجة أو بدرجتين... في ذهني من هذه السنة الأولى حادثة طريفة واحدة: نمي إلينا من التلامذة الدخليين أن أنثى ماعز تعثرت واختنقت وماتت. فسارع الرعيان إلى ذبحها وسلخها وجاءوا بها إلى مطبخ الدير وطبخوا بلحمها فاصوليا. سمعنا بهذا الخبر فصدقنا وأضربنا عن الطعام جميعاً... أضربنا ظهراً وأضربنا مساءً.

كان الأرشمندريت أغناطيوس حريكي - قبل أن يصبح مطراناً - شخصية قوية، رغم أنه لم يكن يتدخل في شؤوننا إلا عند نهاية الفصول المدرسية ليتلو علينا نتائج الامتحانات، أو يرأس احتفالاتنا الخطابية، ليوزع الجوائز على الفائزين، إلا أن عينه كانت ساهرة على الكبيرة والصغيرة. ما كان يقصد في الحياة إلا الجد والمسؤولية.

عرف بإضرابنا، دعانا إلى غرفة الطعام وطلب إلى الخدم أن يعيدوا رصف الصحون وتوزيع الفاصوليا. وراح يطوف علينا فيأكل من صحن هذا وصحن ذاك كيفما اتفق ليقنعنا أن الماعز لم تمت خنقاً وأن لحمها لحم سليم وصالح.

عندما أكل الرئيس أسقط في أيدي قادة الإضراب وجلسوا يأكلون خجلين من إضرابهم وتمردهم... كانت الأمثولة بالنسبة لي هادية... لم أعد أستسلم للشوائع إلا بعد التأكد أنها حقائق، على ذكر الأرشمندريت أغناطيوس، كان كلما لقيني مرة يذكرني أنه يحفظ بين أوراقه صورة لي ولرفاقي تلامذة البلمند ونحن في العاشرة من عمرنا، ليتني أحظى بهذه الصورة...

في العام المدرسي التالي ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ جاءنا رئيس جديد هو الأرشمندريت الكسندروس جحا. قامة فارعة كالأرشمندريت أغناطيوس وهيبة وجلال. الثوب الإكليريكي يضفي على العاديين من الناس جلالاً فكيف بالعمالقة جسماً وثقافة... كان الأرشمندريت الكسندروس جحا يدرسنا هو بنفسه التعليم المسيحي. كان يأخذنا بالحلم ويرفه عن عقولنا الصغيرة ببعض الحكايات. سمعت من فمه أول مرة اسم تولستوي، إذ روى لنا قصّة من تأليفه، لا أزال أذكر أنها وقعت ليلة الميلاد، وأن عربة تجرها الكلاب، كانت تمخر الثلوج، وأن امرأة عجوزاً كانت تنتظر عودة وحيدها الراكب تلك العربة عائداً من مهمة خطرة... هذه القصة ضباب في ذاكرتي... أحاول استدراجها لتصبح نوراً... عبثاً أحاول. في تلك السنة المدرسية نظمت أول بيت من الشعر... هذا البيت يدل أني لم أكن عبقرياً... فهو بلا معنى، ليس له رأس ولا عقب، إن وزنه صحيح، مما يدل أن أذني كانت موسيقية، وإني أتقن أوزان الشعر قبل أن أدرسها. السخافات الصبيانية كم تتحول مع الزمن إلى أشياء بديعة...

في تلك السنة نفسها، وكان قد اشتد ساعدنا باللغة الفرنسية، مثلنا رواية «السيد» لكورناي... Le Cid لا أزال أذكر أني مثلت فيها دور هوراس... وألقيت هذه الأبيات: Mais aux âmes bien nées la valeur n'attend point le nombre des années.

لم يسبق لي أن تشاجرت مع أترابي في المعهد. كنت ولا أزال أعرف أني لست مصارعاً ولا عملاقاً ولا رياضياً مفتول الساعدين. لم أكن أعرض كرامتي، كما لم أكن أعرض جسدي لقتال غير متكافىء. إلا أن شاباً من أصدقائي اسمه اسكندر قندلفت. كان يلعب معي فهزأت منه فلكمني. فرحت أتعارك وإياه. أذكر أنه تغلب

علـيّ وكال لي عدة ضربات قاسيات . لا أزال أحقد عليه حتى اليوم . لم أكن قادراً أن أثأر منه . إنه أقوى مني وأعتى .

لا أعرف من أين أتانا القمل في دير البلمند . يظهر أننا لم نكن نستحم بانتظام ولعل المرة الواحدة أسبوعياً التي كنا نغتسل فيها لم تكن كافية لتأمين النظافة . فقد داهمنا القمل . كنت أخجل أن ألتقط قملة من رأسي وأفركها بين يدي وأرميها دون أن يراني أحد . كدت أطق من هذه الحالة . أهرب إلى حقل قريب من الدير وأختفي بين الصخور أو الأشجار الباسقة وأخلع ثيابي وأطرد منها الحشرة الثقيلة الدم . ما أصبت بمرض القمل إلا في دير البلمند، وفي فصل واحد، إلا في سجن القلعة سنة ١٩٤٠ ، كما ورد في عبد الله قبرصي يتذكر (الجزء الأول) .

يحتقر الطفل نفسه ـ حتى الطفل ـ وهو يشعر أن القمل «يَنْغُل» في جسمه . يحتقر نفسه لأن القمل ابن الأوساخ . . . طوال مدة الحرب ورغم انتشار الأوبئة وتلوث الأجواء ما أصبنا بهذه الآفة، إن لم يكن عدم وجود من يعتني بنا نحن الصغار العناية الكافية .

كان أهم درس عندنا ـ رغم أن كل الدروس كانت هامة ـ درس اللغة العربية وقواعدها وآدابها . كنا ننصب على حفظ الشعر، ونتدرب على إلقائه ونتبارى في هذا الإلقاء . وكان نعتني بفروض الإنشاء عناية فائقة . من معلمي اللغة العربية لم يرسخ في ذهني إلا صورة الشاعرين نعمان وسليمان نصر .

نعمان كان خريج مدرسة الشيخ إبراهيم المنذر في المحيدثة ـ بكفيا وسليمان كذلك . إلا أن نعمان في تلك السن المبكرة كان قد اشتهر على صفحات مجلة المرأة الجديدة لنيله الجائزة الأولى في موضوع شعري : الأمومة . بين شعراء ذلك الزمان ٢٠ ـ ١٩٢١ أن ينال نعمان نصر قصب السبق وأن تنشر صورته وقصيدته مجلة المرأة الجديدة الواسعة الانتشار كان فتحاً مبيناً . وبالنسبة لنا نحن التلامذة الصغار كانت الفرحة الكبرى أن أستاذنا تفوق وامتاز وسبق .

من أطرف ما أذكر عن تلك المرحلة دعوة الراهب إيليا كرم (مطران جبل لبنان ـ فيما بعد) لي لمساعدته على تعلم الألف والباء الفرنسية. وعدني بأن يدفع لي عن كل مراجعة حبة شوكولاته... فدرّسته ما يقارب الخمسين مرة. وقبضت حوالي الخمسين حبة شوكولا... ورحت أوزع بسخاء على الأتراب ما أصبت من غنيمة. لست أذكر إذا كان حفظ ألف باء أم لا. أرجح أن نعم...

كانت تجري بيننا مسابقات في استظهار القصائد العربية من الشعر الجاهلي والشعر الحديث. كان الشاعر المحبب إليّ حافظ إبراهيم وكانت الموشحات الأندلسية أحلى ما أتلوه، فضلاً عن قصائد معلمينا نعمان وسليمان نصر. قد لا يصدق القارىء إذا ذكرت، أني كنت أتلو القصيدة من ١٥ بيتاً مرتين، ثم أسمّعها دون أي غلطة. أين صارت تلك الذاكرة اليوم؟...

كان يجاريني في هذا المضمار الطالب نسيم نصر الذي يكبرني ببضع سنوات (توفي منذ مدة قصيرة بعد أن علّم وألّف ونشر كتباً ومقالات ومحاضرات قيمة)...

كنا في دير البلمند، شبه رهبان، وشبه سجناء. الدير منفرد ونحن ممنوعون من الخروج إلى القرى المجاورة. كان البواب موسى حاماتي من قلمات: نحاول أحياناً أن نرشوه ببعض الدريهمات أو بعض المآكل ليسمح لنا بالتسلل إلى القرى المجاورة. عبثاً كنا نحاول...

لم يكن لدينا لا مكتبة ولا ملاعب. اللهو الوحيد كان أن نتجمع في العرضة القائمة في قلب الدير أو أن ننتظر حفلة خطابية أو تمثيلية. ألقيت مرة قصيدة زجلية من نظم الأرشيدياكون حنانيا كساب مطلعها:

كـانـت وحـده فـلاحـه خـدودهـا مثـل التفـاحـه

فما إن بلغت خاتمتها، حتى دوى التصفيق والحضور يضحكون حتى الاستلقاء على ظهورهم. يبدو أن الفلاحة وعدت نفسها بأشياء كثيرة إذ هي ربت

بقرة حلوباً. . . ثم لما صار الحليب في السطل ودون انتباه، قلبت السطل فتدفق الحليب على التراب وامتصته الأرض. . . وبقيت الفلاحة فلّاحة. . .

كان ابن عمي كسلان في تلقي العلوم، وشاطراً في تدبير المقالب والمؤامرات، وفناناً في سرقة البيض والدجاج والحمص الأخضر.

كان ينزل إلى القبو، موهماً المعلمين أنه هناك لقضاء حاجة، ساعة تضع الدجاجة بيضها. فما أن يسمعها «تقاقي» حتى ينقض على البيضة ويضعها في جيبه ويتظاهر أنه يقوم بنزهة على السطح. فلا يشك به أحد. لقد بلغت به الشطارة أن ربطناه مرة ـ في الليل طبعاً ـ بحبل، وأنزلناه إلى حقل إلى جانب الدير فسرق باقات من الحمص الأخضر، وانتشلناه سالماً، ولم ننم إلا وقد أكلنا الحمص، وأخفينا بطريقة جهنمية كل آثاره. . .

عدا الدكتور عفيف مفرج (أستاذ حالياً في الجامعة الأميركية والطبيب المشهور بعلمه ومهارته وأخلاقه) وعدا فؤاد وموسى وعفيف سليمان، والمهندس سليم جحا أكاد لا أذكر أحداً من رفقائي في مدرسة البلمند إلا عقل شكور من بدبا وعبد الله ضومط من حامات وإسكندر نصر من كوسبا.

كنت وهذا الصديق عقل شكور ننتقل صيفاً بين قريته بدبا وقريتي دده مروراً ببيترومين. . . ثم سافر فجأة إلى المكسيك للالتحاق بأبيه. وسنة ١٩٥٣ سمعت أنه صار مليونيراً فكتبت إليه رسالة. . . أجابني عليها وضمنها صورته مع عائلته.

والتقينا في المكسيك (سنروي خبر لقائنا عندما نصل إلى المنفى. . .) وشهدت بنفسي ثروته الطائلة في مزارعه ومصانعه كما اختبرت وفاءه وكرمه.

لم يكن عقل شكور الفتى الصغير مثلي ضعيفاً ولا كان عبيطاً. . . كان ذا ذكاء متوسط ولكنه كان في كنف جده وجدته. . . ، والده يمده بالمال من المكسيك وجداه ينفقان عليه بسخاء. كان مستودع كنوزه في الدير صندوقاً ذهبي

الغلاف. وكنوزه كانت عبارة عن حلويات ومآكل لا نملك مالاً لنحصل على مثلها. لم نكن بحاجة للسرقة لنأكل ما فيها. كان عقل شكور اشتراكياً بطبعه وكان يوزع علينا ساعة النخوة ودبيب روح العطاء بعضاً من مكتنزاته من الطيبات. لقد حافظ على هذه المزية بعد أن أصبح مليونيراً فكان يرسل المعونات إلى أهل بدبا دون حساب. براميل العسل التي كان يرسلها من المكسيك خير شاهد على صحة هذا القول.

لا تزال رائحة البخور تملأ أنفي في كنيسة السيدة وكنيسة مار جريس في البلمند. كان جو الدير جو عبادة وصلاة وتقشف. ما كنا ندلف إلى الكنيسة مساقين بواجب مفروض علينا. في تلك السن كان إيماننا عفوياً وحاراً. كنا نصلي بخشوع كما كنا نعترف ونتناول القربان المقدس بخشوع أيضاً. إذا كان الناس يلاحظون عليّ وأنا في السن المتقدمة التي بلغت، بأني أذكر كثيراً اسم العزة الإلٰهية، فلأني بالفعل لا أزال متأثراً بدير البلمند، تعاليم وصلاة وتعبد وإن كان إيماني قد تضاءل إلى حد بعيد، هل يمكنني التصريح الآن أنني لا أؤمن إلا بالحياة في واقعها. وأستنكف عن كل بحث لاهوتي لا طائل تحته. ليؤمن من يشاء ويلحد من يشاء. لست دياناً ولا أحد أقامني قاضياً على الآخر؟.

في السنة الثانية أقبل على الدير أساتذة من آل شاهين من بشمزين، يعلموننا الجبر والحساب. الأستاذ نقولا شاهين جاءنا مديراً. كان في عز شبابه، وإلى الآن وقد صار في الخامسة والثمانين، لا يزال يسير على قدميه كالرمح اليماني... (توفي سنة ١٩٨٤) وأخوه قسطنطين كان قديراً في الرياضيات... بين رفقائنا من طرابلس كان حبيب خلاط... شاكس مرة الأستاذ قسطنطين شاهين، فشكاه إلى الأرشمندريت الكسندروس رئيس الدير. فما إن اجتمعنا في غرفة الدرس، حتى أقبل الرئيس علينا متجهم الوجه، أخذ حبيب خلاط من عنقه ـ وكان طويل القامة ممتلىء الجسم ـ ثم رفسه برجله فرماه أرضاً وراح يرفسه ثم يضرب رأسه بيديه وحبيب خلاط لا يتحرك ولا يقاوم...

أذكر ذاك المساء أني خفت، كما أذكر أني نقمت على الرئيس الذي كنت أحبه. الأطفال يحبون رؤساءهم، ما دام رؤساءهم إنسانيين، يهذبون التلامذة باللسان والزجر والردع والقدوة... لا بالرفس والركل والعنف... بعد أن كنت أحب الرئيس أصحبت أهابه وأكرهه؟

ترى هل كان الأرشمندريت الكسندروس قرأ «MAKIAVELLI» واقتنع بتوجيهاته: الرئيس يجب أن يكون محبوباً ومرهوباً بالوقت نفسه؟ (كتاب الأمير)

في ذلك العام ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، ليلة عيد الميلاد، في كنيسة مار أنطونيوس الأثرية، في دده، صدق أو لا تصدق، وقفت «خطيباً» على منصة حجرية بالقرب من الباب الملوكي، وتلوت باللغة العامية كلمات لا أزال أذكر الأساسي منها: «أن أهل بشمزين واميون وبطرام وكوسبا نازلون بقفة من السماء لكي يكونوا أطباء ومحامين وأساتذة، ونحن «أهل دده» كلنا أميّون؟ يجب يجب أن ترسلوا أولادكم «إلى المدارس» يجب أن نتعلم، كي لا نبقى وحدنا الأميّين في الكورة؟... هذا هو معنى الخطبة: حضّ أهالي دده على إرسال أولادهم إلى المدارس... ثم لا أنسى كيف أني كنت أقصد بيوت أترابي وأصيح بأهلهم أن يرسلوهم إلى المدارس: الطنبرجي أبو عبد النور يزبك كان يقول لي: «العلم يا ابني ما بيطعمي خبز». ومع ذلك أرسل ولده عبد النور الذي تعلم ونجح... وتملك عقارات في المصيطبة كانت خرائب فأصبحت ثروة تذكر بعد أن استصلحها وعمرها وسكن فيها... (توفي منذ سبع سنوات). كان عبد النور يزبك بعد أن تثقف وتعلّم وبعد أن درّس عدة سنوات ملجأ أهل دده في بيروت. بيته كان مضافة إلى جانب قلبه الذي كان كرماً ومضافة أيضاً... مع وديع عيسى ونور الدين الأيوبي ومحمد علي عبد الرحمن وعمر عبد الرحمن الأيوبي كنا في أيام الفرص حتى يتسنى لنا أن نتلاقى نؤلف الرفقاء القدامى، مع القادمين الجدد: فريقاً مختلطاً من الشباب والمراهقين...

مدرسة البلمند تقفل أبوابها :

هل كتب لي أن أظل يتيماً، أن أظل طريد اليتم؟ مدرسة البلمند التي ألفت الحياة فيها، التي نمت فيها على سرير وأكلت فيها على طاولة سفرة، وتفوقت على كل الأقران باللغتين العربية والفرنسية، ومثلت فيها الروايات، وألقيت فيها القصائد، واستقبلت فيها الجنرال غورو، وحزت على أرفع العلامات، مدرسة البلمند هذه أقفلت أبوابها فجأة. أفقنا ذات صباح ودخلنا صفوفنا، وانتظرنا الأساتذة، فإذا بأحدهم يقبل علينا متجهم الوجه ليعلن أن رئيس الدير غادره خلسة، طالباً إلى الأساتذة إعلان انتهاء السنة المدرسية، وعودة التلامذة كل إلى بيته . . . الكسندروس جحا أعلن إفلاس المدرسة وغاب . . .

أرسلت أعلم خالي بالأمر، فأرسل لي مكاريا من دده ساعدني على حزم أمتعتي وأركبني فوقها، وراح يقود بي الفرس الناقلة. صورة عبد الله ضومط ببنطلونه القصير يواكبني مع بعض الرفاق حتى مفرق دده، لا تزال راسخة في ذاكرتي . . . عندما ألقيت النظرة الأخيرة على الدير، كادت دموعي تنهمر. ثلاث سنوات من الفرح بالمعرفة تنصرم فجأة لأقع في ذراعَي المجهول . . . من يدري ماذا سيحدث لنا غداً . . . وهل يتاح لنا إكمال المشوار على دروب العلم؟

لماذا غادر الأرشمندريت جحا الدير فجأة؟ ما سبب غضبه أو حرده؟ سرت شائعات عديدة، أقربها إلى المعقول، إن البطريركية لم تمده بالمال الكافي لدفع رواتب الأساتذة وإطعام التلاميذ فاضطر إلى «الهرب» . . . .

في مدرسة الصفاء في كنف نعمان نصر :

بعد إقفال مدرسة البلمند، بادر معلمنا الشاعر نعمان نصر إلى تأسيس مدرسة خارجية أسماها مدرسة «الصفاء»، لأنه اختار لها مركزاً في محلة الصفاء الواقعة بين

فيع وقلحات على مشارف أنفه وشكا والبحر وجاء في شهر أيلول، أي قبل موعد افتتاحها بأيام قلائل، يقوم بالدعاية لها زائرا العائلات التي بإمكانها إرسال أبنائها إليها مقدماً الوعود بأن تكون أحسن حالاً من مدرسة البلمند.

أما بالنسبة لـي فقد قال لأهلي إنه سيأخذني إلى مدرسته خطفاً إذا لم يقرروا إرسالي إليها اختياراً. لقد وعد بتخفيض القسط المتوجب علـيّ إلى نصفه، وبأن يطعمني على مائدته أو في بيته. كم كان نعمان نصر طيّباً معـي!

المهم أن التلبية كانت ممتازة. وفتحت المدرسة أبوابها وأقبل عليها التلامذة من قرى القلع بصورة خاصة. كل الذين تعلموا في البلمند من بيترومين وده وفيع وبدبا تجمعوا فيها، إذ كانت لنا جميعاً خشبة الخلاص. استأجرنا غرفة في بيت سمعان حيدر ـ الذي كان يعلم الصفوف الابتدائية ـ فيما كان من نصيبي أن يعلمني المدير نفسه والأستاذ سليمان نصر. كانت المدرسة مختلطة، نجلس صبياناً وبنات، في قاعة واحدة، فنعتاد الرفقة الأنثوية التي كنا نفتقدها في مدرسة البلمند. كان سمعان حيدر وزوجته «أغليّا» يقدمان لنا الطعام أيضاً فيوفران علينا نقل طعامنا كما كنا نفعل في الدير عندما كنا خارجيين.

كان فؤاد سليمان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، وكنت في الرابعة عشرة. بدأت صداقتنا تتبلور رغم أننا لم نكن نفهم للصداقة معنى أبعد من الرفقة...

كنا في البلمند قد سرنا شوطاً بعيداً في دراسة الصرف والنحو، نعرب الجمل أو الأبيات الشعرية مهما كانت معقّدة. فبدأنا في الفصل الأول من السنة المدرسية في «الصفاء» مراجعة هذين الفرعين مراجعة شاملة، وما إن أقبل الفصل الثاني بعد فرصة عيد الميلاد، حتى كنا نفتح كتاب البديع والبيان. قبيل الميلاد، أقمنا حفلة خطابية، كان دوري فيها أن ألقي قصيدة نظمها المدير بناء على دعوة الجمعية الخيرية الأرثوذوكسية في الميناء (طرابلس) عنوانها اليتيم ومطلعها:

هدأ الليل واستراح الأنام
وسرت في رؤوسها الأحلام . . .

ولقد رددت أصداء هذه الحفلة قرى الكورة مما أفسح في المجال للأستاذ نعمان نصر في أن يحلم بتوسيع المبنى ووضع خطط إنمائية للمستقبل .

في مطلع الفصل الأول، وبعد أن كنت نلت علامات ممتازة في الامتحانات، راح المدير يكلفني بتعليم الصغار في المدرسة، عندما كان أستاذهم يتغيب لأسباب اضطرارية . كنت أفرح أنا التلميذ البالغ أربعة عشر عاماً، أن أنتدب لأعلم، فأصبح في سن مبكرة «أستاذاً صغيراً» .

أصبت في مدرسة الصفاء «بشاهوق» حاد، أقلقني وأزعجني، وأقلق وأزعج آل حيدر . كانت هذه العائلة الكريمة، زوجاً وزوجة، ترعاني بصورة خاصة لأن السيد سمعان كان يردد على مسمعي أنه كان ينوي الزواج من أمي لو لم يسبقه إليها والدي . . . وكان يقول لي : نحن أقرباء فاعتبر هذا البيت بيتك . الشاهوق البغيض أخّرني عن المدرسة بضعة أيام، وحتى هذه السن المتقدمة لا أزال أعاني من ذيوله . هل بسببي أغلقت مدرسة الصفاء أبوابها إلى الأبد؟ ألأني وجدت فيها بديلاً عن البلمند ألجأ إلى جدرانه طلباً للعلم والاستقرار، أصيب المدير بسكتة قلبية؟

يا للفاجعة، كان نعمان نصر يلعب مع التلامذة الكبار بكرة القدم، ثم دقّ الجرس، ودخلنا قاعة الدرس وجلس هو بنفسه على منصة المراقبة، أمامه طاولة يلقي بيديه عليها . كان متعباً وكان أكثرنا يحدق بوجهه لا بالكتاب، فجأة انهار على الكرسي، فسارعنا لحمله . أصبت برعشة وكدت أهوي . ماذا دهاه؟ جيء بالأطباء فقرروا أنه انتهى . . . لقد لفظ أنفاسه .

بكيت بكاءاً مرّاً . ثم رحت أعدو وحدي على طريق فيع ـ دده وأنا أشهق، شارد الذهن، لجيم اللسان، محروق الحلق . . . . الحزن على معلمي اختلط بالخوف من الموت والمستقبل . إلى أين المصير؟ .

وصلت وإذا جدتي بالباب، تتلقاني وتحتضني وأنا لا أزال أشهق. تقول ما بك ولا أقوى على الجواب. ثم أخبرتها متلعثماً أن نعمان نصر مات...

راحت هي العجوز تبكي وتشهق. كان نعمان نصر قبلة أنظار الكورة وقيدوم شعرائها وأدبائها ورافع لوائها في مملكة الأدب والصحافة... كيف هوى ذلك العملاق جثة باردة وهو لا يزال خصباً بالسنابل الذهبية؟.

لم تغمض لي عين تلك الليلة الليلاء. جدتي تصلي وتضرع إلى الله أن يحميني من كل شر، وأنا أنهض من فراشي ساخطاً، لأتمشى في الغرفة وأحاول الخروج إلى الباحة الخارجية لولا قارس البرد... تلك كانت الفاجعة الأولى في حياتي التي أصابت مني مقتلاً... كان لقائي الأول مع رهبة الموت والخوف منه حتى الارتعاب مع دمعة من الحزن على فقدان من كان لي بمثابة الأب الحنون.

في صباح اليوم التالي الباكر وأنا منهك، جاءني الكاهن الخوري يعقوب يقول إن دفن الشاعر سيتم قبل الظهر إني مدعو لإلقاء قصيدة «اليتيم».

ووصلت لأقف على كرسي قبالة جثمان معلمي وقدوتي، وألقي قصيدة «اليتيم» من نظمه بصوت متهدج وملتاع.

كان وجه نعمان، ذلك الوجه المشرق الملامح، الوردي الخدين، كان أسود قاتماً، وكان الدم ملء فمه... موت نعمان نصر، من المفاصل في تاريخ نمو مشاعري وأحاسيسي. لا يمر يوم إلا ويبرز من خلايا الذاكرة منظر المعلم، وقد انهار عن كرسي النظارة وانطفأ... ليتذكر القارىء كيف كنت أقفز فوق جثمان أمي. سني الصغيرة ما درت لوعة الموت... أما نعمان نصر فلم يعلمني الحرف والشعر والإقدام فقط، لقد علمني بموته كيف يجب أن يدرع الإنسان بقوة هائلة ليواجه الضياع الذي تسببه ضربته القاسية... القاضية أحياناً...

إلـى مدرسة الفريـر بطرابلس:

كان خالي حنا يقيم في طرابلس حيث افتتح مخزناً لبيع الأجواخ والخياطة، وكانت مدرسة الفرير فيها المدرسة الوحيدة التي تدرس الفرنسية حتى نيل الشهادة العليا. صحيح أن موت نعمان نصر رمانا في مهبّ الريح، ونحن أوراق لا وزن لها ولا حول، ولكن وجود الخال والمدرسة في طرابلس لم يدع اليتم الجديد يتحكم بنا. لقد تحكمنا نحن باليتم...

كان ذلك في آخر كانون الثاني ١٩٢٤، وكان علينا لنقبل في مدرسة الفرير أن نقدم امتحان دخول، فإذا نجحنا قبلنا وإن رسبنا رفضنا. كان أكثر المرشحين من الذين التحقوا بمدرسة «الصفاء»: فؤاد سليمان قبل في الصف الذي يناسب سنه، وأنا وأخواه عفيف وموسى قبلنا في الصف الخامس. وغيرنا تدبر ذووه أمره فقبل أيضاً.

ما مر شهر أو شهر ونصف على قبولنا حتى كان الصف كله يقدم امتحاناً فصلياً. لَم نكن بعد قد أخذنا مكاننا في المجرى الطبيعي للدروس. كنا نتلمس الطريق لنستوعب الكتب والمواضيع الجديدة. فأيّ امتحان نقدم؟.

النظام في مدرسة الفرير رهباني صارم والطلاب لا يملكون حقاً أكثر من الخضوع شرطاً للبقاء في المعهد... وخضعنا للنظام وقدمنا الامتحان: أوراقاً بيضاء. ما كان بمقدوري أن أجيب بدقة ولو على سؤال واحد من الأسئلة... الانتقال من مدرسة الصفاء إلى مدرسة «الفرير» كان غربة وإن قصيرة المدى.

ودعينا إلى اجتماع عام لإعلان النتائج... ليتصور القارىء، أني كنت في البلمند طليعياً، ما سبقني إلى الأولية أحد وها أنا في معهد الفرير وأمام جمهور الطلاب ولفيف المعلمين أصنف الرقم ٣٥. رئيس المعهد كان رجلاً جليلاً اسمه «ليون» عندما وصل إلى اسمي وهو يقرأ الأسماء ذكره همساً وأعلن: عبد الله

قبرصي تلميذ جديد لا يمكن أن نسجل عليه تقصيراً لأنه دخل المعهد متأخراً. . . من طليعي أن أصنف ذيلياً؟ أي خيبة أمل لكبريائي وأي خيبة أمل للمعجبين بـي، وأي خيبة أمل لأهلي! . . .

عدت إلى البيت منكس الأعلام، ساهم الوجه أخجل أن أرفع عيني إلى من حولي. . . . ولكني صممت أن أثأر من الأقدار، أن أصبّ غضبي في التهام الدروس، وإتقان الفروض اليومية. . . لم أعد أهتم لا بمأكل ولا بمنامة. الهم الأوحد أن أعود إلى الطليعة. وكدت أبلغ الغاية وأصيب الهدف لولا أن مرضاً عضالاً داهمني، فاضطر خالي إلى نقلي للمستشفى الأميركي في ميناء طرابلس (الدكتور بويز) ـ دائماً الدكتور بويز!.

ثمانية أيام تحت المعالجة لا تحت الخطر، انقضت بسلام وعدت إلى متابعة الدروس بنشاطي السابق. ودعينا لتقديم امتحانات نهاية العام الدراسي. كنت قد ألفت الوجوه والكتب ولهجات المعلمين وطبائعهم. والاجتهاد مكنني من استيعاب التاريخ والجغرافية والآداب. فجاءت علاماتي مرضية. لم أقفز إلى الرأس، ولكني لم أعد ذنباً. كانت رتبتي الثامن ومعدلي فوق السبعين. كانت تلك النتيجة انتقاماً من الفشل. . . لا انتصاراً!.

الصيف «والأستاذ» عبد الله:

رغم أني كنت أنفق من واردات أملاكنا فإن خالي حنا القيم عليها لم يكن سخياً عليّ بما فيه الكفاية. كنت قد بدأت أطل على الحياة، ويطيب لي حسن الهندام، والجيب الملأى بالقروش على الأقل. . . فما الحيلة، ما العمل؟. .

خطر لي أنا الذي دعا أهل قريته إلى تعليم أولادهم، أن أفتح مدرسة صيفية ألقن فيها من هم دوني علماً ومعرفة، ما أعلم وما أعرف. صادفت الفكرة

استحساناً. وساعدني ابن عمي حنا طنوس القبرصي أن أبني خيمة وسيعة في «مقصلي» (الأرض المحيطة ببيتنا)، وأن أضع بها بعض المقاعد وأن أدرّس فيها اللغة العربية واللغة الفرنسية.

وأقبل التلامذة وفي طليعتهم وديع عيسى ويعقوب وأسعد اللقيس ودانيال يعقوب إبراهيم وأنطونيوس وإبراهيم سليمان الزاخم وشقيقه جرجس وحنة ابنة عرابي عبد الله مخايل الزاخم وفؤاد إبراهيم القبرصي وسواهم ممن لا يزالون أحياء ويذكرونني بالخير. . .

كنت أعلّم طول النهار، وبعد انصراف التلامذة أنصرف إلى المطالعة والكتابة وأثقّف نفسي. أكثر ما قرأت شعر الأخطل الصغير وإيليا أبو ماضي وشبلي الملاط. وجماعة الرابطة القلمية من جبران إلى نعيمة إلى عبد المسيح حداد. . . وسواهم.

كان تلامذتي ومنهم من يكبرني عاماً أو عامين يخيفونني أحياناً. فلجأت إلى حيلة طريفة: جدتي كانت قد أهدتني مسدساً أبيض غير صالح للاستعمال. جئت به إلى المدرسة وكنت أضعه طوراً على الطاولة أو أُخفيه في الجارور. كنت بهذه الطريقة أهول على التلامذة الكبار وأرعب الصغار.

بضع حوادث وقعت لي وأنا «أستاذ» أبناء القرية أولها وأطرفها حادثة مع جرجس سليمان الزاخم (جرجس لا يزال حياً والحمد لله) كان شرساً يكره الدرس ويعتدي على رفقائه. صممت أن أهديه إلى سواء السبيل بالتعنيف وإذا اضطر الأمر فبالعنف.

كان جرجس معتداً بنفسه غلاباً قهاراً. ما إن انتهرته ودعوته للمثول أمامي، وكان المسدس على الطاولة والعصا في يدي، حتى غادر مكانه قفزاً وخرج من الباب وراح يعدو، وركضت وراءه والمسدس في يدي فما امتثل. . . كنت قد نقلت

المدرسة إلى غرفتنا الوسيعة، فهاجمته من النافذة وهي في الطابق العلوي وقد أصبح على الطريق على مرمى الرصاص وأنا أناديه: قف وإلا قتلتك. . . كأنما «الشيطان» كان يعرف أن مسدسي معطل. . . فرّ من المدرسة وتحداني، وحقّرني أمام باقي التلامذة. إلا أني اتخذت موقفاً متصلباً ورفضت إعادته رغم توسلات والديه ورغم ندمه وتوبته واستغفاره. أما الحادثة الطريفة الثانية فقد وقعت لي مع دانيال يعقوب إبراهيم ووالده (كلاهما توفيا منذ مدة غير طويلة).

دانيال كان كسلاناً وثرثاراً ولكنه كان لطيف المعشر لا شرساً كجرجس سليمان. أنتهره فلا يكترث لي، كأنه يتحداني، صممت على معاقبته. فركّعته وضربته بعصا غليظة على ظهره. فشوّش عليّ وأنا أدرّس الباقين فأمرته بالركوع على الحصى فركع وهو يتوجع ويتوسل وأنا لا أرقّ ولا ألين. وخرج الأولاد في فرصة الظهر لتناول الغذاء والعودة، أما دانيال فكان قصاصه الحرمان من الطعام. ثم إمعاناً في معاقبته، طلبت إليه أن يركع على المسامير فركع. . . في تلك السن لا يعرف الإنسان الرحمة وقلت له: إني سأخرج خارج الغرفة وويل له إذا وقف. ومن خارج الغرفة استطعت أن أراه يقف، بواسطة منفذ للماء. فعدت إليه وضربته بعنف. ربما أدميته.

ذهب وشكاني مساءً إلى والده الذي كان يحبني كثيراً. فإذا به يحضر بعد الرابعة وعيناه تقدحان شرراً. كان قد شرب الخمرة وأكثر من الشرب. تملكني الفزع وأصبت بقشعريرة. ماذا عساي أفعل؟.

جلست مكاني وأصغيت لما قال: «هل وضعنا أولادنا في مدرستك لتقتلهم أو لتعلمهم؟ قلت: وأعلمهم. قال: وهكذا علمت دانيال؟ ضربته حتى أدميته، ركعّته على المسامير فأدمى ركبتيه؟ ثم جوعته فوق ذلك، وكدت تعطب ظهره؟».

عندما سمعت هذا العتاب المهذب اطمأنيت واستأسدت. قلت: يا عم

يعقوب إني أريد أن أنقذ هيبتي وأفرض احترامي وأن أفيد تلامذتي. دانيال لم يحفظ وشوش الصف. إذا أعادها سأعيد الكرة في ضربه وتركيعه ولو أدميته.

وقف العم يعقوب غاضباً فاقشعر شعر بدني ثانية إلا أنه قال لي بكل تهذيب: «الولد ولد يا «أستاذ» ولو حكم بلد...» وانتهت على خير... إذ وقفت وقلت له: «اضرب كفك على كفي، فأنت على حق، الولد ولد ولو حكم بلد».

عبثاً تطلب من الولد أن يكون رجلاً. كل سن يجب أن تأخذ مداها. كلمة «يا أستاذ» ما كبرتني ولو عاماً واحداً. كنت ألاعب تلامذتي بالكلة واخترعت نوعاً من اليانصيب لأبتز أموالهم. فإذا أصبت المرمى في الكلة كان خيراً وإلا احتلت على تلامذتي إلى أن تقع الإصابة. أما في اليانصيب فقد استعنت بجرس المدرسة الصغير وجئت بحجرة صلدة ونحتها ثم رسمت عليها بضعة أرقام. ثم رسمت بالطبشور على لوح خشبي دوائر وعلى كل دائرة رقم، على أن تتساوى الأرقام التي على الحجرة، بأرقام الدوائر (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦) يضع التلميذ في خانة الـ (٥) مثلاً «بشلكا» عملة تلك الأيام سنة ١٩٢٤ وندير الحجرة بالجرس، فإذا وقفت على الخمسة ربح التلميذ وإلا ربح «الأستاذ»... وكانت الحيلة التي لجأت إليها ولم يكتشفها التلامذة: أن الحجرة مهما دارت تقف حكماً على الستة... ما لحظ أحد رقم الستة المتكرر، وكانوا يخافون أن يخسروا ستة، فكنت أربح باستمرار...

أكثر من خسر عندي أسعد إسحاق اللقيس، رغم أن أمه ابنة عم أمي...

وسرى خبر إنشاء المدرسة فبلغ المطران الكسندروس طحان الذي أصبح فيما بعد بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق. جاءني يوماً متفقداً. وراح يطرح الأسئلة على التلامذة، فسرّ منهم ومني.

أذكر أنه استاء من عدم إتقان لفظ حرف «القاف» فأعطى التلامذة عبارة يتكرر فيها حرف القاف لكي يتدربوا على لفظها صحيحاً بالفم الملآن... قم يا قمقم قم

وتقمقم، «قم قل قمح»... ضحك الأولاد فيما كان المطران يشدد على القاف حتى كاد يتقفقف»...

لكي لا أغشّ أحداً، ولا أدعي ما ليس فيّ، أعلن في هذه المذكرات، أن الهدف من فتح المدرسة في عطلة الصيف لم يكن كله مثالية وشغفاً بالحرف، كنت أطمح أن أملأ جيبي بـ «المجيديات» (عملة تلك الأيام) لأنفق بسخاء في عيد مار سمعان (فيع)... عيد مار سمعان كان ولا يزال عيداً كورانياً شعبياً وملتقى الشباب والصبايا وموعد اجتماع الأحباب والأصحاب من كل ضيعة ودسكرة... إنه عيد الكورة عيد ذبائحها وولائمها وانفجار فرحها ومباهجها، عيد الرقص والدبكة، سباق الخيل، وعيد كل بيت في فيع... فقد كانت فيع تفتح أبواب منازلها لكل طارق بابها، وكان في كل بيت موائد عامرة وأعراس.

موقعي أنا كان في بيت عفيف وموسى وفؤاد سليمان ـ حيث كان رجال الأدب والفكر يلتقون حول مائدة سخية، فينعمون في يوم من الطرب والبهجة للحوار الدافىء ما يغنيهم عنها عاماً كاملاً...

وعلى ذكر المدرسة و «الأستاذ» تتسارع إلى خاطري قصة لا يجوز أن أنساها... في آخر الصيف كنت أقيم حفلة خطابية أدعو إليها كل الضيعة، في دار خالي حنا الوسيعة. أبني منبراً خشبياً وأرصف الكراسي. والتلاميذ يلبسون أبهى ما عندهم من حلل وحلى، وينشدون الأناشيد الوطنية، ويلقون قصائد تطول أو تقصر حسب أعمارهم. أما أنا فألقي موعظة، خطاباً حماسياً وأحظى بالتصفيق والهتاف...

لم يكن لديّ في أحد المواسم «حذاء لائق»، فأوصيت خالي أن يبتاع لي واحداً من طرابلس على أن يحضره معه مساء السبت لأن موعد الحفلة صباح الأحد. لا أعرف ما الذي أعمى ذاكرته، فنسي أن يأتيني بالحذاء الجديد.

كيف يخطب «الأستاذ» وحذاؤه عتيق، لا يلمع ولا يشرق . . .

رحت أعول في الخيمة التي كنت أنام فيها مع جدتي وجدي . . . رحت أمزق الوسائد والشراشف. كدت أولع ثقاب كبريت لأحرقها وأحترق معها منتحراً . . . لم أنم تلك الليلة، وجدتي المسكينة تطيب خاطري، وتهدىء روعي، . . . أما جدي فشكاني إلى خالي وكان عنده ضيف من أميون اسمه جرجورة الشماس، هو خال زوجته . . . كان مغترباً في الأرجنتين فعاد . . . مهيب الطلعة، طلق اللسان. استدعاني إلى الصالة صباح الأحد الباكر قبل بدء الحفلة بساعتين، وقال لي: يا «أستاذ» المرء بأخلاقه لا بحذائه . . . فخجلت من نفسي واعتذرت ورحت أرتب أمر الحفلة مستعداً أن أظهر على المنبر حافياً لأن المرء بأخلاقه لا بحذائه.

عـــودة إلـى الفـريـر:

وعدنا إلى مدرسة الفرير بعد انتهاء العطلة. نفس الوجوه. النظام الصارم ذاته. الرهبان لا يرحمون ولا يتساهلون. كانت الصلاة إلزامية كل يوم، للمسيحيين . . . وكان علينا أن نتحدث في الفرص وفي الصف باللغة الفرنسية. الذي يخطىء ويتلفظ بكلمة عربية كان نصيبه أن يأخذ «السينيال» وهو عبارة عن قطعة خشب صغيرة. الذي يأخذ «السينيال» عليه أن يراقب رفقاءه حتى إذا ضبط أحدهم بالجرم المشهود (كان التكلم بالعربية جرماً) دسّ له «السينيال» في جيبه. لم تحدث مشاكل كثيرة بسبب هذه الأداة الخشبية . . .

عدت من العطلة الصيفية وأنا نشوان بلقب «أستاذ» . . . ها أنا أنزل عن عرش «الأستذة» إلى أرض التلمذة . . . كم يضطر المراهقون أن يبذلوا من الجهد ليهضموا النزول من الجنة إلى الجحيم ومن السماء إلى الأرض . . .

وابتدأت الدروس. كنت في مرحلة التحفز. ما انطلقت بسرعة ـ الشهر الأول كنت الثامن والعشرين على خمسة وثلاثين طالباً. . . حزنت أني وقفت مرة أخرى ذيلاً لا رأساً.

رجعت إلى سابق عهدي في الاجتهاد المحرور فإذا بـي آخر تشرين الثاني أحصل المرتبة الثانية. . . قفزة أخرى في عيد الميلاد فإذا بـي الأول بالفرنسية والأول بالعربية والأول بالإنكليزية ـ علق لي رئيس المدرسة ثلاثة أوسمة على صدري وأعلن أنه مستعد أن يعلق ثلاثمائة وسام على صدر أي تلميذ يمكن أن ينال علاماتي في اللغات الثلاث. . .

لم يستولِ عليّ الغرور ولكني ربحت ثقتي بنفسي. لم أعد خائفاً واجفاً. لقد أصبحت قادراً على تحمل المسؤولية. قادراً أن أكون الأول دون أن أخشى ألسنة الحساد وأعينهم. . . هذا الصبـي الصغير الفقير ـ يقولون ـ يتفوق علينا نحن الكبار الأغنياء. . . يا لسخرية الأقدار. . . أليس كذلك؟

وقائـع وعبـر . . . من مدرسة الفرير ـ طرابلس:

من غرائب الأمور، أن أكون فتحت عيني على الحياة في دير البلمند، وأن أكون نموت عاطفياً وذهنياً وثقافياً في مدرسة رهبان. . . لم نشعر في البلمند بوطأة الدير، اللهم إلا في البداية عندما خصصت لنا غرفة تشبه الصومعات أو الزنزانات في سجون القرون الوسطى. أما في مدرسة الرهبان، ورغم أن أكثريتهم الساحقة كانت من الطيبة والعفة والمسؤولية على قدر كبير فإن نظامهم آسر للروح مقيد للفكر، مشوه للعاطفة. . . لا يمكنك، أنت تلميذ الفرير أن تقرأ كتاباً محرماً من قبل البابا. . . لا يمكنك أن تقرأ اعترافات جان جاك روسو. . . لا يمكنك أن تطالع إلا حياة القديسين والقديسات، رغم أن بينها البطلة القومية جان دارك والكتب غير

الممنوعة في شريعة الكثلكة أو شريعة . . . الرهبان أنفسهم . . . أذكر أني كنت أقرأ خلسة «جوسلين» فشاهدني الفرير جيلبار وهو راهب قدير ولكن لئيم وخبيث، فأخذ الكتاب مني اغتصاباً ثم على مرأى مني، أخذ ثقاب كبريت وأشعله ورماه أرضاً . . .

إلا أنني من باب الإنصاف والإقرار بالفضل، أشهد أن مدارس الفرير، رغم أسوارها الشاهقات وأنظمتها الرهبانية الصارمة تلزم الطلاب بالاهتمام بدروسهم، وتسهر على تربيتهم، وتنمي فيهم الشعور بالمسؤولية في ظل الكبت والحرمان . . .

صحيح أن الرهبان مبشرون، إلا أن التبشير عندهم يمارس بخفر يقرب من الخجل ـ ما سمعت كلمة تكفيرية بحق المحمديين والأرثوذكس إلا في غياب الفريقين ومن راهب طاعن في السن هو الفرير جان. . . «المسلمون كفرة والأرثوذكس المستقيمو الرأي هم الملتوو الرأي بنظره، لا ألوم راهباً في السبعين من عمره، ينظر إلى الأديان المخالفة لعقيدته الدينية على أنها كفر أو إلحاد وهرطقة . . . إن إيمانه المطلق بتعاليم دينه يعمي بصيرته، فكل إيمان آخر برأيه منحرف وخارج ومرفوض. إن هذا التعصب للإيمان الفرد والكراهية لكل إيمان آخر مهما كان سامياً هو الآفة التي أكلت روح هذا الشرق وجعلت من الأقليات في كل قطر كتلاً حذرة واجفة مذعورة وبالوقت نفسه مصدر قلق للأكثرية، خاصة عندما يتوسلها المستعمرون جسراً لتحقيق أهدافهم في التمزيق والتفريق والاقتتال. «فَرِّقْ تَسُدْ».

بعد هذا الفاصل، وتبعاً له لا بد من الإشارة إلى أن الرهبان، وحتى يومنا هذا لا يتخلون عن رسالتهم. فالصلاة إلزامية كل صباح وأحياناً كل مساء للمسيحيين والتعليم المسيحي للصفوف الدنيا إلزامي أيضاً.

الرجيح المخيف في المعهد كان اسمه «لافنتان» «Lavantin» طويل القامة

ممتلىء الجسم ذو عينين تنفذان إلى العظم. لا يراعي كبيراً ولا صغيراً. هو المرجع في كل عقاب. الأساتذة في الصف يرسلون إليه كل تلميذ يتمرد على النظام أو يخالف الأوامر أو يزعج الآخرين أو يعتدي عليهم. ويل للذي يصل إلى مكتبه...

في حياتي المدرسية في الفرير وهي نحو خمس سنوات أرسلت إليه مرة واحدة على يد أستاذ الرياضيات جوزف خوري من مزارع زغرتا، والذي صار فيما بعد محامياً بالاستئناف في الشمال ثم في بيروت. لا أعرف لماذا ثار الصف عليه، واشتركت أنا في الثورة أيضاً مرغماً. كنت في الصف الأمامي مع المهندس علي الحجار عندما دخل علينا وبدأت الهمهمة وزحف الأرجل على الأرض، وعدم الالتفات إليه والإصغاء لملاحظاته والاستجابة.

كنا قد أصبحنا في الصف الثالث أي ثلاث سنوات قبل البكالوريا. ما الذي لفت انتباهه ضدي؟ قد أكون قليل الدربة في فن التمرد لأنها المرة الأولى في حياتي التي اشتركت فيها في ثورة ضد المعلمين. انتهرني فاحمر وجهي خجلاً وحياءً... فأمرني وحدي بالذهاب إلى الفرير «لافانتان»... فذهبت والدمعة في عيني، غير هيّاب، ولكني خجل لأن أتعرض للعقاب. كان قد مرّ علينا سنتان في المدرسة، لا غبار على سلوكي ولا نقطة سوداء في سجلاتي، لقد كنت قدوة لرفقائي.

لبثت واقفاً خارج مكتب الناظر العام الراهب «لافانتان» مدة عشر دقائق لانشغاله مع طالب آخر. ثم خرج إليّ باسماً وقال لي وهو يربت على كتفي: وأنت أيضاً يا ابني أرسلك إليّ الأستاذ جوزف. أليس كذلك؟ اذهب وامتثل لأوامره... إياك أن تعود إليّ، ورجعت فرحاً ولكن مصمماً على الانتقام. فما إن انتهى الصف، وتفرق التلامذة، حتى سارعت إلى اللوح الحجري وأخذت طبشورة وكتبت: «ستعلم يا ظلوم متى التقينا»...

وقرأ العبارة في اليوم التالي فاستدعاني، وهجم عليّ محاولاً ضربي، فلم أنبس ببنت شفة، وطردني من الصف مرة أخرى، فذهبت أشكوه للناظر . . . فإذا به يعيدني مزمجراً ويصحبني إليه، فما أن وصلنا حتى أدخلني وقال للأستاذ جوزف: قابلني بعد انتهائك من الصف ـ قيل لي إنه كاد يطرده بسببي. الأوسمة كان لها أثر وقيمة في ذلك الزمان.

ما كنا نتبرم من الصلاة حتى نحن الأرثوذكس ألفناها. بل إن بعضنا وفي طليعتنا الأستاذ نقولا الشاوي رئيس الحزب الشيوعي اللبناني منذ مدة طويلة، كان يحمل المبخرة رغم أنه أرثوذكسي ـ ويساعد الكاهن في خدمة القداس. . . للّه كم تتغير الأفكار وتتبدل مع تطور البناء النفسي والقناعات! أنا في قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي حالياً (عند كتابة المذكرات) ونقولا الشاوي رئيس للحزب الشيوعي. . .

طرابلس في ذلك الزمان:

خمس شخصيات أثّرت في مجرى حياتي وأنا أدرس في مدرسة الفرير: عبد الحميد كرامي ـ لطف الله خلاط ـ الشاعر سابا زريق، والمطرانان أنطون عريضة والكسندروس طحان، وكلاهما تسلما سدة أنطاكية البطريركية الأول للموارنة والثاني للروم الأرثوذكس بطريركية أنطاكية وسائر المشرق.

كنت لا أزال طري العود، أتمشى مساء على ساحة التل مستعرضاً الترامواي، يقوده حمار وعربات الخيل يملأ صهيلها الأجواء وإذا الناس يتهامسون: «أخذوا عبد الحميد كرامي إلى جزيرة أرواد. السنغاليون أخذوه بالقوة. المفتي صار في المنفى. . .».

الناس مقهورة على أمرها. تنقم وتغضب ولكن لا تنفجر. عبد الحميد

كرامي كان لنا نحن الشباب مثلاً أعلى كما كان لنا فيما بعد رياض الصلح في بيروت مثلاً أعلى. . . لم يكن مسموحاً لنا نحن الصغار أن ندخل بيوت الكبار مثل عبد الحميد كرامي ولكننا كنا نسمع ونتعلم. وكنا نقرأ جريدة «الحوادث» لصاحبها آنذاك لطف الله خلاط عميد الطائفة الأرثوذكسية في طرابلس ومرجعها في الشمال. كان قد اختلف مع المطران الكسندروس وناصبه العداء، وكرّس جريدته لمعارضته وانتقاده ونشر ما كان يسميه فضائحه، كان لطف الله خلاط مثل الأفندي في وجهه النضر الوردي الأحمر وفي عينيه الزرقاوين، ولكن الأفندي كانت في أساريره هيبة المناضلين. . . فيما كان وجه لطف الله خلاط أميل إلى الجمال الشعري.

كانت «الحوادث» تصدر مرة كل أسبوع على ما أذكر. ولكن كان كل الناس يقرأونها لأنها كانت الوحيدة لمدة طويلة. كان الشاعر سابا زريق ينشر قصائده فيها، وهو حليف لطف الله خلاط في حربه على المطران الكسندروس.

أما المطران عريضة فكان رجلاً صارماً «Austère» يقولون بالفرنسية. أبيض الشعر، رمحي القامة، قليل الكلام، مهيب الجانب. أثّر بي لأن مطرانيته كانت تطل على بيت خالي حنا، حيث كنت أقيم. كنت أسهر الليالي دارساً منقباً يشجعني ضوء قنديله. كان هو أيضاً يسهر على شؤون رعيته.

أما المطران الكسندروس طحان فقد كان عنوان الذكاء والعصبية. رعى قبلي معلمي الشاعر نعمان نصر ورعاني أيضاً بأن كان يزور مدرستي الصيفية، ثم يهديني الكثير من الكتب، وكان يدعوني إلى مجالسه حيث يراني ويطلب إليّ أن ألقي قصيدة بين يديه. كنت أجيد الإلقاء بالفرنسية والعربية وأحفظ القصائد الوطنية. . .

كانت طرابلس وراء عبد الحميد كرامي ضد الانتداب وضد لبنان الكبير ومع الوحدة السورية، إنها طرابلس الشام. . . وكان جوّها محافظاً وحالة أبنائها، إلا كبار الملاكين، حالة البورجوازيين المتوسطة. . . الترامواي تجره الحمير أو البغال والأسواق ضيقة والمقاهي تغص بشاربي القهوة والأراكيل. . . رائحة اللحم

المشوي كانت في كل مكان، وخاصة في «التربيعة» وسوق الصياغين وباب التبانة والجسر. . . وكان لعابنا نحن الصغار يسيل مع رائحة اللحم ومعدنا تنقبض لهفة إلى لقمة منه يتدلى منها الدهن نقاطاً نقاطاً. . .

المعلمـــون:

من بين الرهبان لا أزال أذكر وجهاً لا تغيب البسمة عنه هو وجه مدير المعهد الأخ «أوكتاف لوران» «Octave Laurent». لم يكن فقط المدير بل كان يعلمنا الأدب الفرنسي. ليقل القارىء ما يشاء، كان هذا الرجل بعد أن يرد لنا الدفاتر وقد قيمها وقيد على رأسها العلامات يكتب لي: «Excellent» ويضع لي علامة مئة على مئة ثم يضيف إليها ثلاث أو أربع علامات أخرى، يبدو أني كنت في الأدب الفرنسي ضليعاً عليماً. . . (مادح نفسه يقرؤك السلام على طريقة أخي ورفيقي مصطفى عبد الساتر الذي كان متفوقاً على الأقران أيضاً). أما الباقون فأثرهم عليّ كان أقل مَن عادي. أصغي إلى دروسهم وأحفظ وأقدم الامتحانات دون أن أشعر بأنهم يغيرون شيئاً في مجرى حياتي.

بعكس المدير. . . كنت أشعر أن كلماته تنزل في نفسي حفراً وتنزيلاً. . . أحفظها وأطبقها. أما أساتذة اللغة العربية وهم مدير الدروس يوسف الفاخوري والمعلمان شربل الخوري ويوسف صقر، فإنهم جميعاً من المواطنين العاديين إلا أنهم في منتهى الطيبة والأخلاق الكريمة رغم أن الأستاذ يوسف الفاخوري بسبب مرض ألم بمعدته منذ شبابه كان **دائم الصراخ**، لا يهدأ له صوت ولا عصب والأستاذ شربل بطبعه العصبي ينهال على تلامذته، وأنا منهم، تقريعاً وصخباً. . . يبدو أن أفضل طريقة للسيطرة على التلامذة في سن المراهقة هي في وضعهم باستمرار في حالة تأهب تحوطاً لانفجار غضب المعلم. أما الأستاذ يوسف صقر فقد كان الأب الصالح. أنا مديون له بهذه العبارة التي رددتها طوال حياتي: اثنان لا

يتحاسدان: الأب وابنه والمعلم وتلميذه... من علمني حرفاً كنت له عبداً، عبارة مألوفة ولكنها ممجوجة لا أطيقها لأني لا أطيق العبودية. إني أحياناً أكره اسمي لأن فيه «عبد» ولو كانت العبودية فيه لله تعالى.

الجائزة الكبرى:

ما كنت فقيراً. أملاكنا المتروكة عن جدي عبد الله لا عن والدي كانت واسعة. إلا أن زراعة القمح والشعير بين الزيتون أفقدته الكثير من خصوبته. ثم كان سعر الزيت أرخص من الفجل. لهذا السبب كان خالي يفكر بناءً على طلبي ببيع أملاكي تسديداً لنفقات المدرسة والأكل والملبس والمنامة وإن تكن في داره. هذا ليس نكران فضل خالي عليّ بل إعلاناً للحقيقة.

ثم إن خالي رغم حدبه عليّ ورعايتي، لم يكن سخياً عليّ، ومن بعدي أيضاً لم يكن سخياً على أولاده أنفسهم. يدفع عني الأقساط متبرماً ممتناً رغم أنها من إيراد أملاكي أو من ثمن هذه الأملاك. كم مرة كان الأخ نقولا المحصل Frère Procureur يقف في باب المدرسة ويرد إلى بيوتهم التلامذة الذين ما دفعوا القسط في الموعد المضروب. وكم مرة كنت ألجأ إلى تلميذ طويل القامة أختبىء في ظله وأتسلل إلى الصف، حتى إذا عدت، ألحّ على خالي بدفع القسط، كان يستجيب وكأنه مرغم. من الناس من طبعهم هكذا. يحبون القبض ويمقتون الدفع. الحمد لله أني لست من هذه الجبلة. لقد علمتني هذه الأمثولة ألا أدع أولادي في مدارسهم يختبأون في ظل من هم أطول قامة منهم ليتهربوا من دفع القسط في موعده ـ بناءً على كل هذا قرأ خالي إعلاناً في جريدة الحوادث التي مر ذكرها، مآله أن ثرياً اسمه وليم ملوك مغترب في نيويورك لم يرزق أولاداً، فهو يريد أن يعلم على نفقته ولداً يتيماً وفقيراً حتى نهاية دروسه الجامعية. قرأ خالي الإعلان ودفعه إليّ فقلت في نفسي: دقت ساعة الخلاص. سأنزل عن الصليب. وأقوم من جحيم المعذبين والمحرومين.

ذهبت إلى إدارة الجريدة وسجلت اسمي. ثم حضرت في الموعد المحدد وكان يشرف على الفحص الأستاذ لطف الله الصراف (طرابلس) وقدمت الامتحان. فإذا بـي أنال أعلى العلامات وفقاً لما نشرت الجريدة. طرت فرحاً أني سأدرس في فرنسا مهندساً زراعياً وفي كلية Beauvais. وأني سأنقذ الثروة التي تركها لنا جدي لا والدي وأن يكن هو صاحب الحق فيها شرعاً.

مررت بالأستاذ لطف الله خلاط صاحب الحوادث فهنأني بحرارة وقال لي: استعد ثم أحضر إليّ في منتصف أيلول لنكون قد قررنا كيف ننفذ الوعد.

كانت الصيفية شهر عسل سعيداً بالنسبة لي كنت مزهواً بنفسي، أتيه على الأتراب. سأصبح مهندساً زراعياً ومن فرنسا نفسها.

وهرولت إلى منزل الأستاذ لطف الله خلاط باكراً في ١٥ أيلول ١٩٢٦، فطلب إليّ أن أنتظر في الصالة. وإذا الأستاذ لطف الله بقامته المهيبة ووجهه الأحمر المورد يطل عليّ عابساً لا مرحباً. أوجست خشية. قلت: بناءً على وعدك حضرت لأقبض المنحة. فهزّ برأسه وقال لي: تبين لنا من التحقيقات التي قمنا بها أنك لست يتيماً، وأن والدك في كوراساو، وأنك غني تملك أراضٍ واسعة في دده!.

أسقط في يدي، تلعثمت. وغادرت المنزل دون أن أودع الأستاذ ـ سقطت أحلامي دفعة واحدة سقوطاً وخيماً...

كان يجب أن أكون يتيماً مرتين لأحسب بين اليتامى.

لا أعرف إذا كان الذي منح الجائزة واسمه رزق أندراوس من بينو، كان هو يتيماً أم كانت وراءه يد قوية تسنده ليأخذ دوري ويهضم حقي.

رحلة ربيعية:

كان الطقس ربيعياً. وكورتنا الخضراء تلبس في الربيع أثوابها المزركشة بكل

أنواع الزهور. بين الزيتون، على الحفافي، في قلب الصخور، يطالعك بخور مريم وشقائق النعمان وألف لون ولون. إنها الطبيعة الكورانية، صورة عن طبيعة الوطن كله ولكن أبهاها وأجملها وأنداها بنظرنا نحن الكورانيين على الأقل. . .

ما كان لي كثير من الرفاق. ليس لليتيم جاذبية ولا هو بالمرغوب فيه صديقاً أو رفيقاً، اللهم إلا من قبل الذين دخلوا الحياة من أبوابها الضيقة.

سليم جحا من بشمزين وموريس سرحان من بطرام ـ نحن أولاد صف واحد ـ رافقاني في أيام حرماني مرحلة قصيرة. فؤاد سليمان كان أقرب إليّ من ظلي.

كنا في فرصة عيد الفصح، العيد الكبير، قد رأينا أن نقوم برحلة مشياً على الأقدام من طرابلس حتى البلمند، ثم منه إلى بطرام فبشمزين. كنا نركض في الحقول الترابية، وكان بعضها لا يزال موحلاً من شتاء نيساني غزير. وفيما نحن نركض انخلع كعب حذائي، ولم يعد بإمكاني التقدم. هرع الرفيقان إليّ وراحا يعالجان الكعب المقطوع، بأن ربطاه بشريط ما، لكي أتمكن من المسير وإكمال الرحلة.

كم كنت خجلاً عندما وصلنا إلى بيت موريس سرحان في بطرام، ولكن تدبرنا الأمر بواسطة إسكافي وزالت الهموم والغموم.

في تلك الليلة نفسها، ولكي تتكامل المصيبة وتستفحل، لا أدري إذا كنت أكثرت من شرب العرق، أو تعرضت للبرد، فانتابتني أوجاع حُمّى. فهرع أهل البيت لنجدتي بالشاي أو اليانسون. . . فإذا بي أعود فأغفو، لأفيق في الصباح وأقفل راجعاً إلى قريتي معتذراً عن إكمال الرحلة إلى بشمزين، أروي هذه الحادثة لأؤكد أن النحس كان يلازمني ظلاً لي أو أني كنت ألازمه ظلاً له.

أنيس روفائيل والصبايا والشعر:

كانت مدرسة «الفرير» قريبة من مدرسة البنات الأرثوذكسية، لا يفصل بينهما

إلا سور. أيام الفرصة الأسبوعية أو أيام الأعياد، كانت لنا نحن المراهقين وللشباب مثل الشاعر أنيس روفائيل منفرجاً، نتسلل منه إلى الكنيسة أو إلى الشارع العام «نبصبص» على الصبايا المهفهفات الفساتين، المسدلات الشعر كجنيات عبقر. . . الشاعر المقدم في مدرسة الفرير كان أنيس روفائيل. كان رائدنا يوم نظم لا أعرف لأية حسناء «قصيدة مراهقة» وطبعها على الستانسل ووزعها على الأخصاء وأرسلها إلى التلميذات الحلوات في مدرسة الروم بواسطتي، ليحفظنها تذكاراً عن أيام الشباب والأحلام. . . البيضاء، وقد يكون ما قصد منهن إلا واحدة من جاراته في بطرام. . . اسمها كما اكتشفت لاحقاً «ماري خليل». . .

واقتديت أنا بأنيس (صار فيما بعد محامياً ثم رئيس محكمة جنايات الشمال إلى أن توفي في أواخر السبعينات في كفر حزير ـ الكورة ـ بسكتة قلبية).

وكانت لي بين المهفهفات، المسدلات الشعر واحدة لا أسميها (هي وداد مالك) من الكورة الزهراء، فنظمت قصيدة في «المهاجر» (هجر الأهل وعاف الوطن) وطبعتها أنا أيضاً على الستانسل. كنت أستدرج، أميرة أحلامي البيضاء، إلى لقاءات، ما حصلت عليها، رغم أني حولت «المهاجر» بعد لأي إلى قصائد غزلية، أرسلها لها بدون توقيع. أما أنيس فإني أذكر مطلع قصيدته. حسبت أني سأجدها في مجموعته الشعرية التي أهداني إياها قبل وفاته وبثلاث سنوات، فلم أجدها. ياللعجب، إني لا أزال أذكر ختامها:

في آب كان ذهابكم ليت الرجوع بشهر آب

على ذكر الشعر، يمكنني الجزم، أن كل تلميذ منا كان يطمح أن يكون شاعراً. مدير الدروس العربية، العصبي المريض الأستاذ يوسف الفاخوري، كان فظاً في الصفوف، وحنوناً خارجها. كان بالنسبة لنا لغزاً. لماذا الهستيريا وهو يعلمنا، ولماذا هدوء النفس والحنان بعد التعليم. . . يبدو أنها فلسفة تربوية ناجحة. . .

المهم أن هذا الرجل، وقد كان يتقن اللغة العربية، وقد درسها على «البستانيين» لا أعرف أين، كان هو أيضاً يدّعي الشعر وينظمه. . . من كان يجرؤ منا نحن التلامذة أن يقول له إن شعره كالخبز اليابس، لا يصلح حتى «للفتوش». . . ليست اللغة على خصبها بعرابة الشعر، إن عراب الشعر الأوحد هو القلب. . .

أما أنا وفؤاد سليمان (كاتب وأديب متفوق من فيع الكورة، مؤلف تموزيات، درب القمر، والقناديل الحمراء) ـ فيما بعد ـ فقد كنا نشعر بأن في دواخلنا هواتف تهتف بنا أن ننظم. . . ما كنا عباقرة ولكن يحس من يقرؤنا أننا نصدر عن قلب، عن روح، عن حياة. . . لم نكن خبزاً يابساً لا يصلح لصنع الفتوش، لقد كان خبزنا مرقوقاً كورانياً طيباً. . . ولكنه لا يصلح للغذاء وحده. كان علينا أن نستنزل الإلهام الخصب، ليكون طعاماً كاملاً وسائغاً، كان علينا أن نربيه ليكبر معنا. . .

لا أحفظ من شعري المدرسي إلا مطلعاً لقصيدة وطنية. . .

وطني الجميل وأجمل الأوطان ذكراك تؤنسني مدى الأزمان

لا يهمني المضمون في هذا المطلع ـ إنه شعر مراهق. ولكن يهمني وأنا تلميذ الفرير، إني كنت عند الخامسة عشرة من عمري أفكر وطنياً وأنظم الشعر الوطني، وإن أكن لم أكتشفه كله إلا بعد سنوات طويلة، كان وطني لبنان وعندما كبرت وصرت أؤمن بسورية الطبيعة، كنت أحبها، وأتعصب لها عبر لبنان. في لبنان ربيت وعشت وأدفن وهو أرض الآباء والأجداد فكيف لا أحبه؟.

من الذين شجعوني على نظم الشعر الأب داود المعلم من قرية حردين ـ البترون. كان أستاذاً في الفرير وكاهن رعية وكان يسكن قرب المدرسة مع ابنة أخيه السمراء اللطيفة وولدي أخيه، المحبين الطيبين. كنت أرتاح أن أدعى إلى منزلهم لعشاء أو غداء. فالأب في منتهى الرقة وحلاوة اللسان وبنت أخيه وأخواها أيضاً.

كنت أباهي برواية شعري عندهم. من المستمعين ما يدفعونك إلى الأمام،

فلا يتأففون من سماعك. ولو كنت متمرناً، ومنهم من يزورّون عنك خاصة إذا كنت لا تزال مطلاً على الحياة، لا تفرض الاحترام على أحد وعليك أن تحترم كل الناس... الأب داود المعلم صاحب فضل عليّ هاجر إلى أميركا ومات فيها.

أنـا وآل القـرطبـانـي:

كان رفيقي في الصف أديب القرطباني. والده توفي من زمان، وأمه ترعى فندقاً صغيراً في سوق الصاغة، اسمه فندق العائلات. من هذا الفندق كانت تعيش العائلة ولا مورد آخر... وكان لأديب أخ اسمه جورج وأختان، واحدة متزوجة من السيد إلياس الدبس، والأخرى ليندا عزباء... منذ طفولتي كنت أحترم أعراض الناس. إذا أحببت فتاة فأحبها بيني وبين نفسي لا أبوح بحبي لأحد. أعجبت بأخت أديب وجورج. ولكن إعجابي ما تخطى حدود الإعجاب. كانت هذه العائلة المارونية عائلتي المقدسة. كنت أدلف إليها في ساعات فرحي كما في ساعات غمي، فإذا كنت فرحاً زادتني، وإذا كنت مغموماً سرّت عني. أطيب مآكل أكلتها في صباي كانت من صنع أم أديب وشقيقته. على مقربة من الفندق، كان هنالك نفق مظلم على مدخله تقع صيدلية آل ملكي. وعلى اليمين من النفق مدخل لغرفة أو غرف كان يستأجرها زملائي تلامذة الفرير من دار بعشتار وددده وغيرها. كم أتألم حتى الآن وأنا أذكر أن هؤلاء التلامذة المحرومين مثلي كانوا أحياناً لعدم توفر ثمن الكاز معهم أو ثمن الشمع ينزلون إلى الشارع يدرسوا أمثولاتهم على قناديل البلدية الشحيحة، وأحياناً على ضوء القمر... فتأمـــل.

أما ليندا، وقد أصبحت الأخت كارولين، فهي الآن راهبة أو رئيسة دير راهبات العائلة المقدسة. منذ أكثر من خمسين سنة لم أرَ لها وجهاً. كم أشتاق أن أراها راهبةً عجوزاً، ولو كانت السنون قد أكلت جمالها، وهدوءها... كم كانت هذه الراهبة «راهبة»، وهي في الثامنة عشرة من عمرها... قبل أن تدخل الدير. لا تفوت قداساً ولا صياماً. لماذا صارت راهبة؟؟.

نحن المقربين سمعنا أنها دعوة إلٰهية «Vocation»، دعتها إلى الرهبنة، ولكن عندما غطسنا في جوهر الأشياء، اكتشفنا أن وراء الدعوة حباً كبيراً. لقد ذكر لنا بعض الأخصاء ـ وقد يكون كلامهم بهتاناً وشائعات ـ أن ليندا كانت قد وقعت في حب شاب من الجبل الكسرواني، مهيب الطلعة، سخي الكف، عريض المنكبين، أبحّ الصوت، وأنه عزف فجأة عن الزواج فظنت أنه عزف عن حبها وخان.

عرفت بالخبر، أنا الذي كنت أطرق أبواب الشعر أخطو الخطوات الأولى على دروبه المزروعة بالأشواق والأسرار والطلاسم، فرحت على ضوء قنديل شحيح أكتب لها رسالة أنهيها فيها عن الرهبنة، دون أن أعرض عليها الزواج، لأني ما كنت في سن الزواج ولا قادراً على تحمل مسؤوليته. ابن ١٦ سنة أو أقل كيف أتزوج بل كيف أحب ابنة العائلة التي ما شعرت يوماً أني عنها غريب . . .

آه لو عندي نسخة عن الرسالة!

في سني الصغيرة تلك، كانت لي نظرة إلى الحياة شعرية، كما يقول زعيمنا الخالد سعاده في رسائله إلى غسان تويني، فقد رحت أصور للحسناء أن الرهبنة لا تجدي نفعاً. أن يعتزل المرء الناس ليست شجاعة. أن يجاهد معهم هي الشجاعة. الصلاة والصوم والعبادة تمارس في المنزل بين جدران أربعة، أما تربية الأولاد وتحمل مشاق الحياة في المجتمع فلا تتم إلا بأن تصبح أماً، وتربي أولاداً على صورة ومثال أخويها الطيبين، على صورتها ومثالها، وداعة وتواضعاً ومثالية وإيماناً.

آه لو أن هذه الرسالة محفوظة عند الأخت كارولين التي لم أرها ولم أسمع صوتها منذ خمسة وخمسين عاماً وأزيد . . .

في فترة علاقاتي الحميمة بآل القرطباني، تعرفت إلى عائلة موزعة بين

راسكيفا وداريا (الزاوية) هي عائلة الدكتور حنا العلم والأب لويس العلم. نبعاً من سخاء الكف والقلب كانت تلك العائلات خاصة الأب لويس الذي يصلح مثلاً أعلى لكل رجال الدين في بلادنا. وأحلى أيام صباي الشبابي أمضيتها عندها. الدكتور العلم خريج اليسوعية وبناته جوليات وجوزفين وابنه نقولا خريجو المدارس الفرنسية والأب لويس العلم ذو ثقافة فرنسية، وأنا في الفرير. احتضنتني هذه العائلة، وكان رفيقي في الصف جواد خوري وشقيقه أنطوان جيران العائلة المضيفة ومن عشاقها الكثيرين.

لم تكن حياتنا للمأكل والمشرب. كانت الأبحاث تتناول الشعر والفلسفة ومختلف المدارس الأدبية. جوزفين كانت الجميلة وجهاً وجسداً وقلباً، وجوليات الجميلة روحاً وعقلاً. من جوليات تعلمت كلمة Polygamie Sentimentale أي تعدد الزوجات العاطفي. وفي مدرسة الأب لويس العلم التي كان مديرها الفقيد الأستاذ نيجيب العلم وأحد معلميها فرانسوا هدوان، تعلمت مكارم الأخلاق، تعلمت كيف يكون رجل الدين إنساناً تتجلى محبته للّه وإيمانه بالدين مناقب وحدباً على اليتيم وصدقاً في التعامل وغمراً لكل الناس ببحر من الحنان والعطاء والمحبة.

في مدرسة داريا للأب لويس العلم، وكانت مدرسة شبه مجانية، ألقيت قصيدتي التي نسيتها لأنها لم تنتشر ولم تحفظ وهي «يا أرزتي»... كم كانت داريا وراسكيفا تصفقان لي أنا المطل على الحياة لا يتجاوز طولي البضعة سنتيمترات عندما كنت ألقي على منابرها شعري الوطني الحماسي...

أنـــا وجـــبـــران:

من هو جبران هذا؟؟

قد يتصور البعض أنه جبران خليل جبران، والحقيقة أنه الأمين في الحزب السوري القومي الاجتماعي جبران جريج (قبرصي).

ولد في «مونتيفيدايو ـ الأورغواي» سنة ١٩١٢ على ذمته، وترعرع فيها إلى أن بلغ الثانية عشرة من عمره. ثم جاء هو ووالدته إلى لبنان، إلى بيترومين الكورة، ضيعة جدتي وضيعتي الثانية. جدتي كانت من عائلة شيخاني المشتقة من شيخان، القرية الصغيرة القابعة في قرنة جبيل، قرنة الروم.

تعارفنا باكراً، وكانت لنا جولات مع عزيز الحاج وسليم الحاج وعبد الله الحاج، وعبد الله حريكي وجبرائيل فياض، ثم مع الأرشيدياكون ميخائيل الحاج الذي كان يدرس اللاهوت والفلسفة في أثينا، ثم في السوربون في باريس حيث توفي في عز شبابه.

عندما كنت طفلاً صغيراً، كانت جدتي تأخذني إلى بيت أخيها يوسف الشيخاني في بترومين، وكانت ابنة أخيها مسرة تحملني وتدغدغني فأنام ـ أنا ابن الأربع أو الخمس سنوات ـ في حضنها كأني أنام في حضن أمي. ما كان ينقصني لكي أكون طفلاً سليم البنية العقلية والجسدية إلا أن أجد أماً. كانت خالتي مسرة أماً ثانية لي... لا يمكن أن أنسى حنانها فقد كان غذاءً عاطفياً وإن مستعاراً لطفولتي اليتيمة، أضف إلى ذلك، ما أحاطني به الخال جرجس عندما عاد من مهجره، وفي شبابي أيضاً كنت أعلم أوجيني الحاج والتي أصبحت بدورها الآن جدة، كنت أعلمها بانتظام اللغة الفرنسية واللغة العربية، فأحضر من دده صباحاً لأعود مساء تحت جنح الظلام، الأمر الذي شدد من عزيمتي على احتمال المخاوف من الجنيات اللواتي كان أهل ضيعتي يحدثونني عنهن وقد أخذن لهن مقراً بين بيترومين وده في محلة العرتوق (القصة من الروائي الشهير إلياس الديري، ابن بنت عمي جوزفين قبرصي، كتب عن ذئب العرتوق، لو كنت مثله روائياً لكتبت بدوري عن جنيات العرتوق!) وفي البدء كنت أحس وأنا أجتاز الطريق ليلاً أنهن سيقفزن بشكل بسة أو أرنبة، على كتفي، أو يطلعن في وجهي كلباً... على التكرار تعلمت الشجاعة فقد مررت ليالي إثر ليالي، ولم تقفز في وجهي ولا جنية واحدة.

جرجس الحاج مختار الضيعة وأولاده عزيز وسليم وعبد الله وجبران جريج وإسكندر ضاهر وشفيق قطريب وأمين اللقيس وسمعان وأنور قطريب وجبرائيل فياض وعبد الله حريكي والأرشيدياكون ميخائيل الحاج بصورة خاصة أسماء عزيزة عليّ، لأني تدرجت معها على سلالم الحياة، على علاقات الصداقة ومعسول طعمها ورقيق حواسها. كما أن صباي لم يعد يتيماً محروماً، فالصداقة بما تنطوي عليه من ود وتعاون، تستأصل اليتم من جذوره، دون أن تقوى على محو آثاره الدفينة.

كل هذه الأسماء العزيزة، قامت بيني وبينها مسافات بعد تطوري الجسدي والنفسي رغم أني إشبين جبرائيل فياض في عرسه، ورغم أني كنت مرشحاً أن أكون عراب أولاد سليم الحاج نزيه ونبيه ـ وهما الآن بمثابة أولادي ـ إلا واحداً من هذه الأسماء هو جبران جريج فقد بقي أقرب الناس إليّ؛ لقد ترافقنا وكان الزمن يشد بيننا الأواصر عوضاً عن أن تتراخى أو تنكمش. عشنا معاً في بيترومين وفي دده... أحببنا معاً أميرتي خيالنا وهما أختان و.م. و ل.م. حباً أفلاطونياً خيالياً إلى أن دخلنا الحزب السوري القومي الواحد بعد الآخر ثم تزوجت أنا جورجيت نخول بربر، فيما تزوج ابنة عمها ماري يوسف بربر ولو بعد سنوات... لقد كان قدرنا أن نكون رفيقي صبا... ثم رفيقي عمر، ثم رفيقي عقيدة وجهاد... للّه، كم يوحي إليّ اسم جبران جريج من ذكريات أخاذة ـ من ذكريات عذبة وأحياناً مأساوية!

صحيح أننا فيما بعد وفي غمار نضالنا المستميت الذي لا يزال مستمراً، شربنا معاً كاسات القهر والقلق والظلام والحرمان والملاحقات والسجون والموت الرمزي، إلا أننا شربنا معاً في مطلع حياتنا كاسات الود الصادق، والمحبة الصافية، والرفقة الوفية... شربنا كاسات الصبا في حلاوتها البريئة، ومطامحها البيضاء، ومذاقها الأطيب... نمت إخوّتنا على المصارحة والتفاهم... ولا تزال...

كان يأتي إليّ أو آتي إليه... العرزال عندهم والعرزال عندي جاهزان.

لا يهمنا الأكل والشراب، فقد كنا نكتفي بالرفقة، وغذاؤنا كسرة خبز وقليل من الصعتر والبيض المسلوق أو المقلي وكأس من العرق. . . ما كانت تفوتنا الولائم، في بيت موسى الخوري النجار وفي بيت جرجس الحاج، وفي بيت عبود القطريب أو خليل القطريب ووديع ضاهر والعم إبراهيم أندراوس (القبرصي) والخال جرجس الشيخاني والخالة مسرة وأبو عفيف وأم عفيف (النجار)، ونور قبرصي حريكي. كانت دده مزاراً وبيترومين بيتاً كريماً مملوءاً بالغلال وبمواسم الفرح والانشراح. . .

جبران جريج لم يدخل مدرسة الفرير. أخوه إبراهيم في الولايات المتحدة ـ فلنت ـ ميشيغن كان ينفق على تعليمه كما كانت لوالده أملاك واسعة وأراد أن تكون ثقافته إنكليزية ـ أميركية. لذلك التحق بمدرسة الأميركان في القبة ـ طرابلس وكان يقيم في نطاقها. بواسطته تعرفت إلى الأستاذ الشاعر جورج نخول والأستاذ قيصر جحا وإلى الفرق بين النهج الأميركي والنهج الفرنسي الإكليركي في التربية والتعليم. الثاني يضيق على الطالب ويحشوه بالعلوم النظرية والأفكار الجامدة الأحادية البعد ذات الطابع الديني الإيماني. والأول يفسح له بأن يوسع آفاقه وأن يبني شخصيته متحرراً من كل الكوابيس والقيود واضعاً أمامه العلوم النظرية والتطبيقية، تاركاً له حرية الاختيار بين تعدد الخيارات فيما كان النهج الفرنسي في مدرسة الفرير يجبرك على نمط واحد لا خيار لك في سواه، ثم يحشو رأسك حشواً بالرياضيات والعلوم الدينية!.

من ذكرياتي أن الانتخابات التي جرت في لبنان بعد إعلان دستوره، أيقظت التنافس والتزاحم بين طرابلس وزغرتا. فاندفع الزغرتاويون بنسائهم وشيوخهم وشبابهم هاجمين على الفيحاء، يطلقون النار والزغاريد معاً. كنت في ضيافة جبران وشاهدنا المظاهرة. كانت قلوبنا تخفق جزعاً. واختبأنا لا ندري إلى أين تندفع هذه الموجة الصاخبة، ومن يتمكن من إيقافها.

حدثت على التل بعض الاصطدامات، إلا أن السنغاليين تحركوا بأمر من المفوضية العليا، فارتد المتظاهرون على أعقابهم دون تراشق بالنيران. . . كانت فرنسا عندما تصمم تعرف كيف تفرض هيبة القانون وتحافظ على أرواح العباد وتقمع وتردع. . .

كان جبران رفيقي أكثر ما يكون رفيقاً في أيام الصيف. نقصد مار سمعان في فيع معاً. نبحث عن الحفلات المدرسية أو التمثيليات، وكانت شائعة في الكورة صيفاً، ونقصدها أحياناً سيراً على الأقدام وأحياناً على الخيل وأحياناً على الحمير. . . كانت عربية جبران ركيكة لأنه ما بدأ يتعلمها إلا بعد عودته من مونتيفيدايو. لذلك كنت أنا أنظم الشعر وأفرض نفسي على المنابر. كانت خصلة من شعري وأنا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري قد ابيضت، فألقيت في بطرام أو بشمزين أو عابا أو برصا، لست أذكر بالضبط أين، قصيدة أذكر منها بيتاً واحداً:

يا كورتي عبث المشيب بلمتي بربـاك والشطـآن والـوديـان!

طبعاً هذا نظم لا شعر، لكنه نظم موزون بأوزان الخليل! . . .

يا لقصائد الصبا كم كانت فارغة ومضحكة!

من أهم ذكرياتي عن جبران في مطلع تعارفنا، الحرب التي أعلنتها ضد والده وأهل بيترومين بصورة عامة من أجل التعليم. كان الأهل والعم أبو جبران في طليعتهم يعتبرون العلم مصدراً للفقر والتخلف في الحياة ويعتبرون التجارة أو العناية بالأملاك أو أية مهنة أخرى مصدر الجاه والثراء.

كان أبو جبران يسألني مستهزئاً: أنتم «الأساتذة» ماذا تربحون من الأستذة؟. . .

لولا أم جبران وباعها الطويلة، ولولا إبراهيم في ميشيغن، كان جبران جريج غير جبران الحالي. . . كان أبوه يريده كأخيه حنا ملاكاً. . . لا معلماً.

كنا قد صرنا في الصفوف المتقدمة نفهم الحياة، غرائزنا تستفيق وتذر قرنها طالبة سد الحاجة. كان رادعنا عن ارتياد أماكن اللهو خلوّ وفاضيا من الزيت!

تعويضنا كان أن نحب حباً عذرياً. أن نحب الغزل الخيالي وأن نرسل القبل والرسائل مع الأقمار والنجوم والنسائم إلى و. و ل. مالك في بطرام!

وعلقنا تلميذتين حلوتين من مدرسة الروم ـ كما ذكرت آنفاً ـ وداد وأختها لولو ورحنا نداور ونحاول أن نلتقي بهما فما حالفنا الحظ. وكنا نتشاكى يوماً ونحن على باب مدرسة الفرير. وإذا بمشعوذ طويل القامة أسود اللون كث اللحية، يحمل مسبحة تكاد تلامس الأرض، يمر بنا ويحيينا ويقف قائلاً: ألست عبد الله قبرصي، ألست جبران جريج؟

ذهلنا مأخوذين.

ما بك يا عم؟ سألته.

فأجاب؛ أنتما مغرمان، وأنا الكفيل بإحضار من تحبان إليكما. ادفعا بعض المال. فنقدناه بعضه وكان قليلاً. كان الرجل قنوعاً، لم يعترض. ثم أخذ إبرة وخيطاً وأدخل الإبرة في جلدي، ثم في جلد جبران، دون أن نشعر بوجع ودون أن نترك أثراً. ثم أعطانا كل واحد عظمة بيضاء، وقال: عندما ترغبان في لقاء الحبيبة، اضغطا العظمة على قطعة جوخ من طقمكم... اللقاء يحصل...

يا للصبا والشباب الغبي! صدقنا. ورحنا نحف القطعة ليلاً ونهاراً والحبيبة بعيدة المنال لا بل مستحيلة المنال.

وكنا بالفعل غير جديين فقصدنا أحد مطاعم التل، وأكلنا وشربنا نبيذاً فرنسياً أحمر، وكان نخب الحاج أبو يوسف يمضي مع رنين الكؤوس، وضحكاتنا العالية تصطدم بسقف المطعم وتستقر فيه.

من أحلى الذكريات وأطراها على القلب، مطامحنا الصبيانية أنا وجبران. كان يسألني ماذا تطمع أن تكون فقلت: رئيساً للجمهورية. وماذا ستكون وظيفتي؟ قلت: أعينك أمين سري.

وصدف أن انتخبت سنة ١٩٥٨ من جديد رئيساً للمجلس الأعلى في الحزب السوري القومي الاجتماعي. وانتخب المجلس أمين سره الأمين جبران جريج...

فقلت له: ها قد تحققت النبوءة.

وصدف يوماً أن رافقني جبران إلى محلة أبـي حلقة على مدخل طرابلس وكانت مهمتي أن أركب فرساً وجبران أن يركب حماراً، لكي ننقل خالي حنا يعقوب التاجر في المدينة والذي كان يصعد كل يوم سبت إلى دده، ولما كانت طريق العربات لم تشق بعد، كنا ننزل إلى ملاقاته، فيركب الفرس ونركب نحن الاثنين الحمار في طريق العودة. وصلنا ذات مساء قبل غروب الشمس بقليل إلى محلة العريض، وهي سهل يقع تحت مطل دير مار يعقوب دده ـ أردت أن ألعب لعبة خبيثة وشريرة على جبران، فركبت الفرس وصحت به أن يقفز ورائي... وما إن همّ بالقفز حتى كنت لكزت الفرس فطارت... ووقع جبران أرضاً يتخبط بالتراب الأحمر... ويلملمه عن ثيابه البيضاء.

ورحت أنا والفرس نخطف المسافة الطويلة في السهل الفسيح خطفاً... ولما عدت كان جبران يريد معاقبتي... إلا أني ظللت به حتى أضحكته... إذا كانت روايته صحيحة فهو يذكرني كل صباح لأن كاحل رجله لا يزال يؤلمه حتى اليوم...

هذه السن لا تشفق: يقولون عن المراهقين... وعن الأطفال.

حقاً لا تشفق وإلا كيف رماني أترابـي في الرماد الناري في فرن ريمي وأنا لم أبلغ السادسة أو السابعة من عمري، وكيف رماني نقولا خليل الديري بالحجر الصلد على جبهتي إنقاذاً لفراخه؟؟

الأكاديمي الفرنسية والنادي الأدبي العربي:

كنت قد أصبحت في الصف الثاني، على مداخل الشهادة التي تعطي لطلاب الصف الأول بكالوريا... كان قد اشتد ساعدي. صحيح كنت لا أزال ألبس البنطلون القصير (الشورت) وأحلق شعر رأسي بالماكنة، ثم لا أعرف ربطة العنق وهندسة الشعر، ولكن كنت قد أصبحت أليفاً مع الأدب الفرنسي والفيزياء والجبر والهندسة، وكنت قد قرأت تاريخ فرنسا وأوروبا... كما اقتحمت «غابات» الخجل والخوف والتردد، وخرجت إلى أنوار الثقة بالنفس. يقولون إن الصراع الطبقي محرك التاريخ أما أنا فأقول إن الحب هو محرك التاريخ، حب الذات، ثم حب الوطن، ثم حب الحرية والإنسان، ثم حب المجد والبطولة والمثل العليا. لقد أحببت فتاة حلوة، صافية الصوت كفيروز في صغرها، وكنت أقصد بلدها ألقي على مسامعها الشعر ـ شعر الصبا والمراهقة ـ وهي حتى الآن لا تعرف أني كنت مولعاً بجمالها الغض وصوتها الحسوني الرومانسي... إنها وداد...

لا يمكن أن يتصور الإنسان، إن مخلوقاً موهوباً لمع وحلق دون أن يكون وراءه حب كبير ـ الحب هو صانع المطامح الكبيرة والأعمال الكبيرة ـ وأحياناً النفوس الكبيرة.

في الصف الثاني، سنة قبل الشهادة النهائية، كان ينافسني على الأولوية محمود بكري من طرابلس إلا أنني كنت أسبقه أحياناً بعشرين نقطة.

ولانتقاء الهيئة الإدارية للأكاديمي الفرنسية «Academie St. Georges» في المعهد، كان يتقدم إلى الامتحان من يشاء من الصفين الأول والثاني. فتقدمت، وإذا بي بين المتبارين من الصفين أحوز الدرجة الثانية أي أحظى بنيابة رئاسة الأكاديمي سابقاً تلامذة الصف الأول المتقدمين عليّ سنة كاملة. الرئيس الفائز كان من تلامذة الصف الأول: فريد حبيب من كوسبا ـ فريد دخل الوظيفة باكراً بعد

شهادة الحقوق، فمن كاتب المستنطق إلى قاضي تحقيق بيروت إلى قائمقام مرجعيون، إلى مدير الأحوال الشخصية إلى سفير. سنتحدث عنه سفيراً للبنان في فنزويللا عندما نصل إليها... جاءها سفيراً وأنا كنت محكوماً بالإعدام، فماذا يكون موقفه مني؟

بلوغي نيابة رئاسة الأكاديمي الفرنسية فتح أمامي آفاقاً جديدة، كما رتب عليّ مسؤوليات جديدة. لقد ازداد فهمي للمعرفة، لكشف الحقائق العلمية والتعمق في دراسة الآداب ما كنت وقتئذ آبه للفن، فلا الموسيقى ولا الرسم ولا النحت كانت تستهويني. كنت محصوراً بل محاصراً في الشعر والنثر مع شغف موزون بالتاريخ.

في الرياضيات كنت أشعر أني لست في صحني، كانت ثقيلة عليّ إلا أني كنت أتوفر عليها درساً وتخصيصاً بصبر لا يصدق، لكي لا أخسر الدرجة الأولى في الصف. كانت قراءاتي إلى جانب إتقان الدروس والفروض، تتجه في اللغة العربية إلى أدباء مصر والشام. الأدب الجاهلي كان يرهقني، إذ أضطر لمراجعة القاموس لأفهم أكثر كلماته. كنت في الأدب العربي، مغرماً بالأخطل الصغير وشبلي ملاط وبأحمد شوقي شعراً ثم حافظ إبراهيم وخليل مطران. ثم انتقل الغرام إلى جبران ونعيمة وقد قرأتهما في مجلة الفنون لسان حال الرابطة القلمية التي أسساها في نيويورك.

ثم بعد قليل صار إيليا أبـي ماضي والأخطل الصغير معبودَيّ.

أما في الأدب الغربـي فالدائرة كانت أوسع، لأن المدرسة التي نتعلم فيها مدرسة فرنسية. إلا أن حدود آفاقنا الغربية كانت تبدأ في فرنسا وتنتهي في فرنسا وأكرر بأنه لم يكن مباحاً لنا أن نطلع إلا على الكتب غير المحرمة... هل كان بالإمكان أن نقرأ بودلير وجان جاك روسو؟ ويل لنا إذا فعلنا. لذلك كان الأدباء

الكلاسيكيون كورناي وراسين وموليير ثم الرومانسيون لامارتين وهوغو ودي فيني وموسيه، هم مراجعنا ومصادر إلهامنا وثقافتنا. أما أدباء الإنكليز والألمان والروس، مثل ادغار وشلر وآليوت ومكسيم غوركي وأندريه جيد وتولستوي... فلم نكن نسمع بهم، فنشأنا محدودي النظرة إلى الأدب، مقيدين بسلاسل «الفرير» وقوانينهم المتزمتة...

كنت منذ البدء أتجنب الشعر الرمزي، لأنه معقد ومركب، وبعيد الأغوار، كان بمقدوري بمحدودية ثقافتي الرهبانية، أن أستوعب ما فيه من أبعاد وأعماق وإن أكنْ أحياناً، ومن باب الفضول لا الفائدة ولا اللذة، أنصب على فكفكة بعض صوره لأرد قهره إلى نحره. كنت أتأفف من الشعر الرمزي ـ فكيف بنا اليوم مع شعر الحداثة السوريالي ـ كيف بنا مع الغموض المطبق أحياناً؟.

للذين ينعمون اليوم من طلاب العصر، بغزارة ما يقدم لهم من كتب ومجلات وبحوث ومحاضرات، أقول: إن زمننا كان بالنسبة لزمنكم عصراً حجرياً. وإن ما تنعمون به لم يكن يخطر لنا في الأحلام. نحن الذين كتب لنا أن ندرس في طرابلس وفي مدارس الفرير، ما حصلنا على المعرفة إلا بشق النفس وعرق الجبين وبالتقسيط. لذلك جاءت معرفتنا محدودة ولذلك تقدمتم علينا في ميدان الخلق والإبداع.

هل يصدق أحد أني كنت أدرس طوال الليل لا أخلع ثيابي ولا أنام، بل أغفو لحظات على طاولة السفرة فيما كان خالي وعائلته يغطون في نوم عميق...

السراج الذي يضيء الأحرف أمام عيني، كان كالقناديل المعلقة على حافة الطنابر، والجوع الذي كان يتآكلني في آخر الليل كنت أسده بحبات من الحمص أو حبات من القضامي المالحة.

إن نهج الفرير ـ الذي تطور بالتأكيد مع تطور الأحوال التربوية ـ كان مركّزاً على حشو أذهاننا بالمواد تتراكم حتى ترهقنا وتعطل فينا كل ملكات الخلق

والإبداع. كان السهر الذي يقتضينا الدرس والحفظ والإعادة مدمراً لأعصابنا، بحيث نمثل أمام اللجنة الفاحصة وكأننا نجتر ما حفظناه، دون أن تسهم عقولنا ولو بقدر ضئيل في التحليل والتعليل والاستيعاب.

الأكاديمي التي رأستها في السنة الدراسية الأخيرة، والنادي العربي الذي كنت نائب رئيسه في الوقت نفسه، علماني فن الحوار والنقد، كما علماني كيف أعود إلى مصادر الأشياء، لأعرضها معززة بالمراجع...

لا أزال أذكر، محاضرة لأندريه تويني الذي أصبح مديراً للمالية في آخر حياته، كان رفيقنا في المدرسة رغم أنه من بيروت، تحدث فيها عن المناقبية. وذكر كلمة لم أنسها حتى اليوم وهي أيقظوا غرائزكم النبيلة وأحرقوها!.

ثم تحليله للمثل الفرنسي السائر: «Fais ce que doit»
إعمل ما عليك وليحدث ما يحدث.

أربع واقعات لا تزال مغروزة في ذاكرتي:

١ ــ قصيدة للأخ جان بمناسبة يوبيله الخمسيني.

٢ ــ خطاب للكولونيل ريكيلنك Rykelink في احتفالنا السنوي.

٣ ــ رحلة إلى اللاذقية.

٤ ــ أن أحمل أغراضاً من السوق: لا يمكن!

قصيـــدة الأخ جـــان:

بلغ الفرير «جان» «Jean» الخامسة والسبعين من عمره، قضى منها خمسين عاماً راهباً ومعلماً. قررت الإدارة أن تقيم له يوبيلاً ذهبياً. كان يسألني ماذا سأدرس بعد الشهادة المدرسية فأجيبه: القانون لأصبح محامياً. كان يربت على كتفي قائلاً: رجل القانون يساوي رجلين، على ذمة الرومان.

كان الأخ جان يكاد ينوء بالخمسة وسبعين عاماً. يا لأعباء الرهبنة، والانقطاع عن الحياة، كم تشقى حتى المؤمنين ـ وكم هو مضح الإنسان الذي ينسحب (يستقيل على لغة إلياس الديري) من مجاهدة الدنيا، ليسجن نفسه في قفص، ويخضع لنظام صارم دون ضغط ولا إكراه، بدافع إيماني فقط... لإيمانه بأن هذه الحياة الدنيا فانية فهو يعمل لآخرته للحياة الأخرى.

أجل الأخ جان سجين منذ خمسين عاماً. شعره أبيض كثلج صنين، وجهه أحمر كنبيذ فرنسا، وصوته مكبوت كأنما يصعد من حلقه مجروراً جراً... علمنا في الصف الثاني، فعيدنا له يوبيله الذهبي ونحن في صف الشهادة. كان عليه أن يجيب على خطاباتنا وتكريمنا بكلمة، فإذا به ينظم قصيدة يقدم بها لخطبة نثرية طريفة.

الذي لا يزال عالقاً بذهني من سنة ١٩٢٧ حتى الآن بيت من قصيدته أو هو مستعيره من أحد شعراء فرنسا: «Tout homme a deux patries, la sienne et la Syrie»، ولتعريبه: «لكل إنسان وطنان، وطنه وسورية».

قلت في سياق هذه الذكريات، أني كنت مولعاً بعبد الحميد كرامي وجماعة الكتلة الوطنية في الشام، فما إن سمعت هذا البيت من الشعر حتى صفقت طويلاً وعالياً. ما كنت منذ ذلك التاريخ أهضم أن يكون لبنان بلداً مستقلاً منفصلاً عن سورية، وسورية مستقلة ومنفصلة عن لبنان ـ أين الحدود بين البلدين، أين المسافات، أين التناقضات؟ ألا يكمل واحدهما الآخر لولا الطائفية وفتكها بالشعور القومي والوطني! صحيح أني لا أزال سورياً قومياً اجتماعياً ولكني مؤمن أن لبنان هو نطاق ضمان للفكر الحر وللحرية. لا غنى لعالمنا العربي عن لبنان مستقل.

كنت أدرس الجغرافيا. جغرافية لبنان وسورية... فأضع ملاحظات، في تلك السن المبكرة، لماذا لبنان وسورية لا سورية وحدها شاملة لبنان... لماذا الواو الكافرة كما يقول سعيد تقي الدين. ولكن التجارب علمتني أن الجغرافيا وحدها لا تكفي لصنع الوحدات، إن إرادة الشعوب تصنع وحدتها.

لم أكن قرأت أنطون سعاده، ولا تعرفت إلى عبد الحميد كرامي... كنت أقرأ وأعـي وأستوعب وأؤمن بأن سورية ولبنان بلد واحد وأن لا قوة يمكن أن تفصلهما الواحد عن الآخر وها هو الرئيس العبقري حافظ الأسد يقول: لبنان وسورية شعبٌ واحد في دولتين!...

لهذا السبب صفقت طويلاً وعالياً للفرير «جان»... عندما قال إن لكل إنسان وطنين، وطنه وسورية! الآن أصبحت أفهم إنها سورية الطبيعة التاريخية لا الجمهورية السورية وحدَها! إن سورية هي الهلال الخصيب ونجمته قبرص...

لم تكن حدود وطننا أنا وجبران (ما عدا إيماني الخاص بوحدة لبنان والشام) تتجاوز حدود الكورة وطرابلس اللهم إلا إذا كان جبران يتذكر أنه مولود في مونتيفيدايو ـ الأوروغواي، أو يشعر أنه ينتمي إلى تلك البلاد برابطة ما ـ من هنا ولتعلقي بالتراب الأحمر الكوراني، وبالزيتون الأخضر، وبالكورانيين الطيبين، يتهمني بعض زملائي في قيادة الحزب بأني كوراني أكثر من اللزوم. صحيح أنا كوراني ومتعصب للكورة وللشمال لأن حدود وطني، وإحساسي بحب بلادي، إنما تبلورت في وجداني وترعرعت معي انطلاقاً من التراب الكوراني الشمالي الحبيب... لا يحب الإنسان وطناً ـ وهماً، بل وطناً ـ حقيقة. وحقيقة وطننا في مطلع حياتنا كانت تمر عبر قريتنا وكورتنا... وطرابلس.

خطبـــة الكولونيـل ريكـلانـك:

بالمناسبات المدرسية كعيد مؤسس الرهبنة أو عيد مار يوسف، أو يوبيل أحد شيوخ الأساتذة كانت إدارة معهدنا تدعو أعلى موظف في الشمال من ضباط فرنسا أو من ممثلي المفوضية العليا العسكريين أو السياسيين ليخطب في مدرستنا. وصدف أن مثلنا مسرحية السيد «Le Cid»، ودعت إدارة المعهد الكولونيل ريكلانك ليكون خطيب الحفلة...

كم تؤثر في المراهقين والمطلين على الشباب الكلمات الحلوة: قال لنا الكولونيل كلمات لا تزال ترن في أذني وفي ضميري: أيها الشباب، اعتصموا بالفضيلة وبالحماسة. «Ayez l'enthousiasme et la vertue».

ما أصاب مني وتراً حساساً هو الدعوة إلى الحماسة لأن كلمة فضيلة كما كنا نقرأ في الكتب تفهم عند كل بلد أو عند كل إنسان، حسب فلسفته الخاصة لأن الدين نفسه، وإن كان في الوصايا قد حدد الفضائل كما حدد الرذائل ونهى عنها، لم يستطع أن يكبح جماح الغرائز ولا أوقف موجة القتل والسلب والزنى والخيانة... والكفر بالله... وبالقيم ـ إن الدين الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لم يستطع أن يمنع القوي عن أكل الضعيف، أو قتله أو سجنه. الحق للقوة... رغم كل الوصايا وكل الفلسفات.

الحماسة... الحماسة للحق وللحقيقة، الحماسة للحرية، الحماسة للذود عن حياض الوطن وسيادته، الحماسة للثورة على المظالم والمقالب والنفاق، ذاك هو الذي أسميه الحماسة المقدسة ذاك ما صفقت له في كلمة الكولونيل ريكلانك التي فعلت في نفسي الفتية فعل السحر!...

في رحلة اللاذقية:

كنت قد أصبحت رئيساً للأكاديمي الفرنسية في المعهد عندما بلغت صف الشهادة. وكان كل شيء يجري بانتظام دون حرج ولا إحراج. من المستحيل على الطالب في الفرير أن يتمرد. إنه يطرد بلا شفقة. يطرد إلى الأبد. والطرد في ذلك الزمن، سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، كان معناه التشرد لأن معهد الفرير كان الأوحد في الشمال الذي يؤهل للبكالوريا. فإذا طرد الطالب منه، عليه أن يتوجه إلى بيروت أو باريس... أو إلى سوء المصير.

وجاءت حادثة تعكر صفو رئاستي وصفو الحياة على رتابتها. دعينا من قبل مدرسة الفرير في اللاذقية وبالضبط من قبل الهيئة الإدارية للأكاديمي فيها لزيارة خاصة. قبلنا الدعوة، وقرر المشرف على الأكاديمي وكان اسمه الفرير دانيال أن نسافر في الصباح الباكر من يوم سبت كما قرر أن يسلف كل منا أربع ليرات فرنسية ذهب نفقات الرحلة ـ توجهت إلى الخال حنا وعرضت عليه الأمر، فهزّ برأسه أن لا مال لديه للرحلات. كان قد أصبح أباً لثلاثة أولاد. وكانت حجته الدامغة والدائمة أن الشغل عاطل.

كنت أتهيب الاصطدام بخالي لأنه كان ولـي أمري... وأنا أعيش في كنفه وفي داره. ولكن كان لا بد من الرحلة. كانت المرة الأولى التي أتخطى فيها حدود لبنان الكبير... كنت أسمع بزحلة وصيدا وصور وعاليه ودير القمر ولكنها كانت أحلاماً...

عاودت الكرة مطالباً الخال بالمبلغ، فأعاد الكرة بالرفض. كاد يطير صوابي. لم يعد معي إلا يوم واحد للتسديد... كيف يذهب أعضاء الأكاديمي، وكل هيئتها الإدارية إلى اللاذقية وأنا الرئيس لا أذهب. أنا الرئيس...

لم يبق لي خلاص أو رجاء إلا بجدي وجدتي. كتبت إليهما رسالة مع أحد أبناء القرية، قلت فيها: إذا لم يصل المبلغ صباح يوم الجمعة فأنا منتحر لا محالة. وأحملهم وأحمل خالي حنا مسؤولية الانتحار.

كنت قد أصبحت رجلاً صغيراً. كانت حياتي المدرسية، وفتحي المدرسة الصيفية للأولاد، وتجوالي في الكورة والزاوية ألقي القصائد والخطب، قد أصبت بشيء من الزهو الصبياني الموازي للغرور. لقد كتبت الرسالة إلى جدي وجدتي كأنما أعطيهما أوامر، أو كأنها إنذار... كتبتها الخميس صباحاً ورحت أنتظر... كانت النار تتآكلني غيظاً وقد أويت إلى غرفتي على السطح مقفلاً علـي بابها رافضاً

الطعام والماء . . . لقد حبست نفسي . اعتصمت في غرفتي باللغة الحالية عند الثوار والمقاومين . هل أكون أول معتصم في التاريخ ! أي في التاريخ اللبناني ! !

خالي لم يلن . لم يسأل . لم يتزحزح . كان قراره دكتاتورياً . كان يعتقد أنه دائماً على صواب كأكثر الذين يتعاملون مع الناس من موقع السلطان . . . ألم يقل الرئيس فرنجية قديماً : وطني دائماً على حق؟ هل هذا صحيح بعد أحداث ١٩٧٥ ؟ .

وأنا أيضاً لم أتزحزح . قررت أن أصوم وأن أحبس نفسي فنفذت .

لم يكن في البيت مصلح . امرأة خالي لا تجرؤ على التدخل بمسألة خطيرة كدفع أربع ليرات ذهبية نفقات رحلة إلى اللاذقية ، رغم أن خالي كان يحبها حتى العبادة ولا يرد لها طلباً ، ورغم أنها كانت بمقام أمي .

حاولت الرقاد . لم يغمض لي طرف . كنت مؤرقاً كالعاشق المهجور أو المهزوم . كنت على جمر الغضا .

كنت أتمشى وحدي في غرفتي في القمة ـ تتراكم الأشباح فوق رأسي ، فأمزقها بالآهات . . . واستذكار أبيات من الشعر الفرنسي أو العربي الذي حفظته وكان كثيراً . لكنت خرجت إلى السطح ، أصرخ لأفرج كربتي ، لولا أن كان على السطح المقابل مجنون ، حبيس في غرفة ، يصرخ ليل نهار فيقلق الحي كله .

وكاد يبزغ فجر الجمعة دون أن يطرق بابي . كنت شبه متأكد أن جدتي تدور على البيوت تستجدي المال ولا تسمح بأن أغادر الحياة وأنا في ريعان عمري كما غادرتها أمي . كنت سلواها الوحيد عندها .

ولكن قبل انبلاج الفجر ، سمعت الباب الخارجي ، على الشارع يطرق بشدة . قررت أن أنزل وأفتحه ، إلا أني تريثت . فإذا بخالي يستيقظ ويفتح . كنت أراقب من الطابق الثاني من السطح . ورأيت خالي يصعد السلم بعد أن فتح الباب ووراءه جدي بقامته الفارعة ، وكوفيته الرمادية ، وشاربيه الهابطين على شفتيه .

خالي عاد إلى غرفة نومه متأففاً وجدي اتجه صوب غرفتي على السطح. هرولت وأقفلت الباب برفق، ولبثت أنتظر. قرع جدي الباب قرعاً خفيفاً، ففتحت. هاله أن يراني في تلك الساعة مرتدياً ملابسي... لماذا لم تنم، قال لي، أجبته: إني كنت أنتظر قدومه، وإلا رميت نفسي من النافذة إلى الشارع. أخذني من أذني وشدها برفق وضمني ـ هو الذي كان قاسياً جداً وبخيلاً جداً ـ قال لي: هذه خمس ليرات ذهبية عوضاً عن الأربعة... وكانت عيناه تسكبان عليّ دفقاً من حنان الأبوة...

كدت لا أقول له شكراً... كدت أعدو إلى الأخ دانيال ليلاً لأنقده المبلغ وأرتاح من عناء الانتظار واليأس ـ إلا أن جدي هدأ روعي. وجلس يروي لي كيف أن جدتي لم تدعه طوال نهار أمس أن يأكل قبل أن أقترض المبلغ، وكانت تنوي إرساله إليّ عند هبوط الليل فاستأذنها بأن يأخذ «غطة» كما يقولون عندنا في الضيعة... وكان أن جاء إليّ قبل بزوغ الفجر... مشى في العتمة مع بائعات الحليب لكي لا تفوت مدة إنذاري...

هكذا يظل قلب الجدين أرأف بالأحفاد من قلب الأخوال والأعمام.

ها أنا الآن جد، بعد أن كنت أباً... إني أفهم الآن بادرة جدي ـ لو طلب مني أحد أحفادي دمي لأعطيته دمي ـ إنها المحبة تنزل ولا تطلع كما السواقي والمنحدرات صوب البحر...

حمل الأغراض من السوق:

من أين أتتني هذه النقيصة؟ لست أدري. إنها مركبات النقص في كل يتيم أو فيّ بوجه خاص: لا أحمل في يدي أي شيء، في الشارع، إلا وأشعر أن أعين المارة تلتهمني... كأنما أنا عتال سَلّ. أو كأن عتال السَلّ كمية مهملة في الحياة، مرذولة ومنبوذة.

طلبت مني زوجة خالي أن أذهب إلى السوق أشتري لبناً وخبزاً وخضاراً. لا أعرف لماذا كنت أتصور أن خدمة أقدمها في البيت الذي أسكنه ـ دافعاً نصيبي من نفقاته ـ لا يجوز أن يستخدمني في قضاء حوائجه لأني لست خادماً، بل عضواً أصيلاً في العائلة بمجرد قبولي بينها ولو على نفقتي. كنت أحسبني، رغم صغر سني، مقيماً في فندق. المقيم في الفندق يخدم (بضم الياء وفتح الدال) لا يخدم (بفتح الياء وضم الدال).

من هنا تمردي على زوجة خالي عندما طالبتني بالذهاب إلى السوق. لقد غضبت ورحت أدمدم كلمات غير مفهومة. أخذت منها المال، ونزلت الدرج بعصبية ظاهرة وبوجه متجهم. اشتريت الأغراض الملعونة وحملتها وأنا أتطلع خلفي تارة وأمامي تارة أخرى، لأرى إذا كان أحد من معارفي يراقبني.

لم يكن الحمل ثقيلاً بقدر ما كان التكليف ثقيلاً. عدت إلى الدار بالأغراض كاملة. ورميتها على طاولة المطبخ معقود الجبين، يكاد الشرر يتطاير من عيني. لم أقل كلمة. صعدت إلى غرفتي وأقفلت الباب بعصبية ورحت أدرس...

جاء خالي في المساء فأخبرته زوجته بما حدث. كان يعرف عصبيتي فلم يستدعني إلى الطابق السفلي ليحاسبني. ولم نلتق في الصباح إذ أفقت باكراً وذهبت إلى المدرسة.

بقيت حرداناً، عندالظهر، وازدردت طعامي في سرعة وصعدت إلى غرفتي وانزويت. كان تصرفي هذا الوسيلة الوحيدة للاحتجاج... وفيما أنا قابع وحدي شارد الذهن خائفاً غير مذعور سمعت صوت خالي ينادني، فخشيت من تصادم. إلا أني أطللت من الشرفة هادىء الروع، فإذا خالي يبادرني وكان يحمل في يديه أكياساً، ويضع بطيخة ثقيلة الوزن على بطنه ويسندها من تحت باليدين المحملتين بالأكياس. هالني المنظر. أما خالي فقد قال لي بصوت جهوري: هل أنت أكبر مني

شأناً وقدراً؟ انظر كيف أحمل أغراض البيت. ليس في هذا أي عار. من يخدم عائلته يخدم نفسه. لذلك لم يكن من حقك يا عبد الله أن تغضب وأن تثور...

لم أجب على هذا الخطاب ولكني بالفعل لقنت أمثولة. إلا أني ما طبقتها بارتياح. حتى اليوم إذا حملت شيئاً في يدي، أتلفت يميناً ويساراً، لأرى إذا كان أحد يراقبني...

إنها مركبات النقص، تبدأ مع المراهقة وتستمر حتى القبر، لا أريد أن أكون عتالاً، كأنما العتالة مذمة وقبح، يا لعقلية الأطفال حتى الكبار منهم... أليس في كل إنسان طفل لا يموت إلا بموته... قد تكون هذه الطفولة الراقدة في الباطن، ملهمة الكثير من الفضائل، كما قد تكون سبباً لتصرفات خرقاء لا يقرها منطق.

الشهـــادة النهائيـة ـ الامتحـــان والاحتفـــال:

إني أشفق على قرائي، فلا أذكر إلا الجلجلة التي مشيتها في حياتي المدرسية في الفرير. الأمجاد التي حققتها بالدرس والاجتهاد والسهر وحسن السلوك كانت لي مصدر عذاب لا مصدر فرح. فأولاد صفي وأكثرهم من الأغنياء أو القادرين، ومن الكسالى، كانوا يرتدون أجمل الثياب، ويأكلون ما يشتهون. أما أنا ـ وأمثالي ـ فقد كان لعابنا يسيل في الفرصة ونحن نرى الأغنياء يأكلون الكعكة أو «الكاتو» ويشربون الكازوز والمبردات...

أجل حتى صف البكالوريا لم يكن في جيبي من المال، ما يكفي لأشتري كعكة أو أشرب قنينة كازوز... أهذا حق وإنصاف أم ظلم وإجحاف؟ بل إنني أصبت في بيت خالي بوجود حماته واسمها أم خليل، صورة توازي في بشاعتها صورة امرأة عمي التي أسميتها في سياق هذه المذكرات بـ «الحنشاء» كما كان يلقبها أهل القرية. أم خليل كانت غيورة أكثر من اللازم على أموال خالي ـ زوج ابنتها ـ

وكانت تتصورني أقيم في داره تصدقاً لا مقابل ما يستغله من أملاكي. كان همها أن تراقب كم رغيف أزدرد وكم صحن آكل. مرات ـ لا مرة واحدة ـ كنت وأنا جائع أزدردر رغيفين عوضاً عن الرغيف الواحد. فكانت تحدجني بنظرة غاضبة وتتمتم: ما بيعرف يشبع!.

ليتصور قارئي، ما هو ردّ الفعل في نفس فتى مراهق يأكل من خيرات أرضه، فتمننه أو تتذمر منه حماة خاله ـ أليس في هذا السلوك ما يستدعي الغضب والنقمة وأكثر؟

ومع ذلك كان الطموح مهمازاً يدفعني إلى الصمود المستمر، إلى ارتياد آفاق جديدة للمعرفة. شعار الأكاديمي التي رأستها في المدرسة كان «إلى فوق، إلى أعلى، إلى الأمام». الطموح كان يعطيني قدرة غريبة على الاحتمال والعض على الجراح. «غداً تصبح شيئاً في الوجود». «غداً تشبع مأكلاً وملبساً وجاهاً»، هكذا كانت تحدثني نفسي، فأرضخ وأستكين... وتهدأ أعصابي... وأغفر للحنشاء الجديدة، كأن لم تكفني واحدة أيام طفولتي.

ليصدقني قارئي بأني كنت أفيق بعض الأيام من نومي على صوت أولاد ينادون «يا أمي»، فأجد أن وسادتي مبللة بالدمع لكثرة ما بكيت في أحلامي، مفتقداً أمي وأبي...

أولاد خالي تغمرهم أمهم بالحنان والعطف، ووالدهم كذلك، وأولاد الجيران في أحضان آبائهم وأمهاتهم يغمرونهم بالدلال. وأنا وحدي في هذا الحي المشؤوم يتيم بلا أب ولا أم ولا حنان. أحب وداد وهي لا تدري. آه لو درت كم كانت خففت عني من آلام وأوجاع وأزمات!.

هكذا في ختام حياتي المدرسية في الفرير لا بد أن أستعرض هذه العذابات التي كانت تقض مضجعي... وتتآكل كياني الطري، تنخر عظامي كما ينخر

السوس الخشب! هذا لا يعني نكران فضل خالي حنا وزوجته، ولكن الأمومة والأبوة المستعارتين لا ترويان غليلاً . . .

ولنصل إلى الشهادة . . .

تألفت لجنة من شاعر الفيحاء سابا زريق وبعض الضباط الفرنسيين، وأخوة من خارج المعهد وأوكل إليها أمر امتحاننا شفوياً، إذا نجحنا في الامتحانات الخطية وكانت إنشاء ورياضيات. رسب القليل منا ونجح الآخرون. ورحنا نمر أمام اللجنة على التوالي، إلى أن انتهت من طرح الأسئلة علينا، ووضعت لنا العلامات التي نستحق، وحولتها إلى إدارة المدرسة.

هنالك راهب طيب كان يطبع لنا قصائدنا على الستانسيل اسمه نوربار، مرّ بي سريعاً قبل إعلان نتائج الامتحانات بثلاثة أيام وربت على كتفي وقال لي: لماذا لم تكن امتحاناتك ممتازة كالمعتاد؟ . . . قالها وضحك . . . ولم يزد.

رحت أضرب أخماسي بأسداسي، مؤولاً كلامه شتى التأويل. ما الذي يقصده؟ هل أكون نزلت عن الأولية . . . فأنال شهادتي في الدرجة الثانية، ومنذ أربع سنوات أنا قائد الصف والمتفوق الذي لا يشق له غبار.

شعر أهل البيت من خالي وزوجته إلى الآخرين أني مضطرب، جاهم الخاطر، شارد العينين، وكانوا في أكثر الأحيان يفرحون لفرحي وانتصاراتي ويزعلون لزعلي وهزائمي، رغم أنها كانت نادرة . . . فهالهم وأنا على أبواب الشهادة، والتحرر من نير الرهبان ونيرهم، أن أكون قلقاً ومغتماً . . . ما كنت قادراً أن أشير إلى ما قاله الأخ نوربار . . . كان صعباً عليّ أن أشير ولو بالإيماءة إلى انحداري.

وجاء يوم القيامة . . .

حضر الحفلة كل أهل المتخرجين، نساءً ورجالاً وأطفالاً. وكانت المدينة

بحكامها وموظفيها ووجوهها مدعوة وحاضرة. . . مطارنة الطوائف الأرثوذكسية والمارونية والكاثوليكية يتصدرون المقام. أما على المنصة فرئيس المعهد واللجنة الفاحصة أو مندوبون عنها.

ونحن الناجحون في الفحوص النهائية جالسون على المنصة، عن شمال الرئيس فيما الضيوف عن يمينه. كل رفاقي يتهامسون، يثرثرون وأنا وحدي الصامت التائه.

ألقى الرئيس كلمة تهنئة وكلمة وداع للناجحين ثم بدأ بتوزيع الشهادات، فإذا بـي الأول مع علامة جيد جداً. لا أزال أحتفظ حتى اليوم بهذه الشهادة. ما أن سمعت باسمي وبمعدلي وكنت ألبس على رأسي طربوشاً حتى رميت الطربوش أرضاً بعصبيتي، واستلمت شهادتي، ورحت أسلم على الصف الأول من الحضور مطارنة ورسميين. ما أن وصلت إلى المطران عريضة الذي صار فيما بعد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للموارنة، حتى بادرني: ما عاجبك تكون الأول يا ابني، ليش رميت الطربوش ع التراب، فقلت له: سأزورك سيدنا وأخبرك السبب. . .

كان من الناجحين معي: أديب قرطباني وإسكندر صوايا، جان وبول رعد (مزيارة)، فيكتور خطار، موسى سليمان، روبير خلاط وعفيف سليمان، سليم جحا، علي الحجار، تيودور دوماني، يوسف خليل، سميح علم الدين، رئيف علم الدين، محمود بكري، أكرم خربوطلي، موريس سرحان، وفيليب مفرج، وبهيج رفول من أميون. . . وبشير الدويهي (زغرتا)، وادوار شدراوي، وجواد خوري وميشال نقولا خوري (كفرحاتا) وغيرهم ممن تفوتني أسماؤهم. . .

من معلم في الضيعة إلى مدير مدرسة الروم في طرابلس:

لم يكن نجاحي في الامتحانات وفوزي بالمعدل جيد جداً مكافأة لـي وحدي وفرحة لخالي حنا وعائلته وعموم الأهل والأصدقاء وكل أهالي القرية، كان مفتاحاً

لأبواب المعرفة للضيعة كلها لأن ضيعتنا دده ـ ما عدا الأمراء الأيوبيين ـ كانت ضيعة الأميين ـ يهزأون بنا في باقي القرى المجاورة. حصولي على الشهادة المعادلة للبكالوريا حفز الهمم، أيقظ المطامح، دفع بأفواج جديدة أن تلتحق بمدرسة الفرير، كان في طليعتها عبد النور يزبك ووديع عيسى ونور الدين الأيوبي... ثم كرّت المسبحة وراح أهل دده يتسابقون إلى مناهل العلم والمعرفة. لقد كنت القدوة. لقد شققت أمامهم الطريق. فرحتي الآن إن قريتي الصغيرة فيها أربعة محامين وستة أطباء وحوالي الخمسين مهندساً ومثلهم دكاترة في الاقتصاد والعلوم الاجتماعية، وابن خالي سمير زاخم شيخ في مجلس شيوخ كولورادو ومعلمون ومعلمات مدارس رسمية وخاصة. وأن أديباً كبيراً اسمه إلياس الديري يحتل مركز الصدارة في كتابة القصة الحديثة وفي الصحافة اللبنانية والعربية، ووديع عيسى أب لثلاثة دكاترة في الطب. وعبد النور يزبك أب لصحفي ودكتور في الحقوق. كما أن عدداً من رجالها نجح في التجارة في ديترويت ـ ميشيغين، فجمع بذكائه ونشاطه ثروة طائلة، وفي طليعتهم جليل سعد وإخوانه الذين بعصاميتهم وذكائهم استطاعوا أن ينشئوا مركزاً مالياً واجتماعياً مرموقاً. أما المهندسون وجورج وعبد الله وإبراهيم وادوار الزاخم فقد أسسوا شركة هندسة أصبحت امبراطورية واحدهم عبد الله أصبح رئيساً لجمعية المصارف لأن مصرفهم يحتل مركزاً أمامياً بين مصارف لبنان...

من الفقر والحرمان واليتم، من وراء البقر والماعز، من مدارس القلمون وبرصا وبيترومين والبلمند والصفا استطعت بالصبر والاجتهاد على احتمال كل أنواع الشقاء والتعب والسهر المضني وبالطموح المتقد المحرض، أن أحمل شهادة مدرسية توازي البكالوريا... الحرقة الوحيدة التي لوّعت فؤادي أي لوعة أن ليس لي أم ولا أب حولي وإن يكن أبي حياً في المهجر. لقد أحسست وأنا أحمل شهادتي بتفوق إلى بيت خالي إن شيئاً أساسياً ينقصني، فلا أم تضمني إلى صدرها ولا أب. إنهما كنزان لو يدري البنون لا يعوض عنهما لا جد ولا جدة ولا أعمام ولا أخوال ولا مياتم رحبة الصدر رحبة الدار...

كان أن لفت نظر مطران طرابلس للروم الأرثوذكس الكسندروس طحان، فاستدعاني فور حصولي على الشهادة أن أتسلم إدارة مدرسة الروم للذكور. لم تكن بمستوى مدرسة البنات. كان طموحي أن أرفعها إلى مستواها. سلمني مفتاح مركز المطرانية (الثلاثة) المجاورة لمدرسة الفرير ودلني على غرفة فيها ـ وطلب إليّ أن أنام فيها ساعة أشاء. إلا أني آثرت البقاء في بيت خالي، فقد كان أولاد خالي قد صاروا بمثابة أخوة لي كما كان خالي وزوجته رغم بخل أم خليل ـ أباً لي وأماً وإن مستعارين ـ. كان في المدرسة التي أوكل إليّ أمر إدارتها في حي الكنائس، بعض الغرف، وبعض البنوك والمقاعد. كل شيء يدل أنها مدرسة في مرحلة الاحتضار وأن من الصعب على أي نية حسنة أن تنقذها من الموت. ومع ذلك قبلت التحدي. وضعت كل جهدي لتأمين استمرارها. كثيرون من تلامذتي لا يزالون أحياء وجلهم ممن توقفوا عن الدرس لأسباب مالية أو بسبب انصرافهم للتجارة أو للوظيفة ـ في أوقات فراغي كنت أعطي دروساً خصوصية لعدد يتجاوز العشرة من طلاب صف الشهادة في معهد الفرير. كانوا يقصدونني لتسهيل نجاحهم في الامتحانات بشرح الفصول الغامضة من كتبهم وتدريبهم على بعض النظريات.

وكذلك كنت أذهب ليلاً إلى بيت سهيل ونيازي وطه وجلال المقدم (طه أصبح الآن قاضياً) فأعطيهم أمثولات خاصة باللغة الفرنسية. كان عليّ أن أجتاز شوارع طرابلس الداخلية لأصل إلى ديارهم وكنت أحياناً أبقى لديهم حتى منتصف الليل، ندرس وبالوقت نفسه نتسامر.

حدث لي مرة أن كنت متأخراً جداً ومضطراً أن أجتاز نفقاً صغيراً مظلماً. وكنت أنقل مسدساً محشواً بالرصاص وإحداها في بيت النار. وإذا بي أفاجأ بشاب إما سكران وإما سلاب. فأطلقت طلقاً في الأرض فإذا به يهرب دون أن يلتفت وراءه. كنت أيضاً أمارس الدفاع عن نفسي ولا أزال... بالرصاص إذا اقتضى الأمر... آلـمَ ما يؤلمني أن أخرج من إنسانيتي وأقاتل حتى دفاعاً عن النفس أو عن الغير. أنا مع غاندي ضد العنف.

من أطرف ما وقع لي وأنا مدير المدرسة في طرابلس إما في بداية السنة الدراسية وإما بعد انتهائها، أني سمعت بمظاهرة وطنية في ٢ تشرين الثاني ضد وعد بلفور تنطلق من أحد جوامع طرابلس وتتجه إلى سراي التل. مشيت في رأس المظاهرة، وكنت قد هيأت قصيدة للمناسبة. وقفت على درج السراي القديمة وألقيت القصيدة. لا أعرف شيئاً عنها، لا أذكر من أبياتها ولا بيتاً واحداً ولكني أذكر إن جريدة الحوادث الطرابلسية نشرت مقاطع منها ومجموعة جريدة الحوادث محفوظة في جامعة باركلي في كاليفورنيا على ما قيل لي.

عـــرس وغـــرام:

كنت قد تعرفت بواسطة جبران جريج إلى أحد زملائه من شباب عفصديق الكورة واسمه أسعد رزوق[1]. وسرعان ما أصبحنا أصدقاء يربط بيننا الشعر والمحبة. كان أسعد ينظم أبياتاً وأنا أنظم أبياتاً. ما كنا شعراء إلا في نظر الناس الأميين. وصدف أن الأخ أسعد عزم على الزواج من فتاة من كفتون اسمها أدال عبود. فدعاني أن أكون إشبينه (أي شاهد العرس حسب الطقوس الدينية) فقبلت على الفور. كان العرس يوم أحد من نيسان أو من تشرين. استأجرنا أنا وجبران جريج حصانين من طرابلس، واتجهنا عبر دده وفيع إلى عفصديق ليلاً. كانت خيولنا تسير خبباً وصدى وقع أقدامها يهز سكون الليل. التقينا الدكتور حنا موسى عبد الله على بيادر فيع، فظن بنا سوءاً إلى أن عرفنا. راح يقهقه كيف أننا أصبحنا خياليين...

وصلنا والقرية كلها في عرس. الذبائح والأفراح والغناء والرقص والدبكة ولذيذ الشراب والطعام. وقع نصيبنا أن ننام في بيت مختار القرية ـ ما إن أزف موعد التوجه إلى ضيعة العروس كفتون ـ الكورة (القويطع) حتى بدأ المطر يتساقط رذاذاً. كان علينا أن نقطع وديااً، وطريقاً وعرة المسالك. نزولاً كنا نخشى أن يهبط سرج خيلنا وصعوداً كذلك. قطعنا المسافة ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ونشد عليها كما

---

(١) ابنه وجدي رزوق، رجل أعمال أحرز شهرة ومركزاً اجتماعياً مرموقاً وهو الذي تبرع بطبع الجزء الأول من هذا الكتاب.

نشد على لجام الخيل. مررنا في بتعبورة. لم نكن نعرف فيها أحداً. نثروا علينا الزهور والعطور والرز. وما إن بلغنا كفتون وجرت مراسم العرس حتى انبريت ألقي قصيدة «عصماء» ختمتها بأن العريس قمر والعروس هلال، وهكذا تلاقى أسعد بأدال... كان للعروس أخت أديبة اسمها نظيرة، رافقتنا في الرحلة ونحن عائدون. كانت هي أيضاً تتقن ركوب الخيل. ما إن بلغنا السهل حتى حاذت فرسها حصاني، وراحت تسابقني ثم تسمعني أبياتاً من شعر الغزل. استلطفتها كثيراً. وقضينا ساعات أنس في دار العريس إلى أن أذن لنا بالانصراف إلى النوم في دار المختار السيد جورج نقولا، وكانت المفاجأة عندما استيقظنا صباحاً وحصاني مريض، لا يقوى على الوقوف. تركناه ليلاً في العراء، فلم يحتمل البرد ولا المطر. كاد يطير عقلي، لأني المسؤول عن إعادته سالماً إلى صاحبه، وإلا فمجبر أن أسدد ثمنه ـ يا للنكبة. يا للكارثة ـ بل من أين المال لتسديد الثمن ـ ليس أمامنا إلا السجن ـ هنا أتكلم باسمي واسم جبران جريج.

هبَّ المختار لنجدتنا ونادى خبيراً في القرية، فقام بمعالجة الحصان على طريقته، وكانت الشمس قد أشرقت واحترق الجو قليلاً فكانت الشمس هي العلاج...

ما برح وجه أخت العروس خيالي. شغفت بها. لم تمر أيام قليلة إلا وترسل لي رسالة غرام وقصيدة. أجبتها بالمثل وكادت أن تقع الواقعة: أن نتبادل الحب ومن ثم أن نتزوج. لا تنس أيها القارىء: إني كنت مدير مدرسة الروم وعمري ١٨ سنة. كنت قادراً أن أتزوج على أحسن ما يرام. أنا الطفل في الحياة كانت أي حسناء قادرة أن تغويني فأركع عند قدميها.

إلا أني بعد أن أقبل الصيف وراجعت ميزانيتي وجدت أن كل ما بقي في جيبي من راتبي كمدير ومن الأمثولات الخاصة التي كنت أعطيها بسخاء لبعض طلاب الصف النهاي ولآل المقدم. فإذا ما رسب في جيبي منها لا يزيد على الثلاثين ليرة ذهبية. أهذا محصول عام كامل وجهاد مرير؟...

أي إلهام، أية دعوة، أي هاتف داخلي هتف بـي أن «أَدْرس الحقوق لتصبح محامياً. . .».

صحيح أني كنت طرحت الموضوع على معلمنا الأخ جان ولكن الطرح لم يكن قراراً. . .

قررت بسرعة أن ألتحق بمعهد الحقوق الفرنسي في بيروت فطلقت الغرام الطارىء بنظيره ورحت أعد نفسي لغرام بعلم القانون!

كان غرامنا شعرياً وطارئاً. . . لذلك كان سهل النسيان، تلاقينا في عيد مار سمعان ـ فيع ـ في ذلك الصيف، فأخذتني بين الصخور وراحت تشدني إلى صدرها، يا للطفولة، عوضاً عن أن أضمها إلى صدري هربت منها. . . كنت قد اتخذت قراري!

من سياق هذه الذكريات، يستدل بوضوح، أن ميولي كانت تصبّ كلها في الشعر والأدب والخطابة. ولقد فكرت ملياً أن المحاماة إنما هي منبر وأدب قبل كل شيء خصوصاً في المرافعات الجنائية. ما كان إدراكي النامي يسمح لي بفهم القانون، في مضامينه الناظمة للحقوق والواجبات الضامنة لقيمة التعامل بين البشر، اللاجمة والرادعة المجرمين والمتطاولين على حقوق الغير في أملاكهم وأعراضهم وشرفهم وحياتهم. كل ما كان قد علق بذهني من أقوال الفرير جان على لسان الرومان: رجل القانون يساوي رجلين. ولقد أقلعت عن التمسك بالهندسة الزراعية لأني قدرت أن كل فلاح في بلدي يعتبر نفسه دكتوراً في الزراعة، فلماذا الهندسة الزراعية ـ ثم ألا يذكر القارىء أن تصميمي على دراسة الهندسة في بوفا ـ فرنسا كان شؤماً علـيّ إذ خسرت المنحة التي كنت قد كسبتها في مباراة نزيهة ،قال لي جدي عندما أنبأته بعزمي على درس الحقوق «بدك تصير محامي» أي كذاب منافق مثل ن. ب. الذي باعني إلى خصمي. اسمع يا عبد الله، إذا درست محامياً لن

ترى مني فلساً واحداً أما إذا درست طبيباً (يقولون في القرية حكيماً) فلك مني ثلاثمائة ليرة ذهب نقداً. ثلاثمائة ليرة ذهب، كأنما يقع الإنسان المحروم على كنز بمجرد تصوره رنينها ورهجها.

أغرانـــي العـــرض...

ولكني ما كنت أتصور أنا الشاعر أن بإمكاني أن أغرز إبرة في زند حسناء أو طفل أو جريح... لذلك قلت لجدي: عرضك مغرٍ وعظيم ولكني أخشى أن أقبض الثلاثمائة ليرة ذهب وأنفقها في درس الحقوق وأنا لا أريد أن أبدأ بالكذب عليك، وأنت المؤمن أن المحامين كذابون. بإمكاني أن أعدك أني سأكون محامياً صادقاً... لم يرضخ جدي وبالفعل لم ينقدني فلساً واحداً فبعت القسم الأكبر من أملاكي لأسد نفقاتي ـ رحم الله جدي ما كل المحامين يكذبون!

امتحانات الدخول إلى معهد الحقوق الفرنسي:

لا أعرف لماذا فضلت معهد الحقوق الفرنسي على معهد حقوق دمشق، لا أذكر سبباً موجباً، اللهم إلا أني في بيروت أبقى قريباً من قريتي وأهلي، وأن أدرس الحقوق باللغة الفرنسية يفتح أمامي آفاقاً وسيعة بوجود القضاء المختلط حيث كانت اللغة الفرنسية وحدها لغة المرافعات واللوائح.

ما زرت بيروت من قبل إلا مرة واحدة، قدمت فيها امتحاناً للحصول على منحة، فما وقفت، لأن المنح منذ قديم الزمان، تعطى على أساس الوساطة لا على أساس الكفاءة...

في ذلك الزمان كانت توصية من ضابط مخابرات لأي طالب، أقوي وأفعل من حيازته درجة ممتازة في مسابقاته... ما آثرت بـي بيروت إلا أن التراموايات فيها تسير على الكهرباء وأن السيارات فيها كثيرة ومكتوب عليها تاكسي فيما

طرابلس تساق فيها الترامويات على الدواب وعلى التاكسيات ـ يا ما أحلاها ـ عربات تجرها الخيول. . . في العاصمة بارات وملاه وحلوات في طرابلس ملهى الأنجا. وبعض دور البغاء الرخيصة في الميناء. . . (أسكلة طرابلس).

كنت قد حصلت بواسطة معهد الفرير على برنامج الامتحانات لدخول معهد الحقوق فلسفة وأدب وجغرافيا وتاريخ. وفي البدء امتحان بالإنشاء خطي.

انصببت على الدروس في مكان في الضيعة يقع شمال شرقيها اسمه «شير البصوص» هو فوق كنيسة مارينا الأثرية، وقريب من عين ماء محصورة اسمها عين دده هي عين ضيقة كحدقة العين تماماً ـ البصوص صار شهيراً لأنه صخرة تمتد على طول ثلاثين متراً، وقد جوف على امتداده، وصقلت المياه على مر الزمن تجويفه جدراناً وأرضاً، فإذا هو لماع يتحدى الرخام نعومة ولمعاناً. تسند ظهرك إليه والبحر على امتداد بصرك، فتظن أنك ملك على عرشه.

كنت أفيق باكراً، وأحمل كتبي وأسرع الخطى إلى «البصوص» حيث كنت قد وضعت حراماً على الأرض ووسادة أسند إليها ظهري وأدرس وحيداً. كنت أحياناً أجلب طعامي معي وأحياناً يجلب لي هذا الطعام ابن عمي حنا طنوس القبرصي واسمه سجيع هو اليوم رب عائلة كبيرة وقد أصبح جَدّاً مثلي. كذلك ابن خالتي جورج لقيس الذي أصبح طبيباً شهيراً. يأتيني أحدهما بالطعام ويجلس بعيداً يتأمل التلة الواصلة إلى البحر من البصوص والسيارات القليلة تمر تحت بصره. . . والأزرق الرجراج كسماط ممدود لا ينقص إلا أن تجلس عليه الزوارق. . . يصبر سجيع حتى أنتهي يحمل الأواني الفارغة ويرحل. . . وكذلك جورج لقيس!

أما أنا فأستمر حتى غياب الشمس. أدرس طويلاً: ثم أحمل بارودتي وأصطاد بعض الطيور ثم أنام في قيلولة قصيرة ثم أنصب على الدرس من جديد. كنت قد أصبحت أهضم ما أقرأ لا أحفظه كالببغاوات، بل كنت قد أصبحت أحاكم

بعض الآراء والنظريات، فإذا قرأت رأيين متناقضين أو مختلفين، كنت أسجل على هامش الكتاب، أني مع هذا الرأي أو ذاك لأسباب أسددها في دقة وعمق.

كان موعد الامتحانات في اليسوعية في تشرين الأول ١٩٢٩، في أوائله. وكانت شركة اسمها الـ AUTO-ROUTIERE تسير «باصات» ضخمة ومريحة بين بيروت والشمال. فما أن أزف الموعد حتى حملت حقيبتي وفيها الكتب والأوراق البيضاء وبعض الثياب ونزلت وحدي إلى القلمون أنتظر قدوم الباص. وبالفعل وجدت محلاً فيه وسرت على بركات الرحمن!!.

كان بعض الخبثاء لتضليلي قد أخبروني أن اسم مدير المعهد MOUTARDE أي خردل فيما اسمه الحقيقي MOUTERDE فركبت تاكسي وطلبت إليه نقلي إلى اليسوعية. كانت التاكسي مكشوفة فما أن صعدت إليها حتى شعرت أني أمير بيروت. ولفت نظري أن عداد التاكسي ظنني فلاحاً جاهلاً فتقصّد أن يغشني. فما أن وصلنا إلى اليسوعية حتى كانت التاكسي قد سجلت ٣٠ قرشاً. ترجلت وقلت للسائق: سأدفع لك المبلغ، ولكن اعلم أني لست فلاحاً أميّاً. لقد سجلت ١٥ قرشاً عند الانطلاق، ولكني أدفع لأني لا أريد مشكلاً.

فأجابني السائق: صحيح يا ابني إنك فلاح أمّي. كل التاكسيات تمرك عند الانطلاق ١٥ قرشاً لا أنا وحدي. حفظت الأمثولة وانصرفت خجلاً من نفسي. هكذا نتعلم دائماً على حسابنا من التعاطي اليومي مع الحياة في شتى حالاتها... المهم أن نتعلم ونحفظ فلا نكرر الأخطاء والأغلاط...

وكان يهمني أن أنجح. فما أن صعدت لمقابلة المدير الذي كان يسوعياً قديساً حتى انهال الشباب، ولم أكن أعرف أحداً منهم بالضحك عليّ MOUTARDE من أين جئت بهذا الاسم. المدير اسمه MOUTERDE. خجلت من نفسي مرة أخرى وهرولت إلى مقابلة المدير واجفاً محمرّ الوجنتين.

فاستقبلني بالأبوة الوادعة الطيبة وقال لي: من قراءة استمارتك فهمت أنك من قرية دده الكورة. أنا ألّفت كتاباً عن الكنيسة مارينا الأثرية في ضيعتكم. خذ هذا الكتاب واقرأه «يا الله». للصدف أحياناً فعل السحر ـ هذا الشيخ الجليل يعرف مارينا أكثر مني. وأنا أهبط الدرج التقيت شاباً اسمه سمعان زخريا من حامات توفي قتلاً من زمان ـ فعرفني. . . وقال لي إنه والمرشحون الكورانيون للامتحانات ينزلون في فندق الأرز في شارح اللنبي. . . وإني أستطيع الالتحاق بهم. فندرس معاً ونستعد معاً. وبالفعل ذهبت إلى هنالك فوجدت سامي ضاهر وبهيج رفول وعدداً من الكورانيين، تعرفت على بعضهم وكنت أعرف الآخرين.

انصببت على الدرس أكاد أقضم الكتب وألوكها وأنا أراجعها، لأن المواد التي كنت أستعيدها لم تمر علينا في معهد الفرير إنها مواد القسم الثاني من البكالوريا. لذلك كان يُعفى من الامتحان من حصل على هذا القسم. وقد أعفي شارل حلو (الذي أصبح رئيس الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٦٤).

وطرحت علينا مواضيع الإنشاء، فاخترت أحدها. وكتبته بكل انتباهي وتركيزي. كنت أخشى السقوط والفشل. ورحنا ننتظر النتيجة على أحرّ من الجمر. كنا مئة وعشرين طالباً. نجح منا في ذلك الفحص الخطي ثلاثون فقط كنت من بينهم، فدعينا لتقديم الامتحان الشفوي.

أذكر من اللجنة الفاحصة شخصين: الأستاذ PARISOT باريزو من الكلية العلمانية، والأستاذ فران أستاذ الاقتصاد السياسي في المعهد أما الآخران فكاهنان يسوعيان.

مررت بادىء ذي بَدء بالأسهل: الآداب الفرنسية. كان الفرع الذي أجيده حتى التفوق. وبالفعل سألني الفاحص باريزو أسئلة متلاحقة نظرية وتطبيقية، فأجبت بحدة وسرعة خاطر وكانت أجوبتي مثار إعجابه. شاهده بعضهم يضع لي ١٨ على عشرين فأخبروني. وعندما وصلت إلى الباب أريد أن أعدو إلى الرفقاء لأخبرهم

بالفوز الباهر، استوقفني باريزو ليسألني إلى أي معهد أنتمي، فأجبته معهد الفرير في طرابلس فقال لي بالفرنسية: Vous Faites Honneur A Votre Etablissement لقد زدت معهدك شرفاً، أو شرَّفت معهدك.

وانتقلت لامتحان الجغرافيا، فطرح عليّ الفاحص وكان كاهناً يسوعياً السؤال التالي: ماذا يسمى نهر الليطاني عند مصبه؟ فقلت له: أنا لم أدرس جغرافية لبنان، لقد درست جغرافية فرنسا والعالم. اسألني عن الرين والرون والسين والكنج واللوار والدنيب والأمازون الخ... الخ... قال لي: أجب على سؤالي، فقلت بالفعل لا أعرف. وكنت حقاً لا أعرف. قال لي: نهر الليطاني عند مصبه يسمى القاسمية. خجلت كل الخجل واعتذرت. قال لي الأب: علامتك في الإنشاء ممتازة. لا يمكنني أن أعطيك صفراً فتسقط. أعطيك ٣ علامات إنقاذ... خرجت من لدنه مهيض الجناح مجبراً على التواضع والصمت.

وكانت المعركة مع الفلسفة. لقد درستها على نفسي وحفظت تعابيرها وألفتها. فقبعت في زاوية مع دفتر أبيض وقلم. ورحت أدوّن السؤالات والجوابات الصحيحة التي كان يطرحها الفاحص الأستاذ فران وهو من ألطف ما شاهدت في بيروت. شاب أنيق، ناعم الوجه، طلق اللسان، الابتسامة لا تفارق وجهه ولا شفتيه. لهذا أحببت الامتحان عنده وصممت أن أحصل على علامة تعوض عليّ الإخفاق في الجغرافيا عند الكاهن. بقيت إلى أن قدم آخر الحاضرين امتحانه. ثم أخذت ما سجلت وانزويت في الفندق لا أتناول إلا الفاكهة وأمحص وأحفظ الأجوبة الصحيحة محاولاً امتصاصها لتجري مع دمي في عروقي..

وبدأت الامتحانات الساعة الرابعة بعد الظهر. فتتالى الطلاب وأنا قابع في الزاوية إياها إلى أن بقيت في الغرفة مع طالب من آل الشيخاني من بو قصميا البترون. فجلسنا معاً وكنت حريصاً أن أظل الأخير فدفشت السيد شيخاني فامتحن قبلي ولما جاء دوري كنت قد حفظت الأسئلة والأجوبة عن ظهر قلب. كانت ربطة

عنقي ـ لكثرة خفقان صدري ـ تعلو وتهبط. من حسن حظي أن الأسئلة التي طرحها عليّ الأستاذ فران كانت قد طرحت في الصباح فرحت أجيب على السؤال قبل أن يكمله. ربحت الجولة منذ اللحظة الأولى. واستمريت رابحاً إلى آخر لحظة. انتهيت حوالي الثامنة والنصف ليلاً. والأستاذ فران الظريف والإنساني يقول لي مودعاً: يمكنني أن أهنئك. لقد نجحت. اذهب و «كيّـف»...

كان نجاحي في امتحانات الدخول إلى معهد الحقوق الفرنسي خشبة الخلاص لأني لولاه، لابتليت بالضياع والتمزق الداخلي وعدت إلى حالة «اليتم التائه»... أحسب أن هذا النجاح كتب لي سجل سير مستقبلي، غيّر مجرى حياتي، وسدّد كل ديوني على الأقدار...

أما من أين المال، فقد وجدت الحل. ألزمت خالي حنا ببيع قطعة أرض كبيرة من ملكنا تحتوي على مائتي كعب زيتون، إلى جارنا جرجس عيسى العائد من الأرجنتين، بمبلغ ثلاثين ألف قرش ذهباً (يوازي سعرها هذه الأيام مئة وخمسين مليون ليرة لبنانية). فلما جئت إلى بيروت لدخول المعهد في أوائل تشرين الثاني ١٩٢٩، لم أكن خالي الوفاض ولا صفر اليدين. لم يعد الباص يليق بـي أنا «طالب الحقوق»، فقصدت بيروت من طرابلس بسيارة تاكسي. لست أدري سبباً معيناً لغروري... فقد كنت بالفعل في فترة نجاحي والتحاقي بالمعهد طاووساً مشكوكة في أطراف ريشه حلقات من ذهب ـ أسير كالأمير وأتصور نفسي قيمة من القيم مثل ملوك الملح وملوك السكر... وملوك الذهب والماس العائدين من المهجر.

فـي معـهد الحقـوق فـي بـيروت:

أحد أصدقائي ورفقاء صباي جبرائيل فياض (توفي منذ أشهر فقط) كان قد صمم على دخول ما نسميه PCN أي الصف الذي يؤهل الالتحاق بمعهد الطب أو معهد الهندسة. فالتقينا في بيروت وتداولنا في أمر السكن. كنت أنا قد نزلت في

فندق في ساحة البرج مكان العازارية اليوم. أجور الفندق باهظة بالنسبة لميزانيتي. فاتفقت مع جبرائيل أن نستأجر غرفة في جوار شارع هوفلين أي على مقربة من المعهد. فإذا بنا نقع على عجوز عندها ولد وحيد وبيت صغير فيه غرفتان، استأجرنا الشاغرة منهما وحملنا إليها أغراضنا. كانت الغرفة رطبة وعفنة. إلا أن العجوز وابنها كانا لطيفين معنا. لا أذكر اسمهما مع الأسف.

رفيقي جبرائيل كان شاباً ذكياً، سريع الخاطر، قوي الحجة. كنت أضيع أحياناً وبين جبران جريج وآل حريكي وآل الحاج وآل القطريب، فقد كانوا يتسابقون لاحتوائي ـ ولنقل لأكون في ضيافتهم ـ ولعل هذا التنافس على الضيف من أجمل عادات القرية اللبنانية وهي لا تزال مألوفة، إلا أنها في القرى ـ المدائن خفت لوجود الفنادق فيها... قامت إذن بيني وبين جبرائيل رفقة حميمة فلم تكن إقامتنا معاً في بيروت بالحمل الثقيل على أحدنا. ثم إننا من مستوى ثقافي واقتصادي واحد فلا يستعلي أحدنا على الآخر، اللهم إلا ما كان يدعيه جبرائيل من شدة ساعد وقبضة حديدية... رغم أنه قصير القامة مثلي أو أقصر مني...

من سوء حظنا، كان موقع غرفتنا على الطريق العام، وقبالتها في الطوابق العليا منزل حبيب باشا السعد، رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك...

كان قد أصبح لبنان جمهورية لها رئيس حسب الأصول الدستورية ولكنها جمهورية خاضعة لتقدير فرنسا، المطلق، تلغيها وتدفنها، وتحييها ساعة تشاء... لماذا أكتب عن سوء حظنا؟.

لأن الحفلات الراقصة والملابس الزاهية والحلى الشعشاعة كانت تشرق علينا من شرفة القصر المنيف، فكنا ونحن نشاهد هذه المشاهد لأول مرة، نغصّ لأننا نسكن في غرفة كقـن الدجاج، ونلبس ثياباً متواضعة ونأكل في مطاعم شعبية رخيصة، وهؤلاء الناس يرمون خيراتهم للكلاب...

منذ ذلك الزمان، ١٩٢٩، كانت تنمو في نفوسنا نقمتان: نقمة على الانتداب وعمرها أقدم من ذلك التاريخ بكثير ونقمة على الطبقة الحاكمة فنظام حكمها، حكم العائلات والرأسماليين والطوائف... والخافضي الجبين لفرنسا لكي لا نقول العملاء... قلت منذ سنة ١٩٢٩ إلا أن هذا التاريخ غير دقيق، فأنا مثلاً كنت قد بدأت أنقم على الانتداب ساعة نفي عبد الحميد كرامي إلى جزيرة أرواد وقد رأيته بعيني مطوقاً بالسنغاليين... ثم كنا قد قرأنا روسو وفولتير والثورة الفرنسية والثورة الأميركية. كان محظراً علينا أن نعرف شيئاً عن الثورة الروسية، اللهم إلا جانبها المظلم، إذ كان معلمونا من الروس البيض يقصون علينا مظالم الروس الحمر، وما فعلوه بالأشراف والقيصر، وكيف هرب بعضهم مشياً على الأقدام ليالي وأياماً حتى بلغوا محجة الأمان...

من هنا، إن نقمتنا على الانتداب ونقمتنا على الحكام اللبنانيين المتعاونين معه بلغت حد الحقد، كما بلغ الحقد ما كنا نشاهده من ترف الحاكمين والأثرياء والوجهاء، فيما يعيش الشعب فقيراً (محروماً) ممعوساً... (هنا لا بد من ملاحظة أن الحالة بعد زوال الانتداب) لا تزال كما كانت تحت أحكامه ؟؟؟؟ في النظام لا في الانتداب!..

في معهد الحقوق تعطى الدروس محاضرات، نصغي إليها ونكتبها إذا شئنا وإلا عدنا إلى الكتب المطبوعة. تشكل المحاضرات تدريباً لنا على فهم القاموس الحقوقي. كان أكثر أساتذتنا قضاة في المحاكم المختلطة أو اللبنانية أو محامين. أذكر منهم أرين وفابيا والقرداحي وأبو صوان وآميل تيان الذي كان في ربيع شبابه وأستاذ قانون العقوبات. إميل تيان أصبح بعد سنوات وزيراً للعدل بعد أن رقي إلى رئاسة محكمة التمييز وهو بلا شك أحد أقدر الحقوقيين في تاريخ لبنان وأنظفهم كفّاً ووجداناً مع احترامي وإعجابي بكل الباقين وبخاصة نجيب أبو صوان وشكري القرداحي.

كانت الدروس كلها شيقة الاّ الحقوق الرومانية، فقد كان يلقيها علينا الأستاذ ريفول قاضي صلح بيروت الأجنبي، وهو «سعدان» في ثوب إنسان، وكان موعدها الساعة الثانية بعد الظهر. . . كنا نضجر ونضج ونسكت في الوقت نفسه. أما أنا فقد وجدت سبيلاً للخلاص. استحضرت معي عدداً من المجموعات القانونية. أصغر واحد فيها مؤلف من ألفي صفحة. كنت أرصفها الواحد فوق الآخر، فإذا أمامي تلة تحجب عني المعلم وتحجبني عنه. وكنت أضع دفتراً وقلماً. وأنام إلى نهاية الصف. فيوقظني الرفاق، وننصرف. . .

فاجأني رئيس المعهد الأب موتارد مرة نائماً نوماً عميقاً فيما انصرف زملائي أجمعون. دخل عليّ وربت على رأسي فأفقت مذعوراً. فإذا بي أضع يدي على رأسي متظاهراً باحتمال وجع أليم. . . سألني إذا كنت بحاجة إلى مستشفى. فسألته عن أسبيرين. . . فجاءني بقرصين وكوب ماء. فتناولتها وشكرته وخرجت متثاقلاً فما أن تواريت عن أنظاره حتى رحت أركض كالناجي من الغرق.

لم تتسع دائرة معارفنا في السنة الأولى. تعرفت إلى شارل الحلو الذي كان طليعة الصف ذكاء واجتهاداً هو نفسه الذي صار رئيس جمهورية لبنان. حميد فرنجية كان قد سبقنا بصفين. مايز مسعد وشوقي الدندشي وشفيق حاتم وسليم قشوع وجورج ساروفيم كانوا أقرب الناس إليّ. كان تفكيرنا الوطني هو الجامع المشترك. وكان في الصف شخص هادىء رصين اسمه وجيه الحفار ابن شفيق لطفي الحفار أحد قادة الكتلة الوطنية في الشام. لا تنشىء صداقات في معهد الحقوق، بسبب التفرق بعد المحاضرات، ولأن أكثرنا كان يعمل في أوقات الفراغ، فإما بوظيفة حكومية كبهيج تقي الدين الذي كان يعلوني صفاً واحداً أو التدرب في مكتب محاماة. إلا أن تقارباً حصل بيني وبين وجيه الحفار لدماثة خلقه ولشعوره الوطني الوقاد. (أصبح فيما بعد صاحب ورئيس تحرير جريدة الإنشاء الدمشقية وقد توفي منذ بضع سنوات).

كيف كنا نقتل الوقت؟ . . . أقول نقتل الوقت ولا أقول نمضي، عن سابق تصور وتصميم لأننا بالفعل كنا نقتله قتلاً؟ في مقهى الربيبليك (الجمهورية) على ساحة البرج. أطرف ما أذكره أني اشتريت قبعة باريسية «وبستونا» وبزاً للسجاير (مع أني لم أكن أدخن آنذاك). وكان يطيب لي أن أتمشى في ساحة البرج، أتفرج على الناس من عل. وعندما كنت أستأجر تاكسي كنت أقصد أن تكون مكشوفة. أما علاقاتي بالخارج فكانت مع تجار الجوخ آل بركات والنصولي وآل عفيش الذين كان يتعامل معهم خالي ويفوضني أن أستلف منهم بعض المال. ومن ثم لا أدري بأية مناسبة تعرفنا على الشيخ فؤاد العازار والشيخ سامي العازار وميشال وإميلي العازار من أميون الكورة. كنا نسمع ونحن أطفال بالشيخ اسكند العازار عضو لجنة إدارة جبل لبنان التي كانت لها صلاحيات محدودة عملاً ببروتوكول جبل لبنان ١٨٦١.

ميشال وإميلي العازار ووالدهم أسعد العازار كانوا يقيمون على مقربة من غرفتنا العفنة. وقد تكون هي التي قاربت بيننا فتصادقنا، خاصة ونحن من الكورة الخضراء التي عاصمتها الأولى أميون. يا للرابطة الكورانية كم هي مركز تجاذب أكثر من الروابط العائلية! . .

مهما تكن في وطنك، تشعر بالغربة إذا لم يكن لك معارف وأصدقاء. آل العازار كانوا العائلة الكريمة التي أطلقت سراحنا من سجن الغربة . . .

دعينا مرة إلى منزل الشيخ فؤاد العازار وكان قصراً بالنسبة لبيوتنا نحن الفلاحين فإذا زوجته السيدة كمال شيخة بعلمها وعقلها، وكانت ربّة منزل وبالوقت نفسه مديرة لمحلات غاليري لافاييت في بيروت. مهيبة رغم أنها لم تكن جميلة. طلقة اللسان وعميقة التفكير بعكس شقيقها أكرم زخور العازار . . . الذي عيّن فيما بعد قاضياً ملحقاً بمحكمة بيروت المختلطة.

أحسست أنا وجبرائيل فياض بكل مركبات النقص تنزل على رأسينا. من قريتين متواضعتين بيترومين وددده حيث كنا نأكل على طبلية، نصل إلى قصر آل العازار فنجلس إلى طاولة يخدمنا حولها خدم وحشم، فنضع مناشف السفرة في حضننا، ونستعمل الشوكة والسكين. ونأكل بتأنٍّ... ما هذه البورجوازية الغريبة العجيبة... لم يعد كاتب هذه المذكرات تلميذاً يتيماً فقيراً... صار طالب حقوق من حقه ارتياد القصور.

كنت خجلاً وقليل الدربة وكنت ولا أزال أسمي نفسي MALADROIT أو عديم المهارة. ولأن استعمال الشوكة والسكين جديد عليّ وعلى جبرائيل كنا نهدر بعض الطعام على الأرض، أو على شرشف الطاولة الأبيض. ما كان آل العازار يؤاخذوننا... تعلمنا على حسابهم كيف نأكل حسب الأصول البورجوازية القادمة إلينا من الغرب على الرحب والسعة لأن النظافة حقاً من الإيمان.

كنا نشعر بالعكس في بيت الشيخ أسعد العازار، الذي كان بيتاً متواضعاً لكن نظيفاً على شاكلتنا. كان ميشال عامل مطبعة وإميلي خياطة والشيخ أسعد متقاعداً. كان قديماً في سلك الدرك، / الجندرمة/ على لغة الأتراك. كنا نشعر أننا في صحننا كما يقول الفرنسيون. وكانت إميلي وميشال يغمراننا بالمحبة والسخاء، فما يمضي أسبوع إلا ونحن على طاولتهم... نسرح ونمرح بلا مناشف سفرة ولا سكاكين. فإذا وضعت لم نكن نخشاها... لقد تعلمنا استعمالها بالمران.

رغم أن جبرائيل كان أكثر خبرة مني، يحذرني من المحتالين والمشعوذين، كدت أقع فريسة لشخص يدعى خريستو، ظريف وأنيق جداً، تلاقينا في مطعم شعبي على ساحة البرج. تعارفنا وتجالسنا. وراح الرجل يمطرنا نكتاً مضحكة، حتى الموت من الضحك. واشتدت الأواصر بيننا فندعوه إلى مائدتنا ويدعونا إلى مائدته. كنا لم نتعرف بعد إلى بيروت الباريسية، بيروت الخمارات والبارات

والملاهي. فكانت مجالسنا اجتماعية، تتجلى فيها العلاقات الإنسانية بأحلى تجلياتها وأطهرها.

مرة كنت في غرفتنا العفنة وحدي، وإذا بالصديق خريستو يطرق بابي، فتحت مذهولاً، لأني كنت غارقاً في الدرس، ثم لم أكن أنتظر تلك الزيارة المبكرة. جلسنا إلى طاولة متواضعة، وراح يمطرني بنكاته الظريفة، ثم فجأة أطرق رأسه إلى الأرض وكادت الدمعة تنفر من عينيه: «أمي مريضة في المستشفى، قال لي، (وأنا بحاجة لأن أدفع عنها النفقات ولا أملك منها فلساً. «أرجوك يا عبد الله انجدني...»، كنت ولا أزال شديد التأثر بالدموع، رغم أني لا أبكي... أتأثر بدموع المرأة ودموع الرجل على حد سواء». ماذا تطلب مني، قلت له. «قال: خمس ليرات ذهبية أردها بعد أسبوع»... كان بالإمكان أن يطلب مني الرجل روحي وأن أقدمها، لأني ما تعودت رد سؤال سائل... لا أعرف أن أقول لا، كما يصنفني جبران جريج وأخيراً وأصف فثال... إلا أن الخمس ليرات ذهبية بالنسبة لي كانت تمثل معاش شهرين، أجرة غرفة ومطعم، ولا ننسى مقهى الجمهورية، حيث كنت لا أزال أذهب أحياناً، وأختال بين الطاولات كالقادمين من أرض الأساطير... أطرقت إلى الأرض. تأوهت، ثم نفخت نفخة قوية... ثم قلت لخريستو... يا أخي ألا ترى هذه الغرفة؟ ألا تستدل منها أن حالتنا زرية؟ ألا تستدل منها أننا يتامى؟... أقسم لك أني إذا نقدتك الخمس ذهبيات أجوع أنا ورفيقي جبرائيل... فضلاً عن أني لا أملكها...

هكذا، حمل الرجل «بستونه» وخيبته وانصرف ونجوت من شره... لقد عرفت بعد حين أنه محتال دولي... أتألم حتى الآن عندما أرفض طلباً لمخلوق، محتالاً كان أو غير محتال، محتاجاً كان أو غير محتاج...

حادثة واحدة نافرة حدثت لي ولجبرائيل، التقيت بأحد أصدقائي من طرابلس رشيد صفير ومعه اثنان من بعبدا، يتنزهون على الروشة بسيارة يسوقها هو.

التقينا على الروشة فتاتين بين السبعة عشر والثامنة عشر عاماً فدعاهما رشيد للجلوس إلى جانبه وانحشرنا نحن الأربعة في المقاعد الخلفية . . . كان القصد أن نتعاقب عليهما شماً وضماً . . . فما قبلتا ونزلتا من السيارة وهما تضحكان منا . . .

أدار رشيد مقود السيارة وقادنا إلى مرقص على الزيتونة مكتوب عليه اسم PAULETTE بوليت . دخلنا وطلبنا بيرة وجلست بيننا «المذكورة» . أخذ الشباب يقبلونها على طريقة الأفلام السينمائية، كنت أنا على طرف الطاولة فنادونني أن أقبّلها بدوري . فقبّلتها على خدها ويكاد الدم ينفر من وجنتي . . . كنت وجلاً وضائعاً . أول مرة شفتاي تقبّلان أنثى في ملهى . . . فقالت لي بين ضحك الرفاق وهرجهم وضحكتها الساخرة : C'est une Baiser de Cousin et non Baiser de Gamin . . . هذه ليست قبلة «أزعر» بل قبلة ابن عم . . .

عقليتنا نحن أبناء القرى كانت تعتبر المرأة ـ ولا تزال ـ نوعاً من الصنم، لا يجوز أن تحسَّسها كأنثى، إلا إذا كنت زوجها الشرعي . يمكنك أن تسجد بين يديها، أن تغازلها من بعيد أن تحبها في سرك ولكن لا أن تقبّلها . . . هذه هي العقلية السائدة، ولكن لو أحصيت عدد الزانيات بالسر في كل قرية لكان عددهن غير قليل . . . هذا لا يعني، أن كل امرأة يمكن أن تكون زانية، كما كان يؤمن جورج عبد المسيح، لأن بينهن عفيفات حتى القداسة، لا يدانيهن الشك، ولا يقع بهن الإغراء في مهاوي الخيانة، خيانة الحبيب أو خيانة الزوج .

وإليكم هذا المثل .

كنت قد بلغت الخامسة أو السادسة عشرة من عمري، مليئاً بالحيوية، والنشاط (أنا في السبعين وشكراً لله لا أزال مليئاً بالحيوية والنشاط)، طلبت مني إحدى قريباتي وكانت سمعتها مشبوهة أن أزورها لقصد أن تستكتبني رسالة إلى أخيها . فقلت لجدتي «نسطه» : إني ذاهب إليها . أسرت جدتي في أذني : إحذر أن تأخذ بكوريتك . . .

ليتصور القارىء لماذا قبلت «بوليت» كابن عمها لا كأزعر! جدتي لم تعتبرني ذكراً.

كانت جدتي تخشى على بكورتي كما تخشى على بكارة فتاة مراهقة... هكذا تربينا على الكبت والتحرق، كانت المرأة مرصودة على... «الزعران» فقط. يا للسذاجة الطاهرة أو البلهاء ـ هكذا ربيت. وقد طفت العالم ولا أزال أشعر أمام المرأة بالحياء نفسه بمركب النقص نفسه وهو الذي كنت أشعر به قبل زواجي وإنجابي خمسة أولاد... وصية «ستي» أن أحافظ على «بكوريتي» فعلت بي فعل السحر، ونقشت في وجداني وذاكرتي نقشاً...

وانتهى العام الدراسي الأول... في معهد الحقوق...

كنت أنتحل شتى الأعذار لأفر من حرّ بيروت في مطالع الصيف... ما أن أقبل حزيران حتى لملمت أغراضي وودعت جبرائيل ورفاقي في الجامعة وطرت إلى دده... كنا نصغي إلى المحاضرات وندرس ولكن ما كان يعلق في أذهاننا الكثير... لذلك شددت الرحال فور وصولي إلى الضيعة، لمركزي المفضل: شير البصوص... بدأت في حزيران ثم انقطعت شهري تموز وآب لألتحق ببيت أسعد بك الإبراهيم من بكوات عكار في بلدة بحنين (بالقرب من المنية) ولكنها عكارية التقاليد والسكان...

أدرس، وأستعيد. كنت قد صممت ألا أرسب في أي سنة. وقد بررت بالعهد الذي قطعت على نفسي، فما رسبت. إلا أن الامتحانات كانت صعبة. يطرح علينا الموضوع، فنسهب في شرحه باللغة الفرنسية. كم كنت أخشى أني ما أحسنت التعبير. فما أن ننهي الامتحانات الخطية. حتى أنصرف لإعداد الشفوي منها... كما كنت أفعل أيام صباي.

الساعة الرهيبة، كانت ساعة تعليق أسماء الفائزين على باب المعهد، كان كل منا، نحن طلاب السنة الأولى يمسك قلبه بيديه، ويقرأ... فإذا وقع على اسمه طار

فرحاً . . . وراح يعدو ليخبر الأهل والأصحاب، وإذا سقط، لوى عنقه، وخجل وتوارى . . . السقوط بالنسبة للبعض كان يعني اليأس . . . وحتى الموت . . .

نجحت . . . فيما رسب رفيقي وصديقي جبرائيل فياض . . . أنا محام . . . وهو تحول إلى أستاذ معارف وأسس عائلة مهندسين . . . ثم أخيراً وفي هذا العام أسلم الروح وأنا غائب عن البلاد . . . (١٩٨٠).

في بحنين (عكار) ١٩٣٠ :

لو كانت بحنين قرية صغيرة، أقمت فيها شهرين وبضعة أيام، أعلم أبناءها القراءة والكتابة، لما بقيت في ذاكرتي. إلا أنها كانت ولا تزال مسكناً لعائلة التصقت بها حياتي وطبعتني في سلوكي وعاطفتي بطابع عميق الأثر، هي عائلة أسعد الإبراهيم المرعبي، المؤلفة منه ومن زوجته هند حاماتي وابنه الوحيد فؤاد وبناته سلمى وليلى ونجلاء أو دعد. كان الرجل قد بلغ الخمسين من عمره وقد طلّق زوجته المحمدية وأولاده منها، وتزوج من هند حاماتي لأنها حائزة على «الهاي سكول» من مدرسة البنات الأميركية في طرابلس. وكان ميسوراً يملك أطياناً واسعة، فيها الموز والبلح والبرتقال ومختلف أنواع الفواكه والخضار والمواشي. وكان كل أولاده في مدارس الأميركان في الشتاء إلا أنهم غير مجتهدين. فدلهم المطران الكسندروس طحان عليّ لأساعدهم فقصداني إلى دده وأقنعاني بالإقامة بينهم وتعليم أولادهم. رحبت بالفكرة بعد أن زرتهم ودرست أوضاع بيتهم وتعرفت على أولادهم وتوافقنا على بدل الأتعاب وساعات العمل، ليبقى لي متسع من الوقت كافٍ لإعداد مواد الحقوق لامتحانات تشرين.

كنت أعلّم الأولاد ساعة أو ساعتين قبل الظهر، وأنصرف إلى دروسي كل أوقات فراغي. كنت نهماً إلى المعرفة، فإذا لم أقرأ كتب الحقوق، قرأت الشعر أو النثر . . . أو نظمت وكتبت.

تعلمت عند آل الإبراهيم كيف أتناول الحليب عند الترويقة. فإذا كان القارىء يذكر جيداً، كنت أكره الحليب حتى القرف، وأني مرة دفنت طاسة الحليب وما فيها تحت التراب وأصابني من جراء ذلك ما أصابني . . .

كما تعلمت كيف أعيش حياة عائلية منتظمة، نأكل في وقت معين، ننام في وقت معين ثم ننهض في وقت معين. هذه الحياة الرتيبة حلت محل الحياة الفوضوية، التي كنت قد تعودت عليها في بيت خالي وفي بيروت . . .

ثم إن علاقات آل إبراهيم ببكوات عكار وعائلاتها كانت واسعة ووثيقة جداً، وبواسطتهم تعرفت إلى عبود بك عبد الرزاق الذي كان متزعم المنطقة ونائبها، كما تعرفت إلى العديد من رجال الدين والدنيا . . . محامين وأطباء وصحفيين.

ثم تطورت صداقتنا، وأصبحت واحداً من البيت، إلى درجة أن الست هند دأبت على تدريب ابنتها الكبرى على محبتي، لأنها ترغب في أن تزوجني منها، وتجعل مني إنساناً غنياً وصاحب نفوذ سياسي وزعامة.

كثيراً من مركبات النقص التي كان اليتم قد زرعها في نفسيتي وكياني، بدأت ترحل إلى الأبد. لقد أثّرت بـي الست هند ذات الشخصية القوية تأثيراً فعالاً، السلبيات التي كانت ترهقني إزاء الناس والأشياء انحسرت إلى غير رجعة، وأن أكن ما تخلصت منها بالنتيجة إلا بفعل إرادي ورقابة مستمرة لسلوكي وتصرفاتي . . . يعد الشاب نفسه للمستقبل أكثر مما تعده نصائح وإرشادات الآخرين.

يمكنني أن أسجل أن حياتي في بحنين، كانت منعطفاً في مسيرتي، إلا أنه منعطف ذو أثر نفسي أكثر منه، منعطفاً في مسيرة أفكاري وارائي ومعتقداتي في الأخلاق الوطنية.

يمكنني أن أسجل أن عائلة أسعد الإبراهيم أيقظت فـيّ مطامح جديدة وألهبت عزيمتي وكانت دافعاً إلى التقدم والتطلعات الكبيرة.

ما كان يزعجني، ولا بد من تسجيله لأنه يهزني كلما مر في خواطري، «استرجال» السيدة هند، فقد كانت الكلمة الأخيرة لها في كل شيء. لا يقطع زوجها خيط القطن إلا بإرادتها. وكانت لها في توجهها وفي تربيتها البيتية على ما يبدو، نوازع نحو التحكم والسيطرة... والدكتاتورية.

ما كنت أتدخل في أي شأن لا يعنيني، رغم أني منذ شبابي رافض للدكتاتورية والقسوة والعنف. إلا أنني كنت أنزوي في غرفتي احتجاجاً أو حرداً أو اكتئاباً. إلا أن أكثر ما كان يستثيرني ويزعجني، الضرب العنيف الذي كانت تمارسه الست هند على خدمها وفلاحيها. لا يعرف قلبها الرحمة ولا التسامح ولا الهوادة... كانت تبرر سلوكها الخشن بأن هؤلاء الناس لا يفهمون إلا بهذه اللغة. لعل هذا السلوك شدد من عزيمتي على طرد كل أنواع التحكم والدكتاتورية من حياتي وحملني أن أكون رحوماً غفوراً وأن أستلهم إنسانيتي في تعاملي مع الناس أجمعين أصدقاء وأهلاً أو خصوماً.

ثم لم يكن قليل الأهمية أن يتزوج سني من بكوات عكار من مسيحية من طرابلس، وأن يصحبها نهار الأحد إلى الكنيسة، كان أسعد الإبراهيم بروحه السمحة، وانفتاحه على الآخرين، مثلاً يضرب في عكار والشمال، على التعايش المحمدي ـ المسيحي الذي لا يزال قاعدة وجود لبنان ككيان سياسي بل إن أسعد الإبراهيم كان نموذجاً بحل جذري للمعضلة الطائفية، فقد كان يؤمن أن المسيحية والمحمدية دينان توحيديان منزلان من قبل إلٰه واحد كأنما كان يقرأ أفكار أنطون سعادة التي دوّنها قبل استشهاده في كتابه الإسلام في رسالته.

لعل هذا الكونتراست Contraste التناقض بين طبع الزوج وطبع الزوجة ساعد على صنع حياة البيت الهانئة. فأنا لا أحب المستنقعات حتى الصافية والعذبة. كل ما لا يتحرك صائر إلى العفن. الحياة في الحركة، في الثورة، في

الغضب أحياناً وأحياناً في الهدوء والسكون والاستقرار: «التصادمية» في كيان البشر سلباً وإيجاباً، تنشىء أكثر مما تخرب، إذا وجهت توجيهاً حسناً، أو كانت منطلقاتها خيرة ومبرورة وخصوصاً بين الزوجين، لأن الركود والرتابة والاستقرار المستمر يقضي على كل شعلة بما فيها شعلة الحب المتبادل أو الحنان المتبادل.

١ ــ المطران أغناطيوس حريكي والوظيفة:

مرّ في هذه الذكريات اسم المطران أغناطيوس حريكي عندما كان رئيساً لمدرسة البلمند التي درست فيها سنوات ثلاث. كان آنذاك حريكي سنة ١٩٢٠ أرشمندريتاً ثم انتخب مطراناً على أبرشية حماة وتوابعها. من هنالك أرسل برقية إلى خالي حنا يعرض عليّ فيها أن أتسلم مركز أمين سر حاكم حماه الفرنسي. كنت ولا أزال أمقت الوظيفة، إلا أن إغواءها كبير. أن أكون سكرتيراً للحاكم، يعني أني في موقع نفوذ يفتح أمامي آفاقاً وسيعة للتقدم والصعود كما جرى للسيد انطون رزق في بيروت، إذ أصبح الناس يخاطبونه كأنه المفوض السامي وكذلك جورج حيمري.

طرحت على نفسي سؤالاً: هل يجوز لك أنت المقبل على نيل شهادة الحقوق والدخول في معترك المحاماة، أن تكون سترهنا لحاكم فرنسي في حماه؟... هل يمكنك أن تتحمل قيود الوظيفة إذ تضطر أن تنفذ الأوامر التي يصدرها إليك السيد مهما كانت مخالفة لقناعتك ومعتقداتك؟ خلال ساعة من الوقت ودون استشارة أحد، اتخذت قراراً حاسماً بالرفض. وكتبت رسالة إلى خالي وأخرى إلى المطران بهذا المعنى. الوظيفة عند الفرنسيين عبودية بنظري. منذ شبابي، كانت قد رست في أعماق نفسي نواة المناضل وراحت تكبر مع الزمن. لا استخدام. ولا تعاون مع الفرنسيين المستعمرين ولا مع أي مستعمر!

٢ ــ كيف تسببت بموت جدي؟:

كل أسبوع أو أسبوعين كنت أترك بحنين عائداً إلى مسقط رأسي دده لتفقد

الأهل والخلان. مرة في ذلك الصيف، ١٩٣٠، في شهر أيلول، كنت في القرية وإذا بجدي مريض، مصاب بقبض مزمن... وحادّ.. وكنت أنا قد قرأت إعلاناً في جريدة الأحرار الصادرة في بيروت عن حبوب مسهلة يسمونها حبوب الحياة للدكتور روس. وكنت أحب جدي ـ رغم بخله ـ حباً جماً فاشتريت أنبوباً منها وأرسلته إليه مع أحد أهالي الضيعة. كان مكتوباً على الأنبوب كيفية استعمال الدواء باللغة العربية ـ ولكن جدي وجدتي كانا أميّين تقريباً، فما وصل الدواء حتى أتى جدي على كل الحبوب التي فيه وكان عمره فوق الثمانين فأصيب بإسهال عنيد لم تنفع به حيل الأطباء ولا قدرة العقاقير ولا صلوات جدتي ودعواتها!

أُصبت بما يشبه الذهول والشرود، وتملكني أسى جارح، فنزفت دموعاً. كانت هذه الدموع أول دموع **أذرفها على ميت عزيز وآخر دموع**. عندنا في القرية يقولون احترقت دمعتي فقد مات أعز الناس لدي زوجتي وزعيمي وأصدقائي ورفقائي وأهلي. فما استطعت أن أبكي ولا دمعة واحدة على أحد منهم. أُصاب بما يشبه الاختناق. ولكن دمعتي أول ما يختنق في حدقتي. ترغرغ عيناي ولكنهما لا تدمعان... تأكل عيناي الدموع ثم يمتصها جَلَدي ـ بهذه المناسبة حتى اليوم، أذكر أن خالي أرسل في طلب كاتب العدل الشيخ إلياس مالك والد وداد ليدون وصية جدي أو ليوزع تركته وهو لا يزال على قيد الحياة. فجاء الكاتب العدل ووزع جدي التركة. كنت أنا حاضراً ولكني لم أكن بعد قد درست قانون الوصية ولا الهبة ولم أكن أعرف قيمة العقود التي تعقد في مرض الموت فسلمت بما يجري دون أي مداخلة. جدتي تدخلت وقالت لجدي: اكتب لعبد الله حصة والدته سعدى. عبد الله لا يرث منك شيئاً. هل تحرمه من حصة والدته؟ قال لها جدي: حياتي كلها لعبد الله. والتفت إليّ قائلاً: صلِّ من أجل أن أصحّ، لأني سأحملك وأدور فيك بكل أنحاء لبنان. حياتي كلها لك.

ما كنت أجرؤ أن أؤثر على جدي بكلمة واحدة. هل ألمّح له أنه في خطر

فأعجل عليه أكثر مما عجلت؟ إلا أن جدتي ما انفكت تلحّ عليه بأن يكتب لي شيئاً ونادت كاتب العدل، فلبّى الطلب واستكتبته سنداً بأربعين ليرة ذهبية. أما حصة أمي لو حسب لي ميراثها فقد كانت تفوق الثلاثمائة ليرة ذهباً، لأن جدي كان ملاكاً غنياً...

الآن وقد مضى على هذه الحادثة نصف جيل، وقد عدلت القوانين الإرثية وصار للأبناء ـ عند المسيحيين ـ الحق بتمثيل مورثيهم إذا هم توفوا قبلهم ـ كما هي حال والدتي ـ أسأل نفسي كم خسرت من تركة جدي وكم يبلغ الذي خسرته لو حسب في هذه الأيام بعد الارتفاع بأسعار الأراضي ارتفاعاً جنونياً... إنه ملايين.

في المملكة العربية السعودية شاعر كبير أحد أمراء العائلة المالكة المنحدرة من عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة، أصدر ديوان شعر بإمضاء «محروم»... ما هي الصفة التي يجب أن يطلقها على نفسه شاعر مثلي حرم في الحياة من كل متعها، حتى من ميراث أمه؟ من يكون المحروم الأمير أم أنا؟ ولكن هل أنسى أن الدواء الذي أرسلته إلى جدي فتك به عوضاً عن أن يشفيه؟

٣ ــ لقاء مع المطران عريضة ـ سنة ١٩٣٠:

في سني هذه، وقد أصبحت في العشرين، يصبح الإنسان أكثر تفهماً للناس، وأكثر تأثراً بمن لهم مكانة وشأن. لا أنكر أن المطران أنطون عريضة، الذي كان جاري وأنا تلميذ الفرير، كان قدوة لي بسمهره على رعيته، وتقشفه، وصرامة تقاطيع وجهه ورزانته البالغة حد الجمود، فكنت أجله إجلالاً كبيراً. ما تسنى لي الاجتماع به طويلاً لنتعارف أكثر، لا في مطرانيته القديمة ولا الجديدة، ولا بعد أن صار بطريركاً في مطالع الثلاثينات. إلا أن الظروف شاءت أن أرافق آل الإبراهيم إلى قرية أردة، قرب زغرتا، لزيارة آل فضل الله، ومن وجهائها ومثقفيها. ونحن في المنزل، أقبل سيادته، بمهابته وشيبته الوقور. فرحت للصدفة. ذكرته بالسهر

الطويل وبأيام «الفرير». شعرت بإنسانيته في تلك الصدفة وتجرأت أن أسأله وهو يأكل أمامي رزاً ولبناً فقط: يا سيدنا، في سنك المتقدمة هل تطمح لشيء أم أنك قانع بالحالة التي أنت فيها؟ فأجابني على الفور: يا ابني أنا أطمح بأن أصبح بطريركاً. وسألني بالمقابل: ماذا تطمح أن تكون، فأجبت دون تردد: رئيساً للجمهورية لأول مرة شاهدت الوجه الصارم يشرق بابتسامة عريضة ويلين للنكتة الظريفة.

تحقق حلم سيادته فصار بطريركاً، أما أنا فقد أصبحت رئيساً على المعذبين في الأرض والمحرومين. رغم أني تبوأت مسؤوليات قيادية عليا في الحزب السوري القومي الاجتماعي فيما بعد.

٤ ــ مأتم جبران خليل جبران:

كنت وفؤاد سليمان مغرمين بجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبـي ماضي والأخطل الصغير، وكان لنا فيما بعد علاقة حميمة بإلياس أبـي شبكة. في مطالع شبابنا، كانت الأجنحة المتكسرة أجنحة نطير بها إلى عالم الأحلام والأشواق... والحب... لقد بدأنا نقرأ ألف باء الثورة والتمرد على التقاليد ورجال الدين والإقطاعيين في كتب جبران أولاً. ثم بدأنا ندق أبواب الفكر الفلسفي في يسوع ابن الإنسان، ورمل وزبد... ما كان وصل النبـي بعد إلى أيدينا ولو وصل لقرأنا دون أن نستوعب رموزه وأسراره... لعلنا حتى الآن لا نستوعب. فنبـي جبران نبـي لا كالأنبياء. ومعلم لا كالمعلمين. يحدث الجموع بلغة ما كان على ما أتصور يدرك أغوارها البعيدة هو نفسه. لغة جديدة تحبه ولو لم تفهمه.

فجأة وأنا في «بحنين» وصل خبر وفاة جبران، لا يموت العظيم وحده. تموت معه أفئدة وأرواح ومشاعر في كل مكان، له فيه عشاق ومعجبون... أويت إلى غرفتي «أجنحة متكسرة» وحطام سفينة تغرق. ما كنت أعتقد أن موت جبران

سيكون فاجعة لي. كنت في تلك الساعات بحاجة إلى فؤاد سليمان، نتشاكى... ونحزن معاً على من كتبنا أحرفنا الأولى في الشعر والأدب على أضواء شموعه.

مـــا العمـــل؟

ها قد نشرت الصحف أن جثمانه سيُنقل إلى بشري وسيدفن في مغارة محنطا... لا يجوز إلا أن أمشي أنا المغمور المجهول في جنازة العظيم الذي ما عظمته بشري لأدبه بقدر ما عظمته لأنه وهبها كل ما يملك من مال وكتب تاركاً لاخته مريانا ما تسد به الرمق.

حسبت ما في جيبي من مال، واستأجرت سيارة لتبقى معي مهما طالت احتفالات التأبين... ومشيت في الموكب وصعدت إلى إهدن وبشري، وتغلغلت بين تلك الجموع المحتشدة، ورحت أسمع المؤبنين. شاهدت يوسف السودا واستمعت إليه، كما استمعت إلى الأستاذ المحامي حميد معوض يلقي أوائل قصائده... كما سمعت الكثيرين ممن تفوتني أسماؤهم الآن إلا أني لا أنسى حميد معوض ويوسف السودا.

ما شفيت غليلي. نمت في السيارة أو في الفندق لا أتذكر. في اليوم التالي رجعت إلى بحنين وأقفلت باب غرفتي على روحي أكتب تأبيني لجبران. كتبته وأخفيته. ما أذكر منه هو أني ألهت جبران وقد قلت في ما قلت: «كل إنسان يدب على وجه البسيطة نصف إله أما جبران فكان إلهاً كاملاً...».

يدفع بنا إعجابنا بالعظماء إلى المبالغة في تبجيلهم وإطرائهم فلا نجد إلا التعابير الضخمة لكي نفيهم حقهم من التبجيل والتعظيم. نعم ألّهت جبران أو قلت إنه بين البشر أكثر ألوهة من الجميع.

رحت أتصور بعد دخولي معهد الحقوق أني نصف الدنيا إذ نجحت في امتحانات الدخول وخلفت الكثيرين ورائي. لما سرت في مأتم جبرن، أعرف

الناس واحداً من ألف، هرَّيش الطواويس من جسمي. وتعريت أمام ذاتي... أنا لا شيء. إذا كنت كبيراً فعلى قياس نقطة الماء في الأوقيانوس الذي لا قرار لأعماقه.

٥ ــ أنا وسلمى:

الطفلة ابنة العشر سنوات (هي الآن في الستين وقد تكون صارت جدة بدورها مثلي) أصبحت بالنسبة لي وعداً... إذن سلمى الطفلة ستكون عروسي... رحت أنظم لها الشعر.

تعالي أيا سلمى وقد بسم الفجر وفتح في خديك أكمامه الزهر.

أنا أكبرها بعشر سنوات. الدم يتدفق في عروقي حاراً مهتاجاً وهي تتدفق الطفولة في عينيها براءة وطهارة، أحاول تقبيلها تنفر مني تدرك بغريزتها أن قبلتي ليست بريئة كطفولتها... ذلك الوعد، ذهب مع الريح... ريح بيروت والحلوات فيها والدنيا الجديدة الأوسع بما لا يقاس من عالم بحنين، عالم البساتين... والماشية... والأطفال.

تعرف سلمى وقد أصبحت جدة الآن، أن قصيدتي المنشورة في مجموعتي الشعرية «وحي الظلام» نظمت لها، لقد أحببتها وعداً أكثر مما أحببتها عروس أحلامي...

السنة الثانية:

وجيه الحفار، وأدمون كسبار وعائلة الدكتور حنا باسيل، هذه الأسماء العزيزة تصلح عنواناً لهذا العام الدراسي الثاني...

كنت أتبرم يوماً أمام صديقي جبرائيل خلاط[1] الذي كان قد أنهى دروسه الحقوقية ووظف في قلم المحكمة الصلحية المختلطة عند الأستاذ ريفول إياه، فأشار عليّ بالعمل في أحد مكاتب المحامين فأقطع الوقت مستفيداً استفادة

---

(١) هو أحد الذين صنعوا مستقبلي إذ دفعني إلى مكتب ادمون كبار والمحاميين إبراهيم وفهيم خوري. ابنه لطف الله خلاط قنصل اليونان الفخري في الشمال اللبناني.

مضاعفة فمن جهة تكسب بعض المال لسد حاجاتك ومن جهة ثانية تتعرف إلى القوانين في تطبيقها اليومي كما تألف قصر العدل ووجوه القضاة والمحامين . . . والكتبة والمتقاضين . (جبرائيل خلاط أصبح رئيس غرفة في مجلس شورى الدولة) .

هللت وكبرت للنصيحة ورجوت جبرائيل أن ينقذني وينقذ وقتي الذي يذهب هدراً . ما مضى أكثر من أسبوع حتى كنت في مكتب الأستاذ أدمون كسبار، ووالده الشيخ إلياس كسبار الشهير في الحقوق المدنية، من المجلة إلى قوانين أصول المحاكمات . أما أدمون فكان مبتدئاً إلا أن الحقوق كانت في دمه، فما مر إلا وقت يسير حتى اشتهر كمحام مدني متفوق . كان حظي إذاً كبير إذ وقعت على مكتب جد ومسؤولية وعلم . فكانت المهمة التي أوكلت إليّ أن أطبع اللوائح وأن أقدمها إلى المحكمة الصالحة، وأن ألاحق تنفيذ الأحكام، في دوائر الإجراء ـ ولم تعكر علي مهمتي هذه دروسي في معهد الحقوق، إذ أن الاتفاق بيني وبين الأستاذ أدمون (وهو من المشايخ من بلدة طورزا في جوار الكورة)، ألا يعطل عليّ عملي في مكتبه أوقات المحاضرات الجامعية .

مادياً كان راتبي لا يتجاوز الثلاث ليرات ذهباً في الشهر، أما عملياً فإن طبعي للوائح، ومتابعتي لشؤون التنفيذ ومروري اليومي بقصر العدل، سهلت عليّ التعرف والتآلف مع المصطلحات الحقوقية، كما أصبحت بعد فترة قصيرة من أهل القصر، وجوه المحامين والقضاة وأسماؤهم في ذهني، وكذلك وجوه رؤساء الأقلام والكتبة . لا يمكن أن أنسى فريد حبيب ولا جوزف مسعود ولا عفيف رمضان ومحمود نعمان ولا عبد الحفيظ سلطاني، كما لا يمكنني أن أنسى وجوه المحامين أبي شهلا وإميل لحود وبشارة الخوري وإميل إده وكميل إده وشارل كاتسفليس وجان تيان ورامز شوقي وجان جلخ وعبد الله اليافي وجاك شديد أما القضاة فكان أقربهم إلى قلبي جورج السيوفي وفارس نصار وصبحي المحمصاني وآصاف رعد وناظم رعد وخليل جريج وحسن قبلان وأران وديبان وروسّا . . . أما

الباقون من لبنانيين وفرنسيين فقد كنت أكره فيهم الصلف المصطنع . . . أحب القاضي إنساناً كيوسف جبران أكثر مما أحبه متألهاً . . . ذكرت يوسف جبران دون أن أنسى كبير القضاة نجيب أبو صوان وألبير فرحات وأسعد البدوي وجورج السيوفي الخ . . .

كان أول حجز احتياطي قمت به في محلة الخندق الغميق على منقولات بيت الأستاذ يوسف الحاج، أبو كمال الحاج، الكاتب والشاعر الظريف الذي اشتهر في آخر حياته بأنه من أتباع داهش ـ يبدو أنه كان مديوناً لأحد موكلي الأستاذ أدمون، فاستحصلنا من رئيس دائرة الأجراء على قرار بحجز منقولاته ورحت أنا مع مأمور الأجراء ننفذ القرار . . . بحضور مختار المحلة .

حتى هذا التاريخ أي بعد ما يقارب النصف جيل، أشعر بأسى عندما أذكر أم كمال ـ وقد جرت دموعها ـ معتبرة شأن حجز منقولاتها إذلال لكبريائها وكبرياء العائلة . فيوسف الحاج كان شاعر الأمير خزعل في عربستان، وقد تناقل القوم أنه عاد بأكياس من ديوان الأمير، ثم لا ننسى أنه كان أباً للفيلسوف كمال!

ما كان بإمكاني إلا أن أرثي لحال السيدة أم كمال (وقد صرنا أصدقاء فيما بعد) وأعتقد أن الدين دفع ولم تطرح المنقولات بالمزاد العلني . . . إن القانون ملاك رحيم أو جلاد بلا قلب في آن .

أما في المكتب، فقد تعلمت من الأستاذ أدمون الاجتهاد والسهر على دعاويه والتميز بالتدقيق في كل النقاط القانونية والوقائعية الواردة في ملف الدعوى . كنت أعجب إذا خسر أدمون إحدى دعاويه ـ لقد كان يطحنها درساً ومراجعة وبحثاً .

كما تعلمت لحياتي الخاصة شأناً هاماً؛ رآني أدمون يوماً وشعر ذقني طويل، فانتهرني قائلاً : إياك أن تخرج من غرفتك إلى العمل قبل أن تحلق ذقنك وتستحم . النظافة من الإيمان . ومظهرك الخارجي يجب دائماً أن يكون نظيفاً وأنيقاً . تعلمت هذه الأمثولة ولا أزال أطبقها في حياتي حتى تاريخ كتابة هذه الذكريات . ثم هو أول

من أنزلني من مسارح الأحلام إلى الأرض، فقد كنت دائم الطيران وهو يردني إلى عالم الواقع.

كل هذه الفوائد لم تمر دون مشاكسات ومحاولة إذلال. فمشايخ آل كسبار من الأقطاعيين ونحن أبناء القرى الكورانية والفلاحين. كانوا ينظرون إلينا من علٍّ، نحن مواطنون درجة رابعة.

حدث في إحدى الليالي أن كان الشيخ إلياس، أبو أدمون، يعد ليرات ذهبية قبل دسّها في جيبه. كان مكتبنا في شارع المعرض في وقف الموارنة يطل على الشارع العام. وكانت الغرفة التي يعد فيها الليرات تطل على هذا الشارع. فوقعت الليرات الذهبية من يده وراحت تتدحرج على أرض الغرفة. وصدف أن كنت فيها أطبع على الآلة الكاتبة. فرحت أنا والأخباري (البلانتون) نساعده على لملمتها. فلما جمعناها راجع العدد فإذا هي ناقصة ليرتين ذهبيتين... ظن الشيخ إلياس بنا سوءاً. وقال لنا: يجب البحث عن الليرتين وغداً تسلماني إياها. قلنا فلننزل إلى الشارع لعلها تدحرجت إليه. ونزلنا على ضوء الشمع والكبريت نبحث عن الليرات المتدحرجة فلم نعثر لها على أثر. هزّ الشيخ إلياس رأسه كمن يتوعدنا...

عدت أنا أتابع الكتابة والصبي الآخر غادر المكتب. لكني استأت من البادرة، بادرة الشك بنا. منذ صغري وقبل أن أصبح طالب حقوق كنت أنوفاً، أرفض أن توجه إليّ تهمة ساقطة كتهمة السرقة أو إساءة الأمانة.

بقيت في المكتب حتى الثامنة، وكنت أهمّ بالإقفال، فإذا بالشيخ إلياس عائد من بيته، ضاحكاً بوجنتيه الموردتين: يا أستاذ قال لي عدت من البيت لأعتذر منك ومن الصبي الآخر. لقد شككت أنكما أخذتما الليرتين، فإذا بهما في طيّة بنطلوني... أعتذر إليكما سامحاني.. لم أقل له شيئاً. ولكني أكبرت هذا التصرف اللائق. من يحترم كرامات الناس هو نفسه كريّم.

لحظ الشيخ أدمون أني أشرد أحياناً ذهنياً وفي معرض تقييمه لنشاطي أثناء وجودي في المكتب والعدلية قال لي يوماً: أنا مسرور منك لكني ألاحظ أنك كثيراً ما تكون شارد الذهن Distrait انتبه. هذه نقيصة بالنسبة للمحامي. يجب أن تتغلب على شرودك.

أما وجيه الحفار، فقد لفت نظري برصانته وتأنفه. كان بين الطلاب مختلفاً عنهم، في سلوكه وملبسه ومشيته. كان يتفرد بمزايا لم تكن واضحة عند أي من الزملاء بما فيهم شارل حلو. تقربت منه. كان ينزل في فندق على الزيتونة ويأكل في الفندق Pension Raphael. دعاني إلى الغذاء يوماً فكانت الدعوة مفتاحاً لأن نتعارف. وكنت قد تعرفت إلى عائلة الدكتور حنا باسيل من غلبون ـ بلاد جبيل، واستأجرت عندهم غرفة في شارع لبنان ـ وكان في الغرفة سريران، وكانت العائلة من مستوى أخلاقي واجتماعي رفيع. كنت قد استأجرت وحدي لأن جبرائيل فياض ـ كما أسلفت القول ـ لم ينجح في امتحانات نهاية السنة وانصرف إلى التعليم. عرضت على وجيه بعد أن تعارفنا وتصادقنا وبعد أن أسرّ إليّ أنه ابن أخ لطفي الحفار أحد أركان الكتلة الوطنية في الشام، ورئيس وزراء سابق، أن نسكن معاً، أخفف عنه النفقات ويخفف عني.

قبل ممتناً، وسررت أنا بقبوله. نتقاسم بدل أجار الغرفة، ثم نتعاشر كأخوين، فندرس معاً، ثم نخرج معاً، فلا تعود الحياة رتابة وسأماً.

أما عائلة باسيل، فكانت مؤلفة من آنستين وثلاثة شبان، أحدهم جورج يدرس الطب، والكبير ألفرد موظف والصغير شارل في المدارس الثانوية. أما الآنستان فإحداهما تدرس قابلة قانونية والأخرى تعلم في صفوف الروضة. الأولى ماري ديناميكية، متحررة، سريعة الخاطر والنكتة، في عينها بريق ساحر. والثانية انجال عفيفة القلب واللسان، هادئة، تكاد تكون من الملائكة، بوجهها الأشقر الطهور وابتسامتها الشفافة!

سرعان ما اندمجت أنا بالعائلة، ونشأت بيني وبين أهل البيت علائق ودّ. أما وجيه فكان بدافع من مكانة عائلته الاجتماعية والسياسية، جدياً، ما اندمج ولا حاول.

هذه السنة الجامعية الثانية كانت سنة الانفتاح على الناس، في المحيط الغريب الجديد. في طرابلس والكورة كنت قد ألفت الوجوه والأشياء. أما في بيروت فقد كنت أحسبني ضائعاً ـ مستغرباً غير قابل للتدجين. كان جبرائيل فياض مستودع أسراري، نقضي أوقات الفراغ معاً أكثر الأحيان، نتشاكى ونتشاور و. . . . نتجادل وأحياناً نتشاحن. . .

أما في العام الثاني فقد دخلت معركة الحياة في أشكالها المختلفة والحضارية، بين المعهد والكنيسة والمقهى والغرفة. . . ومعاشرة الناس بلا كلفة ولا صنعة. . .

كان فؤاد سليمان يأتي إليّ أحياناً وأحياناً يجتذبني إلى رأس بيروت، أصغي إلى رسائل غرامه ومحاولاته الأولى، ويصغي إلى انتقاداتي، أقسو عليه في النقد فيقسو عليّ في الرد.

لا أنكر أن علاقاتي بماري باسيل (التي أصبحت الآن جدة كما أنا جد) تطورت بسرعة، بل رحت أشعر نحوها بميل غريب لا أظن أن له اسماً آخر غير الحب. رافقتها أنا وأخوها مرة إلى مدرستها، وكانت في الخندق الغميق أيضاً، فلما أصبحت خلف الباب وقضبان الحديد أرسلت إلينا قبلة، فكتبت في مجلة المعرض مقالاً عنوانه: سجينة وسجين. من يعود إلى هذا المقال يستنتج حكماً أني كنت على وشك الوقوع في الشرك. . . الحبيب.

إلا أن تاريخي الغرامي الساذج، استكملت هنا حلقاته. فقد كنت أمازحها وأداعبها بالشعر والكلام المعسول. ولكني ما قلت لها يوماً: أحبك كما لم تقل لي

هي: أحبك، ولا حاولنا أن يستدرج واحدنا الآخر إلى البوح. وبقيت صداقتنا صداقة بريئة حتى غادرت دارهم... وتزوجت...

كانت مجالسنا في دار آل باسيل مجالس أنس وأدب، يشترك معنا فيها أحياناً وجيه الحفار، وأحياناً ينزوي أو يقصد أصدقاء آخرين لتمضية أوقات فراغه. هدوءه ورصانته وتأنيه كانت تلفت الأنظار، وتضفي عليه ستاراً شفافاً من الغموض. نجم الشلة الأدبية كان أحد أقرباء آل باسيل فيكتور خوري شاعر ومفكر ولغوي ضليع عليم. كان يحفظ للمتنبي والمعري وأبو النواس وعمر بن أبـي ربيعة وأكثر شعراء الجاهلية والعصر الأموي والعباسي بل كان يتقن مراجعة وترداد الموشحات الأندلسية، وقصائد الشعراء الذين بهروا الخلفاء والحلوات... في إسبانيا... كما يتقن حفظ الشعراء المعاصرين كان راوية وكان شاعراً ذواقة.

هذا الشاعر... مات... مات باكراً...

إلا أن مجلسه كان يطيل العمر، إذ يجمع بين الضحكة العارمة، والقصيدة العصماء... مجلس أدب وأنس ؟؟؟ كان مجلسه.

أما شعري فكان قد بدأ ينصقل ويتبلور. كبرت انفعالاتي فكبرت كلماتي. كنت أنظم في الغزل كما أنظم في الوطنية. وكان وجيه الحفار ذواقة من الطراز الأول. أسمعه شعري فيتجاوب ويترنح: «ستصبح شهيراً كان يقول لي... سأحملك إلى منابر دمشق.. أنظم قصيدة في الشهداء...» ستذهب وتلقيها باسم شباب لبنان أمام قادة «الكتلة الوطنية»... وستصفق لك الفيحاء الكبرى كما صفقت الفيحاء الصغرى.

أنا؟... أنا في دمشق، على منابر عاصمة النضال السياسي ضد فرنسا من أجل الجلاء والاستقلال والوحدة ـ فرصة العمر وفرحة العمر معاً ـ. طلة الطموح على مطامحه تحبو بين يديه جسداً حياً. بدأ الانفراج الكبير وانفتحت أبواب المجد أمام اليتيم المحروم والمغمور. وركزت الجسور بينه وبين الشهرة.

ولكن نظام معهد الحقوق والتعليمات الصارمة البالغة حدوداً لإنذار بالطرد كانت تحول دون ظهوري على منابر دمشق المعادية للانتداب ولفرنسا. كيف العمل؟ ورحنا أنا ووجيه ندرس الإخراج، فيما كنت منصرفاً إلى نظم قصيدتي في الشهداء.

واتفقنا لكي نستبعد الشبهات والريب عنا، أن نحضر معاً محاضرة الصف في الساعة الثامنة من يوم ٦ أيار ١٩٣١، ثم يتدخل وجيه مع لجنة تكريم الشهداء وكان يرأسها عبد الرزاق الدندشي، لوضع اسمي في مقدمة الخطباء، ثم نعود تواً بعد إلقاء القصيدة، فنحضر أيضاً صف الساعة السادسة مساءً.

وهكذا نؤمن الحجة القاطعة على عدم مغادرتنا بيروت. وجيه لم يكن ملحوظاً بين الخطباء، فإذا ذكرت الصحف اسمي أدعي أن هذا العبد الله القبرصي الشاعر في دمشق، هو غيري ولكن يحمل اسمي وكم من الأسماء تتشابه في لبنان.

وتوجهنا إلى دمشق بعد أن حضرنا الصف وسجلت أسماؤنا على لائحة الحاضرين. وبعد تفقد عائلته وبعض أصدقائه، وتناول طعام الغداء، انتقلنا إلى ساحة التكريم قرب مقابر الشهداء. كان منصوباً في طرفها الغربي منبر خشبي وسيع وقد رصفت الكراسي للجهة الشرقية واحتشدت الجموع من كل صوب فبلغ عددها الآلاف. وأقبل قادة الكتلة الوطنية وعلى رأسهم هاشم الأتاسي، وجميل مردم بك ولطفي الحفار ونسيب البكري، وفخري البارودي وهو الوحيد الذي كنت تعرفت إليه في بيروت إذ اشتركت في مشروع الفرنك الذي كان يرعاه لجمع التبرعات للكتلة الوطنية.

وافتتح المهرجان عبد الرزاق الدندشي، وهو وعلي ناصر الدين وفهيم خوري وفؤاد نكد وقسطنطين يني وصلاح بيهم مؤسّسو حزب عصبة العمل القومي في لبنان، وما أذكره من خطابه الذي كان موجّهاً إلى قادة دمشق هو دعوتهم إلى تغيير سياستهم، وتصعيد النضال ضد المستعمر.

من بعده مباشرة، نودي عليّ. أخذت بضع دقائق لشق طريقي إلى المنبر. فلم يكن يعرفني أحد ولا أحد سمع باسمي، كنت قد حفظت قصيدتي، غيباً، فألقيتها بصوت جهوري وحماسة المؤمن... حصدت انتصاراً كبيراً إذ قوطعت في كل بيت بالتصفيق والهتاف. لم يكن يحلم السوريون، أن لبنان الذي يعتبر فرنسا أمه الحنون، يضم تحت جناحيه فتياناً مسيحيين وطنيين استقلاليين ثوريين...

أما مطلع القصيدة فهو (وهي منشورة في مجموعتي الشعرية وحي الظلام):

رجعنا إلى أقداسكم نقطع المهدا وعدنا على أجداثكم ننشر الوردا
وفي كل عين دمعة لا نمسحها لئلا تفيق الغيظ أو توقظ الحقدا

ما أن انتهيت حتى سارع الناس لفتح طريق لي، وبعضهم هجم عليّ يقبلني في شعري والآخرون في كتفي. وتقدم بضع خطوات هاشم الأتاسي ليعانقني والدمعة في عينيه أما فخري البارودي فقد لاحظت أنه أخذ منديلاً وراح يمسح دموعه ويشهق فيما كنت ألقي القصيدة.

تقبلت التهاني في لحظات، ثم ودعت وانصرفت. كان وجيه كالنشوان فرحاً بما أحرزنا من نجاح باهر.

وقفلنا راجعين إلى بيروت فوصلنا الساعة السادسة وبضع دقائق. كان الأستاذ فرّان يحاضر فاضطررنا لاستيقافه، ليسجل اسمينا وإن متأخرين ففعل. سجل إذن اسمنا على لائحة الحضور صباحاً ثم على لائحة الحضور مساءً.

صحف دمشق العربية تحدثت عن القصيدة بحرارة وإعجاب (منها جريدة الأيام) وجريدة لاسيري الفرنسية في بيروت كتبت عنها قائلة: وإن شاعراً لبنانياً يدعى عبد الله قبرصلي ألقى قصيدة وطنية.

ما دريت بكل هذا إلا بعد أيام. إذ دعاني الأب موتارد مدير معهد الحقوق، وهو جاهم الوجه، جدي النظرة إليّ وطرح عليّ السؤال التالي:

الأب: ألم ينذرك المعهد بعدم كتابة المقالات أو إلقاء الخطب السياسية؟

أنـا: أجل، وقد تقيدت بالإنذار حتى تاريخه.

الأب: كيف إذن تذهب إلى دمشق وتلقي قصيدة على قبور الشهداء؟

أنـا: أستغرب هذا القول، فقد كنت أتابع الحاضرات في المعهد وأمامك لائحة الحضور والغياب يمكن أن تراجعها.

الأب: وهذا العبد الله قبرصلي المذكور اسمه في جريدة لاسيري أليس أنت؟

أنـا: ضحكت مستغرباً. أنا عبد الله قبرصي يا أبـي لا عبد الله قبرصلي، عائلة قبرصي من لبنان أما القبرصلي فهي من سوريا، ثم أنا لم أنظم في حياتي شعراً، ولغتي العربية ضعيفة جداً.

الأب: يتأمل ملياً لائحة الحضور والغياب. ألفته إلى أن اسمي وارد في الصباح وفي المساء فكيف أكون في بيروت وفي دمشق في آن معاً.

تبسم الأب الجليل وقال: أعذرني يا ابني فقد شككت بك ظلماً.

وخرجت أكاد أطير فرحاً لأني اجتزت «القطوع» المخيف بل المرعب. **كانت أول دعوى ربحتها احتيالاً.**

رحلـة إلـى أرز الـرب ـ آب ١٩٣١:

الحر في شهر آب يهاجم شواطىء سوريا الساحلية، فيحرقها حرقاً، وفي شهر آب وأنا مريض بالملاريا يصل إلـيّ فجأة من دمشق وجيه الحفار ومنير الدسوقي وأنا في دده، لا بيت لي يأوون إليه ولا قرية تليق بمقامهم. وقعت في حيص بيص. ما العمل؟ كان موقفي حرجاً. قررت أن أذهب معهم إلى الجبل. إلى إهدن وبشري وأرز الرب. ولكن من أين المال. خالي حنا يبخل بالمال علـيّ لدفع أقسـاط المـدرسـة فهـل يتكـارم علـيّ بـه لشـمّ الهـواء؟... هـل أنسـى رحلـة اللاذقية؟...

عندي في دده معصرة. وكان قد وصل إلى الضيعة من كوراساو، حيث يغترب أبـي منذ سنين طويلة. السيد موسى راشد، المتزوج من السيدة كتر الصايغ شقيقة زوجة عمي ميخائيل القبرصي. تركت وجيهاً ومنيراً في بيت خالي، يتحدثون إلى الحاضرين، وتسللت إلى بيت موسى راشد، شكوت له حالي. «لدي ضيوف من الشام، رفقاء أعزاء على قلبي، ويجب أن أصحبهم إلى الأرز، لأني تعهدت لهم ونحن في بيروت أن أفعل إذا ما جاؤوا لزيارتي في دده. . . إني أعرض عليك تأجيرك معصرتي لمدة سنتين لقاء ست ليرات ذهبية. . . كان موسى راشد طويل القامة، جميل الطلعة، بسيط المظهر، يحبني كثيراً. . . لم يرفض طلبـي. وقعت عقد الإيجار ونقدني الست ليرات ذهبية. كدت أن أنطح الثريا. . . ست ليرات ذهبية في جيبي. والأرز في متناول يدي!.

ابن عمي جرجس كان قد اشترى سيارة فورد جديدة، قصدته لينقلنا وحدنا إلى إهدن كمرحلة أولى. قبل. . . فركبنا سيارته وانطلقنا. كانت الحرارة تنخر عظامي ولكن لا أبالي. لقد نفذت تعهدي وليحدث ما يحدث وصلنا إلى إهدن باكراً، وقصدنا نبع مار سركيس الذي كنت أسمع اسمه دون أن أحظى بجلسة على مشارفه، وبجرعة ماء باردة من مياهه المتدفقة. أنا المريض ماذا سيحل بـي، إذا شاركت ضيوفي بأكل الكبة النية، والتبولة والفراريج المشوية، لا بد لي من العرق الإهدني الحامي؟ ليحل بـي ما يحل. أنا بين أصدقائي، لا بد لي من المشاركة.

ليس في العالم أجمل من موقع مار سركيس، ولا أطيب من مياهه وطعامه. تجلس في رحابه، فإذا أنت على أقدام جبل شاهق، يقابلك بوداعة اللبناني الكريم، رغم علوه وأمام ناظريك الوادي المقدس والضفة الأخرى من الجبل وقد اكتسى اخضراراً وبشاشة.

أما عن المآكل، فحدث ولا حرج.

يجرفك الجو الأنيس في نبع مار سركيس كما تجرف مياهه الحصى في زخمها المتلاحق. جرفني الجو، فإذا بي التهم الشراب والمأكل كواحد من الأصحاء. لعلي زايدت على الضيوف إكراماً للضيوف.

ما وجدنا مأوى في إهدن، فانصرفنا إلى بشري، إلى أوتيل الشيخ شبل عيسى الخوري. نزلنا فيه لا يعرفنا أحد. كان معي ميزان الحرارة. وغرفتي وسيعة ومنعشة. ما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى دارت بي الدوائر. ما سيحل بي أنا المحرور وقد التهمت الطعام والشراب بلا حساب ـ تعبت من الوساوس والهواجس ورحت بعد قليل أغطّ في سباتٍ عميق... لعل الخمرة خدرت حواسي، فما استسلمت هذه للخوف بقدر ما استسلمت للرقاد...

دخلت حبال الشمس من شقوق النوافذ الخشبية، كما بهاؤها من طاقات صغيرة في أعلى الجدار. الجبل عندنا جنة الجنات. ما هي إهدن إذا لم تكن عدن، حيث النعيم المقيم. وها هي بشري جارة الأرز وحامية ذماره؟ وها هي الملاريا التي كنت فريستها في دده، تهاجمني بالحرارة العالية، فتفكفك أسناني من البرد ـ حرارة وبرداً، لعلها أعجوبة الأمراض. أليست الملاريا في ترجمتها الصادقة، الهواء الفاسد؟ وما علاج الهواء الفاسد إذا لم يكن هواء جبلنا النقي المنعش!.

أفقت متثاقلاً. استيقظت حواسي ومعها وساوسي والهواجس. ميزان الحرارة إلى جانبي فلينطق الميزان ولتسكت الوساوس. ونطق الميزان بعد دقيقتين: الحرارة طبيعية. يا للعجب العجاب. ماء جبلنا ومآكل مار سركيس ومشربه فعلا أكثر من العقاقير. إلى الجحيم أيتها الكينا المرة، وأيتها الإبر المزعجة... يا لهوائنا العليل سيد العقاقير ورب المعجزات ـ نسيمنا الشمالي النقي يقول للمرض طِر فيطير...

خرجت مقهقهاً من غرفتي لأطرق باب وجيه الحفار ومنير الدسوقي. كانا قد

أفاقا. زففت إليهما البشرى بشفائي... ذهلاً كيف تجرأت على مرافقتهما والحرارة ملء بردي.

السيارة جاهزة فلنصعد إلى الأرز، ولنزر مغارة قاديشا. ولنعد إلى حصرون وحدث الجبة... لا يجوز أن تفوتنا عين الوردة، ولا غرقيا ولا دواليب بشري، ولا شربين الحدث... وراح أرز الرب يتلقانا في ظلاله الظليلة كأنما نحن عصافير من الجنة جئنا نحمل إليه البركة ومن بركاته نتلقى... ما تركنا لا أرزة لامارتين، ولا أية أرزة بدون اسم ولا مسمى... نقرأ هنا أسماء وتواريخ... ونقرأ هنالك أخبار الأزمان التي انصرمت، بعضها على التراب وبعضها معلّق على الأغصان الهرمة، والآخر دفين في الأرومات الضخمة، في تضاريسها أو جوفها المحفور بيد الطبيعة، أو بيد الإنسان.

يا الله كم كان ذلك اليوم بديعاً. يوم أحد والعرائس يخرجن من كنيسة الرب طهورات كمريم العذراء... وكوم الزوار مشرورة تحت الأشجار الوارفة الظل، يسلخون جلد الذبائح، ويزدردون لحمها في ما بعد نيئاً أو مشوياً... ورائحة العرق تملأ الجو، وتنتشر مع أصداء جرس الكنيسة المترنح، يكاد الأرز أن يخفيه في تلابيبه، فلا تنزل أصداؤه إلى قلب قاديشا لتردد مع صلوات النساك الأبرار أشباحاً وتاريخاً.

من الأرز إلى المغارة لنشاهد المياه الجارية تتدفق من قلب الجبل حنونة حنان خريرها الهادىء الشجي. وسقفها مزدان بعناقيد المياه التي صارت مع الزمن شموعاً مضوية. ندخل إلى آخر المغارة، حيث تقف الأنوار. ندخل كأنما نشق قلب الدهور السحيقة. من يدري كم عمر هذه المغارة وكم شاهدت من أجيال، وقطعت من مسافات، فوق الأرض وتحتها؟...

ثم نعود إلى بشري. نتذكر أنا ووجيه اسم رفيقنا في معهد الحقوق إميل حنا

الضاهر. والده قائمقام الكورة وهو من المقدمين الذين ذكرهم جبران في عواصفه وأجنحته المتكسرة. نسأل عنه. يلتهف باستقبالنا. يدعونا إلى زيارة شلالات شركة قاديشا المولّدة للكهرباء. من نجد هنالك؟ المهندس رزق أندراوس، اليتيم الذي استلبني جائزة وليم ملوك، وراح يدرس على حسابي في مونبليا في فرنسا، الهندسة الكهربائية. تلاقينا أخوين. نسيت أنا فاجعة حرماني الجائزة. نسي هو أنه السالب وأنا المسلوب. دقائق والذبيحة عالقة على غصن شجرة منيع. دقائق اللحم النيء والمشوي جاهز. ويا لعرق بشري كم يشابه عرق إهدن وكلاهما شقيقان لعرق الكورة... لا يخجلان من عرق زحلة والباروك إطلاقاً.

ما خف إعجابنا بجبال الشمال، ونحن في حصرون والحدث. عين الوردة وغرقيا وشربين الحدث مضيافاً كاحن ما يكون الأرز ومار سركيس ضيافة وذوقاً ولطفاً ووداً...

ونعود إلى دده، ليذهب منها في اليوم نفسه الصديقان الحبيبان إلى بلاد الشام... إلى دمشق الفيحاء ولأتلقى بعد أيام من وجيه الحفار رسالة شعرية، فيها من الأدب الجبراني ـ النعيمي ما حفزني لأنظم قصيدتي في الشمال وهي المنشورة في مجموعتي الشعرية «وحي الظلام» ومطلعها:

خلِّ قلبي من ذكريات الشمال   عن يمين خياله وشمالي

عود على بدء:

في مقهى الأنجا في طرابلس.

السياق الزمني ليس مفروضاً عليّ لأني لا أكتب التاريخ لأكتب بدقة المؤرخ. إني أروي ذكرياتي فإذا كنت أعود إلى عام أو عامين عبرا، فلكي لا تفوتني «الأحداث» التي أثّرت في مجرى حياتي أو التي ترتدي اللباس الروائي القشيب.

أعود إلى طرابلس يوم كنت مديراً لمدرسة الروم. قرأت عن مسرحيات تمثلها فرقة يوسف وهبي على مسرح الأنجا. وكنت قد قرأت عن يوسف وهبي الكثير من المقالات وأكثرها إطراءً له وتبجيلاً. فقررت مهما كان الثمن باهظاً أن أحضر إحدى مسرحياته. ووقع اختياري على «كرسي الاعتراف».

أخذت مقعدي في وسط القاعة لأسمع وأرى بوضوح.

وبدأ التمثيل في الوقت المحدد. سجلت نقطة جيدة ليوسف وهبي لأنه تقيد بالموعد، لأن حفلاتنا في العالم العربي، لا تحترم الوقت، في أكثر الأحيان.

ورحت أعلق أنفاسي لأتابع. ما كنت بعد حضرت ولا فيلماً سينمائياً من أفلام ذلك الزمان الصامتة، ولا كنت قد خبرت التمثيل إلا في المسرحيات المدرسية في الشمال، فأخذت بكليتي بالديكور، والملابس، والوجوه ونقاء الصوت... ورحت أتابع... ملهوفاً، مسروقاً، مبهوراً.

ما أن بلغت العقدة ذروتها حتى كنت أشهق بالبكاء. كيف لا يبوح لكاردينال باسم القاتل الحقيقي فيما أخوه متهم وسيصدر عليه حكم الإعدام وينفذ الحكم به شنقاً.

إلى أن سوّلت له النفس حيلة لا توقعه تحت طائلة البوح بسر الاعتراف فنجحت وأفرج عن أخيه ووقع القاتل الحقيقي في الشرك...

يوسف وهبي وأمينة رزق ومحمد رياض كل الممثلين أذهلوني. لأول مرة أشهد مسرحية بهذا الجمال. وأشاهد تمثيلاً بهذه الروعة. أحسست بأني واقف على باب الحياة، أقرعه بعنف، لعله يدخلني في ملكوته.

كم ساورتني النفس تلك الليلة أن أسعى إلى أعتاب يوسف وهبي أقدم له تحياتي، وأتوسل إليه أن يقبلني في عداد فرقته، كنت أظن أن تمثيلي المدرسة لتحفة كورنيل (السيد Le Cid) ونجاحي فيها يؤهلاني لأن أكون ممثلاً

«عالمياً» . . . إلا أنني لجمت نفسي بالنهاية، لأن العصافير لا تصبح نسوراً بين ليلة وضحاها. إن دموعي التي سفحت في كرسي الاعتراف كانت لاكتشاف ناحية جديدة في نفسيتي: والتأثر العميق بروعة الأداء فكأنما تشاهد أمامك واقعة لا تمثيلاً ـ أما الحدث الآخر، فهو هام لأنه برهان حسي على سذاجتي في مباذل الحياة ومجونها الغزائري الصبياني . . .

كنت قد عدت ناجحاً من معهد الحقوق، وقد حضرت في ملهى الباريزيانا على ساحة البرج حفلة غناء ورقص. وشربت الويسكي فدفعت ثمن الكأس فقط ستين غرشاً سورياً.

صادفت بعضاً من أصدقائي في الشمال، لا أزال أذكر منهم السكندر ضاهر من بيترومين، فتداعينا إلى سهرة في مقهى الأنجا في طرابلس، حيث الرقص والشراب . . . والنساء.

كنت أحمل من المال أقله، وكان اسكندر يقصد السفر في اليوم التالي إلى حمص للالتحاق بالمدرسة الأرثوذكسية فيها ومعه القسط المدرسي وثمن الكتب ومصروف جيب محدود.

فطلبنا الشراب ورحنا نتسامر. فإذا بحلوتين تعرضان علينا الجلوس معنا. هل يمكن لشباب مثلنا في صدورهم براكين الشهوة أن يرفضوا العرض؟ جلستا وبدأنا بطلب الويسكي والشامبانيا. قياساً على ما دفعت في الباريزيانا في بيروت، كان ما ادخرته في جيبي كافياً لسد النفقات. شربنا الكأس تلو الكأس فثملنا فلم نعد نحسب للكؤوس عدداً ولا ثمناً . . .

لم نراقص الحلوتين، ولا نحن قبّلناهما، حضورهما وحده أضفى على الجلسة ما يضفيه حضور المرأة الجميلة في رهط من الشباب المتعطش للجمال . . .

وجاء وقت الحساب.

المبلغ بالليرات الذهبية: خمس ليرات.

والميزانية في جيبي وجيب اسكندر ضاهر لا تتجاوز الثلاث.

العجز ليرتان عثمانيتان ذهباً.

كان المير مصطفى الأيوبي العائد من كوراساو ـ حيث أبي مقيم ومغترب ـ قد أهداني قلم حبر مطلياً بالذهب ثميناً ونادراً في ذلك الزمان. فدفعته «للغارسون» مع ما في الجيب وقلت: إني عائد لتوي لأسدد الباقي. «ارتهن هذا القلم بانتظار عودتي»... ورحت في ذلك الليل أعدو إلى منزلنا، حيث حملت ما تبقى في ذمتي وعدت وأنا ألهث من الركض. دفعت واسترجعت القلم وفي قلبي غصة: هل تبلغ بي السذاجة هذا الحد؟ ألا أفكر أن للحلوتين تجلسان بقربي ثمناً أغلى من ثمن الباريزيانا حيث الحلوات على المسرح وأنا في الصالة وحدي أتحرق اشتهاءً.

حفلة تأبين الأرشيدياكون مخائيل الحاج (بترومين):

مرّ في سياق هذه الذكريات، اسم جرجس الحاج وأولاده ومنهم الأرشيدياكون مخائيل كان يدرس اللاهوت في اليونان، ثم انتقل إلى جامعة السوربون في باريس لدراسة الحقوق الكنسية Droit Canonique. كانت لنا معه جولات صاخبات حول الدين والسياسة. فجأة وردت برقية من السيد رفيق البراج، رفيقه في السوربون، تنبىء بوفاته أثر مرض التهاب الرئتين. البرقية وردت لمكتب جريدة الحوادث.

فأبلغها إلى أحد أصدقائي وكلفت أنا بإبلاغ والده المفجوع. ما أصعب هذه المهمة ـ أن تبلغ أباً عن وفاة ابنه الذي كان قد أنفق على تعليمه كل ما يملك، وعلق على عودته مظفراً الآمال الكبار.

ولكني قبلت المهمة، واصطحبت معي عدداً من الأصدقاء وقصدنا منزل

الخال جورج الشيخاني في حارة النصارى. وهنالك قرأت البرقية بصوت متهدج، بعد أن هيأت الأب المفجوع لتقبل الخبر الفاجع.

أقمنا مأتماً كبيراً للأرشيدياكون مخائيل في بيترومين، وأبّنه عدد من الأصدقاء شعراً ونثراً وكنت أنا في عدادهم. كان مطلع قصيدتي:

وإن هصرتك الريح في الجو طائراً تلقتك هذي الأرض باللهفة البكر

وتنادينا نحن شباب الكورة (كان ذلك سنة ١٩٣٢) بعد أن نلت شهادتي واتفقنا أن نقيم حفلة تأبينية للفقيد الكبير، وأخذنا أنا والأستاذ موسى سليمان الذي كان قد أصبح معلماً في الجامعة الأميركية نضع البرنامج وننتقي الخطباء. وقع اختيارنا على الشيخ مصطفى الغلاييني الذي كان قد اشتهر كخطيب كبير وكرجل دين وقور وأديب وعالم وكذلك على الأرشمندريت بوليس الخوري الذي كان رفيقاً للفقيد في أثينا، وهو الخطيب الشهير ببلاغته وتدفقه ليتحدث عنه كإكليريكي وطالب لاهوت.

لم أكن بعد مغموراً، فقد عرفتني الأوساط الوطنية بعد قصيدة الشهداء في دمشق إلى أن بلغت إخباري عبد الحميد كرامي قائد الحركة الوطنية في الشمال. رافقني إلى زيارته ياسر الأدهمي أحد أركان حزبه ومحرك الشباب الوطني، آنذاك فإذا بالأفندي وقد سمع قصيدتي يقول لي:

تتعلم في اليسوعية وتنصب مدافعك لتدك معاقلها و...

بعد تدبير الخطباء، انكببنا على تدبير الحضور، فطفت مع موسى على رجال الدين، بعد أن أمّنت حضور الأفندي، لتكون الحفلة تحت رعايته. وبالفعل احتشد عدد كبير من الكورانيين والطرابلسيين في قاعة الباروكي Perroquet لصاحبه ميشال حكيم الذي قدمه لنا كرماً منه، وذلك في ٨ كانون الثاني ١٩٣٣.

وقد ألقى الأرشمندريت بولس الخوري، مطران صور وصيدا وتوابعها حالياً خطاباً ثورياً في تأبين صديقه ورفيقه، نقتطف منه هذه الفقرات:

على قمة جبل جميل ينبعث من صنوبره وسروه أريج الزهد والتنسك دير قديم العهد أنشأ فيه أول بطريرك عربي لأنطاكية مدرسة إكليريكية. ومن تلك المدرسة الوطنية التي علمتنا العلم الصحيح والدين الصحيح بلغتنا أخذنا محبة اللغة العربية ومحبة الوطن العربي. . .

في أثينا قضينا ثلاث سنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦، وما زال مخائيل يكد ويجتهد حتى نال شهادة كلّية اللاهوت ولا يعلم المشقات التي يقاسيها طالب العلم في بلاد غريبة غير من قاساها.

في أثينا الإنسان ولادة ثانية، يتعرف إلى نفسه من جديد فيعرف أن له شخصية مستقلة وحرية شخصية. أساتذة اليونان في جامعة أثينا يعلمون تلاميذهم أن يحب كل منهم وطنه. والأرشيدياكون مخائيل ازداد حباً لوطنه في أثينا. رجل الدين في أثينا يتقاضى راتباً معيناً ويعيش عيشة منظمة فلا يحتاج إلى مد يده للاستعطاء من الشعب. هذا زاد في مخائيل علوّاً وأنفة. رجل الدين في اليونان هو من حمل علم الثورة على الاستعمار ونادى للحرب في سبيل استقلال بلاده. وهذا قوي في نفس مخائيل الشعور القومي والعزة القومية.

ومما يجدر بالذكر أن الشيخ مصطفى الغلاييني قفز إلى المنبر إثر انتهاء الأرشمندريت بولس من كلمته، وقال: إنني لا أنتظر دوري، فقد هزني كلام الأب بولس الخوري هزاً. . . وراح يجول جولات موفقة في واجب رجل الدين تجاه وطنه وشعبه. ما كان الشيخ مصطفى يقل ثورة عن الأرشمندريت بولس الخوري. فأن رجال الدين الثوار على المظالم وعلى الجمود والتحجر كثيرون.

حفلة الشهادة ومقاطعة بيت عمي:

وقدمنا امتحانات الليسانس بالحقوق. وأجرتها لجنة من كبار أساتذة معهد

ليون الفرنسي، ونحن فرع منه، نحصل منه على شهاداتنا ممهورة بتوقيع وخاتم وزارة المعارف الفرنسية. لم يحصل ما يعكر صفو الخاطر، فقد كنت أحفظ الدروس، وأصبحت أعي مضامينها، وأتطيب الغوص فيها مهما كلف من جهد وعناد وطويل صبر. فزت مع معدل جيد. وحدد موعد حفلة الشهادات يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٢ في قاعة الاحتفالات في الجامعة اليسوعية.

أرسلت برقية إلى خالي حنا. وأنستني فرحة النجاح باقي الأقرباء، وأكبرهم سناً عمي مخائيل القبرصي وزوجته لولو الصائغ في طرابلس اللذين كانا قد وعداني بشراء روب المحاماة والمكتب. التنافس بين آل الزاخم وآل القبرصي كان لا يزال على أشده إن لم يكن في العلن ففي الخفاء. لا يجوز أن يستغل شرف حضور الشهادة آل الزاخم وحدهم كأن عبد الله قبرصي صار زاخميّاً.

وجرت حفلة تسليم الشهادات ببساطة، ولكن بحضور أهل الفائزين والأساتذة وممثل عن الحكومة برعاية الأب رئيس اليسوعية الذي لا أذكر اسمه.

كنت أنا ووجيه الحفار لا نزال في غرفة آل باسيل. صرنا عائلة واحدة والطريق إلى قلب ماري مفتوح ولكن لا أجد الشجاعة لسلوكه. هل أحبها حباً أفلاطونياً آخر. أم أسعى للزواج منها. كيف أتزوجها وأنا لا أزال تحت الوصاية؟ أقتحم المحاماة فأقتحم المجهول... لم أبح ولا هي باحت. فبقي ما بيننا طي الكتمان حتى كتابة هذه الذكريات... هي الآن جدة وأنا أيضاً جد...

آل باسيل الذين رافقوا سنتين من نضالي المرير في سبيل العلم، أدخلوني عالم المحبة والأنس وعرفوني إلى أصدقائهم وأهلهم وشجعوني على الاندماج بالآخر، كانوا أولى الناس بأن يشاركوني فرحة الشهادة في قريتي دده. حملت ماري وجورج إلى طرابلس الفيحاء، إلى بيت خالي... وصلنا ليلاً، فإذا بالخال وامرأة الخال وقد أعدوا لنا شهي المآكل، فرحين مهللين بالشهادة. إنها تتويج حياة من الشقاء والحرمان والصبر. بعد العشاء قررت الصعود إلى القرية.

كنت أريد أن أشرك جدتي وخالتي وأعمامي وخاصة حنا طنوس القبرصي وأخوالي وأهالي قريتي في الفرحة الشهادية. توجهنا ليلاً كلنا في سيارتين إلى دده. وعند باب الرمل ـ مدخل طرابلس الغربي ـ الشمالي توقفنا لنصحب معنا طبلاً وزمراً وبالفعل اصطحبنا ـ إذ كنا سيارتين ـ ضارب الطبل ونافخ الزمر وما أن وصلنا إلى بيادر الضيعة، حتى قرع الطبل قرعاً قوياً، فإذا بالنيام يستيقظون... مجللين بالبياض... شاهدت خالتي بسمة حافية، لقد كانت نذرت أن تمشي هكذا من دارها إلى دار خالي. كما شاهدت الكبار والصغار من أهل قريتي يطربون ويهزجون. بيت خالي وسيع والطقس لا يزال يساعد. كان صاحياً بعد شتوة خريفية معقولة. أجلست في الصالون كالعريس تماماً ومن حولي الضيوف «الأغراب» آل باسيل. وبعض الشيوخ والعجائز، أما الشباب والشابات، والأولاد والأطفال فملأوا الدار والبهو الخارجي والطريق العام، والدبكة آخذة مجراها والأغاني والأهازيج... تحول يوم شهادتي إلى مهرجان... بين ١٨ قرية في القلع، كنت أول الحائزين على شهادة الحقوق. كانت هذه الشهادة وقفاً على أهل أميون وبشمزين وكوسبا وكفرعتا وبطرام... لقد رفع القلع رأسه. أصبح لديه «محاميه»... هكذا نفكر في القرى!.

ما كنت طوال حياتي أتجرأ على الاشتراك بالأعراس والأفراح دابكاً أو راقصاً. كان يتملكني الحياء لنحافة جسمي وقصر قامتي... كان قد اشتد ساعدي معنوياً، ولكنه بقي على ارتخائه مادياً... فأجبرني الأحبة على الدبكة والرقص في تلك الليلة البهيجة. يمكنني القول أني أخذت شهادة المحاماة وفي الوقت نفسه، شهادة «دبيك» و «راقوص»، على لغة أهل الكورة بل أهل لبنان...

بقيت الفرحة ثلاثة أيام متواليات. كل أهل القرية اشتركوا في ذبح الذبائح وطهي المآكل وخدمة المهنئين. حنا طنوس القبرصي كان يحمل على ظهره الماعز والغنم ليذبحها ويعلقها أمام الدار. وللإنصاف أذكر أن خالي بل أخوالي وعائلاتهم

بذلوا بالغ الجهد لتكون الحفلات سخية ومسعدة. جدتي نسطة وخالتي بسمة وخالي أنطونيوس وزوجته أمان وعمي حنا وزوجته حبّوبة كانوا في عيد سعيد يعملون على خدمة المهنئين.

في اليوم التالي، نهار الأحد... ذهبت إلى القداس. الخوري يعقوب، كاهن الضيعة، كان يعتبرني كواحد من أولاده. كان قداساً احتفالياً... وبعد الانتهاء منه توجهنا إلى بيت خالي حنا في موكب طويل. كنت قد عرفت أن عمي مخائيل وامرأة عمي حردانون لعدم إرسال برقية إليهما وهما موجودان في بيت ابن عمي جرجس.

فأرسلت إليهما الوفود معتذراً فلم يقبلا الاعتذار. عند خروجي من الكنيسة مع ضيوفي كان الطبل حسب تقاليد الأعراس، يضرب أمامي والزمار يزمر. لم تكن تكتمل فرحة في القرى ـ وقد لا تكتمل حتى الآن فرحة ـ دون طبل وزمر. شاهدت عمي وزوجته أمام الدار المواجهة للبيادر، فأمرت الطبال أن يسير باتجاههما. قلت في نفسي لا بد من استرضائهما. إلا أنهما كانا حاقدين، فما أن شاهدا الطبال وأنا وراءه وجمهور المحتفلين من أهل الضيعة والجوار حتى هرولا رافضين، فطلبت من الطبال أن ينحرف باتجاه بيت خالي. لم يكن هنالك بد من تعميم الفرحة. بقي عمي وزوجته ومعهما من يتحزبون لهما، خارج المآدب و... الحفلات وفرحة الشهادة العارمة.

أطرف ما جرى في تلك الأيام السعيدة حادثتان:

١ ــ جلب الزجالين من حصرون.

٢ ــ والأمراء الأيوبيون يهنؤون.

الزجل في لبنان من أطرف ما فيه أنه التصق بحياة الناس. لا يهزهم الشعر خصوصاً إذا كانوا أميين ـ كما يهزهم المعنّى والقرادي، وألوان الزجل المتعددة.

لذلك استجبت لمن اقترح عليّ، استقدام شاعرين زجالين من حصرون. لا أذكر أسماءهما، إلا أنهما أضفيا على الحفلة رونقاً. أسكت الناس الطبل والزمر وراحوا يتحاشرون ويتدافعون للإصغاء للشاعرين، ولإطلاق الرصاص كلما أجادا وصفاً أو مديحاً. أنا نفسي يطربني الزجل. كان يطربني بأشكاله وألوانه البدائية لعدم نضج ذوقي الفني ونضج نظرتي إلى الجمال في الشعر، أما اليوم فيطربني منه، ما خاطب العقل والقلب، وألهب مشاعر الجماهير في الحب والوطنية والأخلاق والوصف الرقيق. فأنا مغرم بأسعد سعيد وطليع حمدان وزغلول الدامور وسواهم. لقد كان أميرهم وليم صعب من قدامى رفقائنا. أما اليوم فإنهم بدون أمير!

بقي الزجالان يتناظران، ويتسابقان إطراءً ومدحاً لأصحاب الدار والحاضرين و «عريس» الحفلة، ساعات والناس متحلقة حولهما، لا تضجر ولا تمل... والرصاص يلعلع عند كل مقطع هزاز للمشاعر.

أما نكتة المهرجان فكانت مقدم شيوخ الأمراء الأيوبيين وأكثرهم من الذين آكلناهم وشاربناهم، لأن قريتنا مثل في التآخي بين المسلم والمسيحي، رغم بعض النزوات... والاستثناءات.

جاءني هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم المير علي عبد الرحمن الأيوبي. وكان ابنه محمد رفيقي في البلمند والقلمون... وراح يخاطبني هكذا:

«يا أستاذ... فرضاً ايش اسمو ورايح جاي وغيرو إلى آخره، (فرحنا) لك فرحاً كبيراً فرضاً ايش اسمو ورايح جاي وغيرو إلى آخره، ونأمل منك أن ترفع رؤوسنا، فرضاً ايش اسمو... ورايح وجاي وغيرو إلى آخره... كانت هذه العبارة... فرضاً ايش اسمو... إلى آخره... لازمة في حديث المير علي يرددها بين الجملة والجملة. أنا لم أكن ألفتها، أو لم أكن (لاحظتها) من قبل. أصبت بما يشبه الهستيريا... أريد أن أضحك ولا أقدر احتراماً للأمراء. فأدخلت ظفري في جلدي ورحت أحزّ حتى أدميت هذا الجلد كي أتوجع. أقلع عن الضحك... وبالفعل ضبطت نفسي بهذه الطريقة، فما أن خرج الأمراء حتى

دخلت إلى غرفة النوم ورحت أبكي من الضحك حتى... كاد يغمى عليّ... ضحكت وضحكت معي ماري وجورج باسيل... حتى الاستلقاء هذه «الرايح وجاي وغيرو إلى آخره...» نكتة العرس، عرس الشهادة...

لا بد من استذكار العاقبة الوخيمة التي أصابتني من جراء حرد عمي مخائيل. فقد كان والدي مديوناً له بسند ببضع مئات من الدولارات، يدفع في كوراساو حيث كانا معاً، مؤرخ سنة ١٩١٤. كان قد بقي لي من أملاكي الوسيعة بيت من حجر مؤلف من طابقين... وما حوله من أرض. لم يكن قد انهار كما هي حاله الآن، فعمد عمي بواسطة أحد المحامين من أصدقائي رامز عطية (الذي أصبح قاضياً بعد بضع سنوات) إلى حجز هذا العقار في غاية بيعه بالمزاد العلني. لم يكن قد صدر بعد قانون تنفيذ السندات المالية عبر دائرة الأجراء، فاضطر عمي إلى إقامة دعوى إثبات الحجز في محكمة طرابلس. كانت إذن أول دعوى تسلمتها هذه الدعوى على والدي. وجدت نقطتين قانونيتين كفيلتين بردها. النقطة الأولى أن السند يدفع في كوراساو، ومحل إقامة والدي فيها، فليس لحاكم طرابلس حق النظر به. الثانية: أن السند مرّ عليه الزمن، فمات الدين واندثر...

ردت المحكمة الدعوى لعدم الصلاحية... فأدركت أن ليس من السهل التغلب عليّ، إذ كنت على حق... ولقنت عمي مخائيل درساً، أفادني فيما بعد، إذ تصالحنا... وعادت مياه القربى تجري في مجاريها الطبيعية... صالحته من موقع القوة والانتصار. كان يحبني فأصبح يحترمني. ويا للضعفاء كم يشقون بسبب ضعفهم أو استضعافهم.

في الطريق إلى المستقبل: في مكتب إبراهيم وفهيم الخوري:

جبرائيل لطف الله خلاط الذي قدمني إلى الأستاذ أدمون كسبار، هو نفسه الذي دلني على مكتب الأستاذين إبراهيم وفهيم الخوري. قال لي إنهما محاميان

معروفان. من بتعبورة الكورة، أحدهما إبراهيم يتقن الإنكليزية وهو خريج جامعات الولايات المتحدة الأميركية، وفهيم يتقن العربية وهو خريج الجامعة السورية في دمشق. ينقصهما محام يتقن اللغة الفرنسية. إذا تدرجت عندهم، يصبح المكتب مكتباً أنترنسيونياً. هتف قلبي للفكرة. فسارعت إلى اغتنام الفرصة، قبل أن أتسلم شهادتي، فقصدت المكتب وتحدثت إلى الأستاذ إبراهيم فرحب بي قائلاً بكل هدوء وكل بساطة: نحن بحاجة إليك، خذ شهادتك وتعال إلينا نسجلك متدرجاً عندنا ونتعاون. أما الأستاذ فهيم فكنت قد قابلته في العدلية القديمة تحت الشجرة فتحدثنا في بعض المواضيع العابرة ولم نتحدث عن التدرج.

بعد مهرجانات الشهادة. عدت وآل باسيل إلى بيروت. كان الفرح قد غمرني من رأسي إلى أخمص قدمي. كنت أسبح في الفرح. كنت أشعر أني محمول على بساط الريح، على بساط الآمال الكبار. حفاوة أهلي وأهل قريتي بشهادتي كبرتني في عين نفسي. شربنا حتى النشوة عند حنا طنوس القبرصي، ومن هناك اتجهنا إلى بيروت. في الطريق كانت ماري تجلس بيني وبين شقيقها. أنا الخجول، الحييّ، الخائف تجرأت أن أنام على ذراعها، وكانت قد مدته صوبي، كما مدت ذراعاً آخر صوب أخيها جورج. ثم قبلت يدها... وأنا المحمرّ الوجنتين كمن ارتكب جريمة. لم تكن تلك الجرأة مني عفوية. كنت قد شربت حليب السباع...

قصدت إذن مكتب الأستاذين إبراهيم وفهيم على الزيتونة ـ بناية السمطية التي فيها مكاتب جريدة الأحرار لصاحبها جورج صباغة وخليل كسيب، والتي كان يحرر فيها الشاعر الكبير إلياس أبي شبكة الذي صادقناه حتى التآخي أنا وفؤاد سليمان.

مقابلة قصيرة، فإذا الاتفاق تام. لا مساومات ولا شطارات. أتدرج في المكتب وأقبض ما تيسر. نتقاسم بالعدل ما ننتج.

المكتب مؤلف من غرفتين، إحداهما لإبراهيم والأخرى لفهيم، أنا ألجأ إلى

الشاغرة منهما. المهم أني وجدت مأوى، وأحسست أن الحاجة إليّ ماسة. ما أنا إذن بالزائد ولا بالضائع ولا بالمستجدي. من اللحظة الأولى، كانت قدماي على أرض صلبة.

كان الأستاذ إبراهيم محامياً عن السفارة الأميركية في بيروت وعبرها عن العديد من الشركات الأميركية وعن المغتربين الذين لهم أراض وأملاك ومصالح في لبنان، وعن اللبنانيين والشاميين الذين آلت إليهم تركات أقربائهم المتوفين في المهجر الأميركي.

كانت أكثر الدعاوى إذن من صلاحية المحاكم المختلطة، إذ كانت تنص قوانين التنظيم القضائي، أن كل دعوى فيها أجنبي، يعود حق رؤيتها إلى القضاء المختلط، المؤلف من رئيس ومستشار فرنسيين ومستشار لبناني... شرط أن يتقن الفرنسية طبعاً.

أما الأستاذ فهيم فكان محامياً باللغة العربية، يتقنها نثراً وشعراً. أما نثره فبليغ ولكن شعره فلا...

المكتبة كانت غنية بالقوانين العثمانية، فقانون الموجبات والعقود لم يكن قد ظهر، كما كانت أصول المحاكمات المدنية والجزائية وقانون العقوبات وقانون التجارة وسوى ذلك من القوانين الجديدة، تحت الدرس. القوانين العقارية كانت أخذت طريقها إلى التطبيق بعد أن بدأت عمليات المساحة الإجبارية تتحرك على صعيد كل لبنان، سواء منها الإلزامي أو الاختياري. التزم المساحة فرنسي اسمه ديرافور.

وكانت غنية بالقوانين الأميركية... أما كتب الحقوق الفرنسية فكان عليّ أن أستعيرها من مكتب جارنا الأستاذ إميل يزبك حيث كان يتدرج الأستاذ عبد الله اليافي أو أن أراجعها في مكتبة نقابة المحامين...

لا بأس أن أذكر أن أول دعويين رافعت بهما كانتا لواحد من قرية بمريم من آل الأشقر، والثانية لحنا نقولا داغر من بتعبورة، الأولى ضد الوكيل الأستاذ كميل إده وجان باز والثانية ضد معلمي الأستاذ أدمون كسبار. (لم يكن بعد قد أصبح نقيباً).

ما كان المكتب يعجّ بالموكلين مثلما يعجّ بالزوار والضيوف. علي ناصر الدين وصلاح بيهم وحنا غصن وخليل جريج والشيخ إبراهيم المنذر وأولاده صلاح وبديع وسامي ضاهر وتوفيق فرح ونجيب متري ويعقوب عون ووفود تلي وفوداً من منطقة القويطع أو من منطقة الكورة... أو من مناطق لبنان والشام القصية.

وجدتني في البدء غريباً عن هذا المحيط الجديد. فأنا ألفت محيط آل باسيل في شارع لبنان وطريق الشام، كما ألفت زوارهم وضيعتهم غلبون وضيعة أقربائهم سمار جبيل... إلا أنني انصهرت دون عناء، لأن إبراهيم وفهيم خوري متواضعان، ومفتوحا القلب لكل طارق بابهما...

كان من الطبيعي أن يدعواني إلى دارهم في رأس بيروت في ملك المحامي حبيب ربيز. فهيم كان قد قرأ عن قصيدتي في الشهداء في جريدة الأيام ـ وهو مشترك فيها ـ كما كانت أخبار تفوّقي في معهد الحقوق قد بلغت آذانه عن طريق جبرائيل خلاط وبعض زملائي في الصف. لايجوز أن أنسى جبرائيل خلاط من صانعي مستقبلي الكبار.

قبلت الدعوة:

كان في البيت والدتهم سكر ـ وهي شيخة آل العازار من أميون ـ وابنة أختهم جورجيت. العجوز كانت قديسة في كرمها ولطفها وإنسانيتها وتقواها، والفتاة راقية مثقفة حتى الهاي سكول رصينة حتى الجمود عندما قابلتها أول مرة. ظننت أنها مستكبرة مغرورة. ما كان جمالها خارقاً، بل كانت شخصيتها خارقة. لفتت

نظري عند أول نظرة إلا أنني تهيبتها بشيء من الحذر لأني لا أحب المستكبرين ولا المستكبرات. . . ولنتذكر دائماً أني خجول وأكثر من خجول. ولنتذكر أني قبّلتُ يد ماري باسيل.

بدأت تدريجياً أنسلخ عن عالم آل باسيل لأتعايش مع عالم رأس بيروت. عالم رأس بيروت محيط الجامعة الأميركية، محيط راق. ولنقل محيط خليط من الأنتلجنسيا خريجي الجامعات إلى جماعة الأميين من العائلات البيروتية المتفوقة في التجارة. . . تجد بين آل شاتيلا الطبيب والبستاني والملاك، يتقن استثمار أرضه، دون أن يتقن الألف باء في لغتنا العربية.

في البدء انحسر هذا العالم الجديد إلى مطعم جرجي سمعان الحداد، وعائلته وإلسي منزل إبراهيم وفهيم خوري في علاقاتهم الاجتماعية الواسعة، وإلى موسى سليمان وعفيف وفؤاد سليمان، وكانوا يقطنون على مقربة من آل الخوري، في دار آل ربيز. . . ومن ثم عائلة الأستاذ جورج اسكندر وآل فتوح (اسكندر وجاد نعيم ومراد. . . وصهرهم مخائيل الرويهب المحامي زوج نعيمة. ما أن تأقلمت وانسجمت مع عالمي هذا، حتى بدأت المشاريع. أولها كان تمثيل رواية أعطيت فيها دوراً رئيسياً ومثل فيها إبراهيم خوري وفؤاد سليمان وسواهم. كنت قد تدربت على التمثيل في دير البلمند ومدرسة الفرير. هكذا كانت طموحاتنا متواضعة.

في مطعم آل الحداد التقيت لأول مرة أنطون سعاده، الرجل الذي وجّه مصيري في ما بعد، بواسطة موسى سليمان. كان موسى قد تعرف إلى «الأستاذ»، ودخل في حزبه السري، ولمح في أحد أحاديثه معي في فيع يوم عيد مار سمعان ١٩٣٣، إلى نشوء حركة تدعو إلى وحدة سورية ولبنان. . . واستقلالهما. إلا أنه لم يطلعني على أي تفصيل. أذكر عندما التقينا أول مرة موسى وأنا وأنطون سعاده، كان هذا الأخير ملتحياً مما أثار فضولي ـ ولأقل سخريتي ـ لأنني لم أكن قد تعودت أن أرى رجالاً ملتحين إلا إذا كانوا كهنة أو مطارنة أو بطاركة. . . موسى سليمان

استدرك ما يمكن أن يسبب موقفي من عواقب وخيمة بأن قال على الفور: الأستاذ أذكى شاب في لبنان. فسكت وخجلت من نفسي.

كنت أحياناً أسهر في رأس بيروت في دار آل الخوري حتى الثانية عشرة ليلاً. وعندما أهمّ بالعودة إلى غرفتي في الأشرفية، أجدني لا أملك في جيبي خمسة غروش، أجرة الترامواي، فأضطر أن أمشي على قدمي ساعة على الأقل، ويهون الأمر، إذا كان الطقس صاحياً، فإذا أمطرت، كنت أبلغ الأشرفية وقد تساقطت حبات المطر عن جبيني وتبللت ثيابي كأنما أنا خارج من بركة ماء.

أما السهرات في دار آل الخوري ـ عندما لا يكون عندنا تمثيلية فقد كانت بالفعل ليالي أندلسية: شراب وشعر وسياسة وظرف... كانت السهرات مباراة بين الخوريين (إبراهيم وفهيم) وعلي ناصر الدين وصلاح لبابيدي وصلاح وبديع المنذر وحنا غصن وجورج سركيس وسواهم من رواد الدار.

وكانت تتسع رقعة السهر، إذا صدف وجود الأرشمندريت بولس الخوري، شقيق إبراهيم وفهيم، وقد كان وكيلاً لأبرشية جبل لبنان ـ الأرثوذكسية، إذ يستولي على الجو، بعلمه وخفة روحه، وطريف أخباره ونكاته... وسعة اطلاعه في الشؤون الدينية والسياسية والاجتماعية.

كان التعليق على دوري في تمثيلية «السلطان غوسمن» التي مثلتها بالاشتراك مع فؤاد سليمان وإبراهيم خوري، ميالاً إلى السلبية. كانت جورجيت ـ التي لا تزال على كبريائها والعنفوان قد علقت ساخرة أن دوري يوحي بالكراهية، لأني مثلت دور المستغل قوته لكسب قلب فتاة لا تحبه... كنت أمثل فعلاً دور الحب بالإكراه... فضلاً عن ملابسي كانت زرية، فدور ملك وكلسون أبيض مكان الدمقس والحرير كيف يأتلفان؟

أما قصيدتي في الشام ـ وكان فيهم خوري قد قرأ أخبارها في جريدة الأيام التي كان أحد مشتركيها في لبنان ـ فقد كان لها شأن آخر.

كانت عائلة الخوري الموسعة، بحضور الأرشمندريت، وحلقة الصحافيين والأدباء، قد شربت مريئاً وأكلت هنيئاً، فإذا بالأستاذ فهيم ينبري لي، مطالباً بأن ألقي قصيدتي في الشهداء... خجلت واحمرت وجنتاي... إلا أنني تجرأت أخيراً ووقفت وألقيت القصيدة... كان في عقلي الباطن، أن أثبت لجورجيت بربر، أن كبريائها في استقبالي ووداعي ليست في محلها... وكانت المفاجأة: عبد الله قبرصي شاعر!

في اليوم التالي استقبلت بحرارة حتى من جورجيت. أحسست أن قيمتي ارتفعت في بورصة الجماعة. كانوا يعتقدون أني مجرد متدرج، يتسقط في المكتب أساليب المحاماة على يد إبراهيم وفهيم، فإذا بالجماعة تشهد أن قصيدتي «رائعة» كما كان إبراهيم وفهيم يشهدان لي بالنجاحات التي كنت أحرزها في قصر العدل.

لم أتخلَّ عن آل باسيل. إلا أنني كنت أنتحل الأعذار لأبرر عدم ترددي على دراهم بين الفينة والفينة. درجت عادة سخيفة في بيروت عادة استحضار الأرواح ومناجاتها. وقع آل باسيل في الشرك وراحوا يستحضرون الأرواح. وصدف أن كان رفيق عمري جبران جريج في البيت عندهم فرحت أنا وهو نستحضر أرواح أحبائنا. أنا استحضرت روح أمي. وضعت يدي، ووضع يده في فنجان، بعد أن كتبنا على طاولة رخامية أحرف الهجاء، وراح الفنجان يتحرك بعفوية مشكوك في أمرها. فإذا أمي هي الحاضرة، وإذا بها تقول لي: ستلاقي مصائب كبيرة في حياتك... ما آمنت أن روح أمي حضرت، رغم أني آمنت بالمصائب التي تحققت متلاحقة عنيفة.

منذ صغري لا أؤمن بالخرافات. لا أرضخ إلا لما يقره العقل. إلا أن التربية والغرائز والرأي العام تضلل العقل في أغلب الأحيان، فإذا الاستجابة إلى الخرافات والغرائز والرأي العام والتطيرات، تأتي شبه عفوية شبه فورية، إلى أن يكشفها العقل، بعد لأي، فيتحرر منها الإنسان تحت سيطرته وقيادته.

ما آمنت باستحضار الأرواح . . . لا أؤمن إلا بما في داخلي . . . في وجداني من حقيقة . كل شيء يخرج من النفس، من الذات، ما عدا ذلك أوهام . . . بأوهام . . . والعالم مع الأسف يعيش بمؤثرات خارجية ويهمل عقله . العالم يعيش في الخرافات والأوهام . . . لدرجة أن الأوهام والخرافات صارت حقائق ثابتة، والحقائق الثابتة أوهاماً وخرافات! أجل هذا هو العالم في الربع الأخير من القرن العشرين ـ أقول العالم دون أن أنسى أن بلداناً عدة تطورت بفضل ثوراتها الداخلية لتقيم نظام العقل مكان نظام الخرافة .

لم يمر وقت طويل حتى كان بيت إبراهيم وفهيم خوري قد صار بيتاً لي . كبرياء جورجيت بربر رحلت . حل محلها لطف ووداعة صرت إذا جئت إلى المنزل وحدي أو مع الأخوال أشعر أنها ترتاح للقائي، فيما كنت أشعر سابقاً أني ضيف ثقيل .

ما الذي دفعها فجأة أن تطالبني بتعليمها اللغة الفرنسية؟ لغتها العربية جيدة، لغتها الإنكليزية جيدة، تريد أن تجيد الفرنسية . طرحت عليّ الفكرة فرحبت بها . عادت إلى ذاكرتي كلمات سليم الحاج ـ بيترومين ـ عندما اختلى بي عمي في دده منذ سنوات، قائلاً : أنا قادم من بتعبورة . من بيت آل الخوري . شاهدت هنالك جورجيت بربر . إنها صبية حسناء راقية . . . كان سليم يلفتني إلى أنها عروس تليق بي . . .

عندما طلبت إليّ تعليمها الفرنسية، قلت في نفسي : «لعلنا ملاقون حباً كبيراً» .

في اليوم التالي، كنت أبحث في المكتبات عن كتاب باللغة الفرنسية معرّب : أحمل لجورجيت النسختين معاً، نقرأ القسم الفرنسي وما يقابله من القسم العربي، ونفسر الكلمات واحدة واحدة . . . ونحفظ . ثم نتدرب على بعض الكلمات واحدة واحدة . . . ونحفظ . ثم نتدرب على بعض العبارات السهلة . إلى أن يصل إلى الغرامار Grammaire . كان الكتابان واحد بالفرنسية من تأليف الشاعر لامارتين Lamartine والثاني تعريبه بقلم الشاعر إلياس أبي شبكة واسمه C'raziella .

وجئت مع الأستاذين إبراهيم وفهيم لتناول طعام الغداء والكتابان في يدي. التفت الأستاذ إبراهيم إليّ وقال: (شو راح تعلم جورجيت اللغة الفرنسية أو الغرام)...

لفتت نظري أيضاً هذه العبارة، المرسلة عفو الخاطر.

وبدأنا الدروس. كنت أختلي بجورجيت في الصالة بينما الزوار في الدار. نغلق الباب وراءنا لكي نتلافى الضجة. ما كنت أجرؤ على مد يدي إلى يدها ولا على الاقتراب منها حتى الالتصاق... كنت ولا أزال حيياً خجولاً... وأكثر من خجول. (أكرر هذه العبارة قصداً)...

كنت ناشطاً في التعليم، مرتاحاً أني أعلّم ابنة أخت أستاذي إبراهيم وفهيم، الأمر الذي يجعلني تدريجياً فرداً من أفراد العائلة. أكثر الناس ارتياحاً لهذا التعليم كانت الشيخة سكر، ربة المنزل... جورجيت كانت ربة المنزل بالنيابة.

في أحد الأيام التاليات القريبة، وأنا خارج من صالة التعليم، ضاحك الأسارير سعيداً، تصدفني صديقة جورجيت السيدة وهيبة زوجة الأستاذ جورج إسكندر المحامي الساكنة في الطابق العلوي، فتبادرني: «إنشاء الله خير من هذا التعليم. هل علقت السمكة في الصنارة؟».

من صفاتي الحميدة أني ألتقط سريعاً معاني الغمز واللمز. أدركت أن وراء الأكمة سراً، تتضح خطوطه رويداً رويداً. أدركت أن جورجيت لم تعد اسماً لفتاة غريبة عني... أدركت أنها مرشحة لأن تصبح حبيبتي. صاحبة الفضل هي وهيبة إسكندر ـ أم عدنان ومروان وغسان...

الدعوى الأولى خارج لبنان:

وصل من بوسطن إلى بتعبورة الكورة مغترب شاب يدعى جورج مخائيل،

عرف في المهجر تحت اسم جورج موزاس أي جورج موسى. وبينما كان يستقبل المهنئين، والقرية في هرج ومرج، تصل إليه أخبارية، عن أن الدرك في طريقهم لمداهمة بيته، لإلقاء القبض عليه تنفيذاً لحكم غيابي جنائي صادر بحقه.

حمل الرجل حقائبه الخفيفة، وسرق نفسه من بين الحضور دون أن يدري به أحد، وركب سيارة واتجه إلى حدث ـ بيروت ليقابل الأرشمندريت بولس الخوري ويحتمي به، فهو ما ارتكب في حياته جريمة لا في المغترب ولا على أرض الوطن.

وصل سالماً واختبأ في المطرانية، وأوكل إلى مكتبنا ملاحقة قضيته. كان مدير الأمن العام الفرنسي السيد بوشاد Bauchade. فطلبت مقابلته وعرضت عليه الأمر، فأحالني على الأستاذ الفرد خوري، الذي كان مفتشاً بسيطاً يومذاك. فنبش الملف وقال لي إننا طلبنا إلقاء القبض على جورج موزاس إنفاذاً لحكم من محكمة جنايات حلب...

سألت: ما اسم والدة المحكوم عليه، فأجبت ليس لدينا خلاصة الحكم واسم والدته... كنا في شهر شباط سنة ١٩٣٣. وكان يجب أن أتوجه إلى حلب. فتوجهت. وكانت المرة الأولى التي أزور فيها حلب الشهباء. نزلت في فندق كلاريدج. وسارعت في اليوم التالي إلى الجنايات فأخذت صورة مصدقة عن الحكم وعن ضبط المحاكمة وكان بينهما اسم والدة المحكوم عليه المجرم الحقيقي. فإذا به من أنطاكية ـ لواء الإسكندرون. حملتها وعدت إلى بيروت، وقدمت استدعاء إلى الأمن العام. وبعد أخذ ورد شكليين، حصلت على أمر بالكف عن التعقبات وحملت الرجل وذهبت به إلى بتعبورة، بعد أن دفع للمكتب ثلاثين ليرة ذهبية.

فرحت بأني أنقذت بريئاً كما فرحت باكتشاف حلب الشهباء، وإن في زمن البرد القارس... لأول مرة في حياتي عرفت ما هي التدفئة المركزية، كان فندق

الكلاريدج في حلب مدفئاً كأنما أنت في داخله في أيام الصيف، من القرية حيث المواقد بدخانها ونارها، تطرد في غرفنا البرد، توفر لنا في حلب أن ننام ليلتين في الدفء دون نار ولا دخان. . . ليس الفرق بعيداً بين دخان يحرق عينيك ـ آه كم نتحرق اشتياقاً له ـ وبين قضبان حديد مركزة في الحائط تنقل إليك الحرارة بسحر ساحر!

محمد خير الصاوي ومصطفى شيخ الأرض:

تمر وجوه في حياتك لا يمكنك أن تنساها وإن حاولت النسيان. وجوه عادية ما سجلت موقفاً كبيراً ولا أتت أعمالاً شغلت الرأي العام فانطبعت في ذهنك ولو بالإجرام. من هذه الوجوه الباقية في ذاكرتي، تشاغلني اللحظات التي أكتب فيها مذكراتي وجهان بسيطان، وجهان عاديان، ولكن بالنسبة لي وجهان عزيزان: محمد خير الصاوي ومصطفى شيخ الأرض.

كان محمد خير موظفاً في مكتب الأستاذين إبراهيم وفهيم: أخبارياً ومعقب معاملات وحارساً للمكتب لا أكثر ولا أقل. إلا أنه كان أميناً وشجاعاً، فرض نفسه على المحامين وعلى الزبائن والزوار، فما دخل أحد المكتب إلا وتهيّبه واحترمه، كأنما هو محام لا بوّاب. جبهة عريضة وشاربان معقوفان يناجيان أنفا أفطس، لو أردنا أن نشبهه بلغة هذه الأيام لقلنا صاروخاً من نوع الكاتيوشا مصغر بحجم الأنف.

سكير لا يصحو، وبالوقت نفسه لا يشعرك أنه سكران أو مدمن، لاعتياده شرب الخمر، فكأنما قد أفرغ في أحشائه عشرة كؤوس، وهو ما أفرغ إلا قنينة ماء. لولا رائحة تفوح منه تحمل العرق إلى منخريك، لقلت إن الرجل طبيعي، ما ذاق طعم الخمرة.

دخلت المكتب، محامياً، أعد نفسي لمستقبل كبير. لقد اخترت بيروت لا طرابلس لتكون دائرة أعمالي أوسع وأخصب، ولكي ألعب دوراً أساسياً في مجتمع

المحامين أو المجتمع العام. من هنا أردت أن أكون جدياً مع محمد خير، وأن أترك بيني وبينه مسافة، وأن أشعره بأني الرئيس وهو المرؤوس. ما أفلحت لأن الأستاذين إبراهيم وفهيم دلّلاه أيّما دلال، إلى حد بعده أسائل نفسي إذا لم يكن هو الرئيس وأنا المرؤوس.

بدأت أتعقد. فالحساس مثلي، المطل على الحياة في مواكب الشعر والخطابة، لا يرضخ بسهولة لواقع غير معقول. أنا لا أستعبد الناس ولكن أرفض أن يتطاول على مسؤولياتي متطاول. أعتبر إذ ذاك أني تنازلت عن شيء من كرامتي.

تصادمنا مراراً. عنفوان الشباب وعنفوان الخمرة لا يتجانسان، وإن في دائرة العنفوان يتحركان. إلا أن الزمن حلّال المشاكل، فما انقضت الأشهر الأولى. حتى تفاهمنا، فإذا صداقة محمد خير لآل الخوري تشملني، والصداقة ـ وهي المحبة الرفاقية ـ لا تنشيء إلا الإيجابيات، فيما تترك السلبيات وراءها.

لقد تعوّدت أن أسمع محمد خير يناقش الزبائن. يعرض لهم ما يشاء عن مصير دعاويهم... ويلهم إذا ربحوا دون أن يربح. يخسرون ويتذمرون. المكاسب يجب أن يكون له فيها نصيب والخسائر يجب أن تلفلف في الصمت العميق، وإلا ساءت سمعة المكتب.

ثم اعتدت أن أراه يفضّ الرسائل الواردة ويطّلع على ما فيها، وإن باللغة الأجنبية، لكي يبشّر الأساتذة بوصول الشيكات التي ينتظرونها وينتظرها هو معهم...

إبراهيم خوري كان يتعامل مع محامي أميركا بدعاوى عدة وهم معه يتعاملون. أكثر دعاوى أميركا تصفية تركات. ماذا ينتج عن تصفية التركات إلا إرسال الشيكات ـ وصلت الثقة بمحمد خير الصاوي أن راح يوقّع عليها ويقبض

قيمتها ويخبر ـ إذا شاء ـ الأستاذ خوري ـ صعدت مرتبة محمد إلى درجة التصرف بالأموال دون تقديم حساب. الخمرة لا ترحم الشارب «إذا رحمت الساقي».

منذ سنوات طويلة، لا أقل من ثلاثين عاماً، لم أعد أعرف عن محمد خير أي خبر. شاهدته بعد أن توفي إبراهيم وفهيم وأقفل مكتبهما، عاملاً في مطار بيروت الدولي، يأمر وينهي، ويوجّه ويحرّض... لا أعرف إذا كان فرض نفسه على المطار بمرسوم صادر عن سيادته أو أن الدولة عيّنته في عداد موظفيها... محمد خير وجه من أبناء شعبنا لا تستطيع إلا أن تحبه. تتصادم معه، تؤنّبه، لكن لا بد أن تحبه... له في الحياة طريقة وأسلوب، لعلها طريقة من يحتال على العيش، ليناً أحياناً وأحياناً خشناً، وفي بعض الأطوار محتالاً مراوغاً كالثعالب الجائعة.

أما مصطفى شيخ الأرض، فقد كان صاحب دكان صغير على زاوية ملتقى شارع البطريرك حويك بشارع جادة الأفرنسيين. دكانه مليء بالسجاير والخرضوات كآلات الحلاقة ولوازمها، والعلكة، وأشياء أخرى. بدين الجسم، مشرق الأسارير، طيب حتى الكرم. كان مكتبنا يتعامل معه باستمرار. كنا زبائن كل يوم. فالسجاير معبودة الأستاذ إبراهيم أما أنا فما كنت بعد قد سقطت في التجربة.

كان خالي أنطونيوس قد عاد من المغترب الكوبي قبل أن أنال شهادة الحقوق بقليل وأهداني ساعة فضية، فيها من الحفر الدقيق والزخرفة ما جعلها فريدة في الساعات. تدسها في جيبك، فإذا هي الأمينة على الوقت لا تقدم دقيقة ولا تؤخر دقيقة. تسحبها من جيبك فإذا بها مُلفتة للأنظار. تحفة فنية كوبيّة. كانت هذه الساعة رأسمالي الوحيد بعد المحاماة. كلما ضاقت بي الدنيا، قبل انتقالي من جادة الإفرنسيين وبعده، أهرع إلى صديقي مصطفى شيخ الأرض. فنقيّم معاً مواضيع الساعة وأحداثها. فيمدني بآرائه القيّمة، وأعرض عليه حاجتي، وأسحب الساعة من جيبي وأدفعها إليه، فيخفيها في جارور مقفل، ثم ينقدني ثلاث ليرات سورية. كانت الليرة السورية تساوي ألفاً من ليرات اليوم وأكثر.

أذهب، أغيب أحياناً شهراً وأحياناً أسبوعاً، وأعود بالمال، وأستعيد ساعتي. هذا الرأسمال «الضخم» ظلَّ عوني على الحاجة حتى ما بعد خروجي من السجن سنة ١٩٤٤... في الخمسينات أضعت مصطفى وأضاعني. لم أعد بحاجة لأرهن ساعتي، ويمكن أنه لم يعد بحاجة للحياة نفسها... أو أن الحياة لم تعد بحاجة إليه.

وجه محمد خير ووجه مصطفى شيخ الأرض، وجهان من ذكريات شبابي لا تغيب عنهما خواطري ولا يغيبان عنها... كم من الناس يسكنون وجدانك، وأنت لا تستطيع إخلاء المسكن ولو أردت...

الحب الجديد حبان، واحد لجورجيت والآخر لأنطون سعاده:

إبراهيم وفهيم الخوري كانا وطنيين. ما انزلقا مع المنزلقين إلى شرك الانتداب وعملاء الانتداب. ظلا يعملان للاستقلال مع علي ناصر الدين وصلاح بيهم، إلى أن انخرط فهيم في عصبة العمل القومي، بينما بقي إبراهيم يعمل على هواه مع من يرى في تحركه خيراً.

وجدتني إذن في مناخ الرافضين للانتداب وفي موكبهم. مريح للنفس أن تتعامل مع الجباه العالية لا مع الجباه المنخفضة للأجنبي المسيطر بقوة الحراب...

كنت أصغي لعلي ناصر الدين وأقرأ ما يكتب، وأتتبع تحرك الوحدويين في طرابلس وبيروت وصيدا وبعلبك، كما أتابع مظاهرات الكتلة الوطنية في الشام معجباً بفوزي الغزي وفخري البارودي... وقبلهما بالشيخ الجليل هاشم الأتاسي وبفارس الخوري الذي أذهل الفرنسيين بحجته القومية ومرونته السياسية.

جاءني رجل اسمه سليم سليم، من بني معروف، متطوع في مشروع الفرنك

الذي كان قد أطلق شعاره فخري البارودي واستثار عبره همم الشباب الوطني في الساحل اللبناني، فدبت بـي الحماسة وتطوعت بدوري، ورحت أطرح على المحامين هذا المشروع، مكافحاً منافحاً. . . ما كان المحامون في ذلك الزمن إلاّ قبضة من الناس الذين يهمهم أن يكونوا على أفضل العلاقات مع السلطة المنتدبة ومع قضاة المحاكم المختلطة الفرنسيين. . . إلا أني ما خرجت صفر اليدين. يظل المحامون مهما أزوروا عنك يتأثرون بالصداقة والزمالة. . . لقد جمعت مبلغاً لا يُستهان به. في هذه الأثناء، ما توقف تعليمي الفرنسية لجورجيت بربر. . . كلام وهيبة اسكندر لي عن «الصنارة» اعتبرته تحريضاً أو تشجيعاً. . . كانت جورجيت قد بدأت تأسرني بوطنيتها وذكائها وقوة حجّتها وقوة شخصيتها. . . كنت قد بدأت أراقبها كأنما أخطط لمشروع حب كبير.

كان اقتلاعي مما نسميه اليوم المنطقة الشرقية. قد تمّ جذرياً. قطعت كل صلة بآل باسيل دون أن أقطع بيني وبينهم حبال الودّ المشدود إلى أحلى أيام شبابـي. . . واستأجرت غرفة في دار آل حدّاد بشارع جان دارك. الدار ـ يا لحسن الحظ ـ لا تزال حتى يومنا قائمة على قدميها، بانتظار أن تضربها المعاول في أول فرصة، كما تضرب في كل أنحاء بيروت، لتهدم القديم، وعلى أنقاضه تقيم ناطحات السحاب اللبنانية طبعاً لا الأميركية إذ من يلحق بالأميركان في هذا المضمار.

كان أنطون سعاده يسكن في الغرفة نفسها من قبل وكان آل الحدّاد يعتبرونه واحداً منهم خاصة فؤاد وعفيفة. هكذا أخبرت قبل أن أنقل حوائجي إليها. ما كان أنطون سعاده يعني لي شيئاً حتى ذلك التاريخ، إلى أن صدف وتلاقينا في بيت الأستاذين إبراهيم وفهيم خوري. . .

لم أعد أنتظر دعوة لأشارك في غداء أو عشاء. أذهب وأجـيء دون رقيب أو حسيب اللهم إلاّ عيون الأستاذ إبراهيم الذي كان قد تبنّى جورجيت بربر فصارت ربيبته عوضاً عن أن تكون ابنة شقيقته.

جئت ذلك اليوم. . . وكان من أيام ربيع سنة ١٩٣٣، على ما يتراءى لذاكرتي. كنت والشيخة سكر وجورجيت في الصالة، في الشارع المعروف بشارع أرتوا، نتحدّث بانتظار الغداء. وإذا بشاب يدخل. تفتح له جورجيت وتتأمله. يلحظ تردّدها فيقول: «أنا أنطون سعاده». . .

أهلاً بالأستاذ أنطون. أرجو المعذرة. قالت جورجيت. ثمّ تقدّم نحو الشيخة الجليلة وحدثها بضع كلمات بالألمانية ثم التفت إليّ، وفيما كانت تعرّفني إليه، أشار إليها بيده أن لا لزوم لأننا تعارفنا من قبل. . .

فوجئت أنا بالحقيقة، كما فوجئت جورجيت، لأن أنطون سعاده بلا لحية غير أنطون سعاده بلحية. هذا الوجه الصبوح، والبشرة الميّالة إلى البياض، والأسارير النبيلة التكوين، أين كانت مخفية باللحية السوداء الكثة. . .

دار الحديث حول مجاملات تقليدية.

ثم مدّت السفرة ودعي الأستاذ سعاده إلى تناول الغداء في البيت ـ المضافة، فما تلكّأ بقبول الدعوة. جلست جورجيت على أحد رأسي السفرة وجدّتها على الرأس الآخر فيما كنت مقابلاً للأستاذ أنطون.

ما كنت قد أخذت شهادة موسى سليمان بعين الاعتبار أن الجالس أمامي أذكى شاب في لبنان. لم أكن قد سمعته محدثاً ولا قرأت له مقالاً. كنت أظن أني أنا أذكى شباب لبنان، فأنا الذي علقت على صدره ثلاثة أوسمة تفوق طوال خمس سنوات في مدرسة الفرير وأنا الحائز على شهادة الليسانس في الحقوق بمعدل جيد، وأنا الآن المحامي. . . المدافع والمرافع أمام المحاكم الوطنية والمختلطة على اختلاف درجاتها. . . من يكون هذا الأنطون سعاده؟؟

وبدأ الرجل يتحدّث في الاستقلال والأمة وفي القومية، في أوضاع التجزئة، في الاهتراء الأخلاقي، في الانشغال بهموم العيش عن هموم الأمة والوطن. . .

وكنت أصغي بدون أن أقيم كبير وزن لما يقول، ولكن دون أن تصدر مني أية بادرة قلّة احترام أو قلّة تقدير.

وانطلقنا بعد قليل في نقاش حول العروبة... وحول القومية. كنت شبه أمّي وكان عالماً. كان سلاحي أن أصرخ وأضرب بيدي على الطاولة وكان سلاحه أن يدلي بالحجة تلو الحجة، صادراً عن شمولية في احتواء موضوعه ما توفر لي منها الوقوف حتى على الشاطىء...

كان الرجل يكبر تدريجاً في عيني وكنت أصغر في عيني نفسي. كان يعلو حتى أصبح مارداً وعملاقاً، وأنا أضمر حتى أصبحت في حجم العصفور.

الرجل في موضوعه عالم وأنا في الموضوع جاهل وأكثر من جاهل.

ما الذي لفت نظره في موقفي؟ لست أدري. ما أدريه هو أنه عرف أين أقيم وقال لي بعد انتهاء النقاش سنلتقي يا أستاذ عبد الله.

وبالفعل جاءني بعد يوم أو يومين إلى دار آل الحداد ليهديني كتاباً كان قد طبعه حديثاً وهو قصة حبّ ودير سيدة صيدنايا... إنهما قصتان كلاسيكيتان، ضمنهما أفكاره وآراءه في كثير من الشؤون الاجتماعية والفنية.

ونشأت بيننا العلاقة... وراحت تتعمق. فإذا به يقصدني بعد بضعة أسابيع إلى مكتبي حاملاً إليّ الأعداد الثلاثة من مجلته (المجلة) التي كان يصدرها، وفيها بحوث قومية، ما كان يخطر لي ببال أن أدرسها من قبل. كانت الحقوق قد استهلكت وقتي وميولي.. ما الوطن، ما الشعب، ما الأمة، ما القومية؟ كانت كلها عندي محصورة بمشروع الفرنك لفخري البارودي، أو المسير في مظاهرة أو إلقاء خطاب حماسي أو كتابة مقالة شعرية في الوطنية والحرية.

كنت قد تربيت في مدرسة المختار والناطور والانتخابات النيابية، أمشي في ركاب نقولا غصن ضدّ نجيب بولس في انتخابات الكورة. وألقي قصائد المديح

بالانتصارات التي كان يحرزها مرشحنا فيقابلني «الشعب الواعي» بالهتافات ولعلعة الرصاص علماً بأن مرشحنا كان محبوباً ولكنه «انتدابياً» حتى العظم. تلك كانت نشاطاتي الوطنية، رغم إيماني بالاستقلال والتحرر والوحدة وحبي لرجال الكتلة الوطنية في الشام وتحمسي للشهداء ولثورة صالح العلي وسلطان الأطرش وإبراهيم هنانو وللوحدة السورية

كان أنطون سعاده أثناء إقامته في دار آل الحدّاد، في الغرفة التي استأجرتها بدوري ـ قد أشرف على تربيتهم وتثقيفهم. كانوا كلهم قد اعتنقوا مبادءَه. أكثرهم تعصباً له ولأفكاره كان كبيرهم فؤاد (توفي منذ مدّة في ميامي ـ فلوريدا).

أذكر أني عندما كنت أستحم صباحاً، يبادرني عند استيقاظه من النوم بـ: «تحيا سورية»، فأجبته من تحت الماء: «يحيا العرب»... نسيت أن أذكر أني كنت مؤمناً بالامبراطورية العربية الكبرى، إيماناً فيه الكثير من الحلم والقليل من العلم. هتافي يحيا العرب مقابل تحيا سورية لم يكن يعني لي أكثر من تحمس للعروبة في وجه الاحتلال أو الانتداب الفرنسي. تحمس لما قرأت وحفظت من شعر العرب وأخبار العرب وفتوحاتهم وأمجادهم. ولكن أين أصبحت تلك الأمجاد وكلهم تحت الانتداب؟

لا أنكر أن المقابلة الأولى مع أنطون سعاده أثّرت بي تأثيراً عميقاً. أحسست ـ كما ذكرت فوق ـ أن الرجل ليس عادياً. أنه متفوق. أنه عالم، لذلك ما أن كان يطلبني لنزهة أو لمشوار أو للقاء ما إلاّ وكنت فرحاً لأن حبّ العلم في طبعي وإلاّ كيف عزفت عن الزواج، والوظيفة، والجاه، لألتحق بمعهد الحقوق؟ ثم لم تكن تفوتني جريدة ولا مجلة. ثم كنت قد بدأت أغزو الأدب العالمي والفرنسي بصورة خاصة، لكي أخرج من التقوقع والاغترار. ما أسمع عن حفلة خطابية أو محاضرة، أو أمسية شعرية إلاّ وأندفع بكليتي إليها... ما كان ينقصني في معهد الفرير بطرابلس، رحت أعوّضه في مناخ الحرية في بيروت، في محيط الجامعة الأميركية، مهد الحركات التحررية في العالم العربي...

أمّا في نطاق القلب، نطاق الحب والغزل، فقد بات الفرج على الأبواب. . .

جورجيت تنازلت عن كبريائها وتنازلت أنا عن حيائي وخجلي. بدأت بيننا الأسلاك الكهربائية ناقلة السلب والإيجاب. بدأ التقارب. أصبح التفاهم على قيد أنملة. إذا وضعت يدي على كتفها لا تنزعج، وإذا داعبت شعرها بيدي لا تهرب، حفظت موعد قدومي إليها، فتسارع إلى فتح الباب بيديها فرحة باسمة مشتاقة!

كنت أدخل إلى البيت، فتتخلى عن ضيوفها لتكون إلى جانبي. إذا جلسنا إلى المائدة لا تختار إلاّ حيث أكون. هل تكوّنت براعم حبنا. . هل تكون حبّنا جنيناً؟ هل صار كائناً حيّاً وإن في رحم الأحلام؟. . .

كان حنا غصن ـ الصحفي المعروف أحد محرّري النهار آنذاك ـ قد أهداني مسبحة صغيرة ملونة، وعلمني أن «أبصّر» بحبّاتها، على طريقة «بصارة برّاجة بتشوف البخت». وكان الأستاذ إبراهيم الخوري قد أقام مأدبة على شرف الأصدقاء كعادته كل مساء. فامتلأ البيت بالحلقات السياسية والأدبية والقانونية. جلست أنا وجورجيت في معزل عن هذه الحلقات لنؤلف نحن حلقة مستقلة، حلقة العاشقين.

أخذت مني المسبحة. علّمتها ما تعلمت، فقالت أضمر. . . فأضمرت. فعدّت حبّات المسبحة اثنين اثنين، حتى إذا بقيت حبة واحدة وتطابقت مع نعم، يكون صحّ الضمير وإلا سقط. ولما انتهت قالت: «صحّ ضميرك. ما هو هذا الضمير؟» قلت: «قبل أن أخبرك ضميري، أضمري أنت لنرى». وبصّرت لها فإذا ضميرها بالإيجاب أيضاً. قالت: قل الآن ما ضميرك، فأحجمت وطالبتها بالمثل، فأحجمت. تجرّأت عندها وأعلنت لها: «ضميري هل تحبيني أم لا، فإذا بك تحبيني». وأعلنت بدورها: «أضمرت إذا كنت تحبني فإذا بك تحب. . .» تشابكت أيدينا دلالة على عهد متبادل بأن يبقى هذا الحب ويثمر. . .

وبدأت رحلة الغرام الجديد... رحلة الحب الجدّي، الذي لم يكن كله غزلاً ونعيماً... الذي لم يكن كله زنابق وأزاهر... كما بدأت الأحلام والتصورات... وقام أفلاطون من قبره يبارك هذا الحب البريء. كما توارى وإلى الأبد حبّ وداد وسلمى وماري... صارت جورجيت وحدها المرجع والمال، المصدر والمورد، الأمل والرجاء... ولنقل الأمل واليأس لنكون صادقين.

حبّان كبيران طبعا حياتي إلى الآن وقد أدركتني الشيخوخة حب جورجيت وحب سعاده.

(أين جورجيت الآن وأين سعاده... كلاهما في مقابر الشهداء؟! وأنا لا أزال حيّا أرزق، ولكني شهيداً حيّ!)... (كتبت هذه العبارة وأنا أصحّح طباعة المذكرات في ٢١ نيسان ١٩٩٦).

واستمرت دروس اللغة الفرنسية، لتتخذ طابع الغزل والتشاكي... وبثّ اللواعج والصبّابات. أين كنت البارحة؟ لماذا أكثرت التطلع إلى فلان... ألا تزال تزور فلانة؟... بدأت الغيرة تذرّ قرنها لتغذي الطفل الحلو، الحب الجديد الذي تكوّن بين ليلة وضحاها، وصار بحاجة إلى الغذاء اليومي ليقوى وينمو... وينتصر. الحب هذا الإله الصغير الذي يبدع الحياة ما أطيب كؤوسه وما أمرّها أحياناً!!!...

مطرانيـة جبـل لبنان للأرثوذكس:

أذكّر القارىء أني لا أكتب التاريخ بل أتذكّر. فقد تفوتني أحداث وأسماء قد أؤخر أو أقدم حدثاً على آخر، دون التقيد بالزمن تقيداً دقيقاً، لا قصداً بل لأن ذاكرتي لم تتمكن من ضبط هذا الزمن ووضعه في إطاره الحسابي. ما يهمني أن أغوص إلى جوهر الأشياء. الواقعة لا تهمني إلا بقدر ما تعبر عن حقيقة الأمور لا عن مظاهرها الخارجية.

أنا لا أكتب قصة انتخابات مطرانية جبل لبنان الأرثوذكسية الممتدة من الكورة الغربية ودوما وبلاد البترون وبلاد جبيل والمتن والشوف أي نصف لبنان، لأطلع القارىء على مقدماتها وخواتمها وما تخللها من سياسات ومؤامرات، لأن لي فيها مأرباً خاصاً، بل لأطلعه على الدور الذي لعبته بحكم وجودي في مكتب الأستاذين إبراهيم وفهيم الخوري، شقيقي الأرشمندريت بولس الخوري، الذي كان محور هذه الانتخابات، وعلى ما شاهدته بأمّ العين وسمعته بأمّ الأذن من مشاهد ووقائع.

لو كنت أعلم أني سأبلغ السبعين من عمري، وسأكتب هذه الذكريات، لدوّنت يوميات تسعفني على التأريخ الدقيق، لا متذكّراً يعتمد على ذاكرته لسرد وقائع مرّ عليها ما يقارب الخمسون عاماً، عفا عليها الزمن وعفا عنها أبطالها. قبل وفاة بولس أبـي عضل، مطران أبرشية جبل لبنان الأرثوذكسية، ولسبب مرضه أسندت وكالتها إلى الأرشمندريت بولس الخوري، ليؤمن إدارتها بصلاحيات المطران الأصيل. ولقد اختير الأرشمندريت بولس، لأنه كان قد اختبر كإداري ناجح في رئاسة دير مار إلياس شويّا البطريركي، ولأنه عدا تحصيله العلمي الرفيع في أثينا، ومواهبه الخطابية والأدبية، كان قد تربّـى إكليركياً في دير البلمند أولاً، ثم على يد بطريرك العرب غريغوريوس حداد، الشهير بوطنيته وسداد رأيه وتقاه وورعه وإدارته الحكيمة، والذي كان يعتمد على الأرشمندريت بولس في حلّ المشاكل ومساعدته في إدارة البطريركية...

عندما دخلت مكتب إبراهيم وفهيم متدرّجاً كان كل شيء هادئاً على جبهة هذه الأبرشية. كان الأرشمندريت بولس يحضر زائراً إلى بيت شقيقيه يتفقّد والدته العجوز ويلتقي أصدقاء البيت من آل المنذر وآل فتوح والرويهب والآخرين... ما لفت نظري وأثّر بـي وأسرني أن الأرشمندريت بولس كان يشعرنا أنه إنسان مثلنا، وأن ثوب الكهنوت الذي يرتدي لا يجعل منه فوق الناس، بل معهم ومنهم ولهم. بهرني بعفويته وصدقه وعدائه المطلق للنفاق والدجل. (توفي منذ سنة ونيف مطراناً للجنوب).

ما أن مضت سنة وبعض السنة حتى فتحت المعركة. كان يطمع بكرسي المطرانية، المطران زخريا، من حامات البترون، وكان منافساً شديد المراس، عبقري الدهاء. المعركة إذاً بين الأرشمندريت بولس، الذي كان في نضج الشباب وعنفوانه، والمطران زخريا البالغ من العمر حوالي الستين، دون أن ينطعج ظهره أو ينحني. بولس الخوري، يتّقد حمية وحماسةً، كتلة من أعصاب ومشاعر وفكر، والمطران زخريا، محنّك مجرّب، كتلة من ذكاء ودهاء وواقعية. تحمله السنون على كتفيها، فيما يحمل الأرشمندريت بولس السنين على كتفيه... المطران زخريا درس في مدرسة الحياة والأرشمندريت بولس خرّيج جامعة أثينا، واسع الثقافة، يتمثل ما يقرأ فلا تخاله إلاّ مبدعاً خلاّقاً.

حامات وبتعبورة جارتان، وآل زخريا وآل الخوري أقرباء. إنما الدنيا مصالح. لم يجد المطران زخريا أبرشية صالحة ليمارس نشاطه السياسي إلاّ أبرشية الجبل... وبولس الخوري الذي أدارها وكيلاً فكسب محبة الشعب في مختلف طبقاته وطوائفه، صار يشعر أن المطران القادم من دمشق، إنما يقوم بعملية استلاب كرسيه لينتزع منه الحصاد للزرع الذي زرع بالصبر والأناة والتضحيات. انتخابات المطران صورة طبق الأصل عن انتخابات النواب. أبشع ما فيها أن الناس تبيع أصواتها بالمزاد أحياناً، بل تقبض من الفريقين، وللفريقين تعطي عهوداً وإيمانات مغلظة. سوق الكذب تروج وسوق النفاق مفتوحة على مصراعيها، لا ينجو منها إلاّ من كانت أخلاقه أصيلة أو نتيجة تربية بيتية واجتماعية صارمة كالدكتور إبراهيم أبو حيدر مثلاً.

البطريرك الكسندروس نفسه، ما كان واضحاً إلاّ في تحريضه الأرشمندريت بولس على العمل ليل نهار ليحرز أصوات الناخبين بأكثرية ساحقة. ومن طرف خفي يشجع المطران زخريا... كان في حساباته على ما أتصور أن يضرب الاثنين، كي ينتخب بالنتيجة من يثق به هو ومن يستطيع استزلامه أو استخدامه أو تسييره وفق

رغباته وسياسته، ما كان يثق بالاثنين، فكانت غايته أن يهلك الاثنين لينقذ أهدافه الخاصة.

كان في حسابنا ألا يحوز المطران زخريا إلاّ أصواتاً قلائل. ألا يكون أحد الثلاثة الذين يرشحهم الشعب والكهنة فينتقي المجمع المقدس أحدهم. كان معروفاً لدينا من البطريرك نفسه خصم المطران زخريا في العلن، ومن السادة المطارنة، أن المطران زخريا إذا فاز بالترشيح، هو فائز بالمطرانية لا الأرشمندريت بولس. ونجح المطران زخريا. فإذا بالبطريرك السكندروس يحرّضنا على الاعتراض ثم على إرسال الوفود لنحتجّ على الترشيح ونطلب إلغاءه. أنا نفسي كنت في إحدى المظاهرات الصاخبة التي سيّرناها إلى دمشق.

أنا نفسي حرّضت الجماهير على اقتحام الصالة التي كان فيها المجمع المقدس لنهول عليه ونفرض الأرشمندريت بولس. وبالفعل، ركّز المتظاهرون السلالم وكادت تتمّ عملية الاقتحام لولا إبراهيم وفهيم الخوري...

كان الشعب معنا ولكن كان النافذون والحكّام ضدّنا. المطران زخريا كان على صلة وثيقة بالقادة، يعرف من أين تؤكل الكتف وكيف تقاد المعارك...

المهم أننا أبطلنا الانتخاب. ولما جرت المعركة من جديد، بغياب الأرشمندريت بولس الخوري، كان قد برز مرشح المفوضية العليا الأرشمندريت إيليا كرم. بالمال والنفوذ فاز، أمّا الأرشمندريت بولس الخوري كان سافر إلى مصر أو أرسل إليها للتخلص من صراحته وثورته، بعد أن حصل على تعهدات قاطعة من البطريرك الكسندروس بألاّ تجري الانتخابات إلاّ في حضوره... ثم عاد ليلتحق بأبرشية بيروت.

بعد أن اقتضته معركة جبل لبنان بيع أملاكه وأملاك أخوته والاستدانة من العديد من أقربائه بما فيهم صهره نخول بربر ـ والد جورجيت التي صارت حبيبتي ـ برهن أملاكهم لآل النبتي في البترون للإنفاق على المعركة الانتخابية...

كم سهرت الليالي، وطفت الأبرشية من أقصاها إلى أقصاها، داعية للأرشمندريت بولس عن قناعة بجدارته من جهة ولأحوز على رضاه ليكون من أنصاري يوم أطلب يد حبيبتي من أهلها من جهة أخرى.

كان ينافسني على كسب رضاهم آل فتوح، الذين كانوا يطمعون هم أيضاً بجورجيت، ما كنت أخشى المنافسة كثيراً بعد أن تعاهدت وإياها، عهداً ما فصمه إلاّ الموت. بعد أن تزوجتها وصارت أم أولادي واحتملت معي كل ما قاسيت من اضطهاد وحرمان، من سجون ومناف، إلى حدّ أنني اعتبرتها شهيدتي وشهيدة الأمة بعد أن توفّاها الله في كندا سنة ١٩٦٨ . . .

الحـب على دروب العـزّ . . . :

ها أنا في الثالثة والعشرين من عمري. لم أعاشر امرأة بعد إلاّ بالبراءة والحياء. . . والأحلام. لقد أصبحت محامياً، وصار بإمكاني أن أكون زوجاً أن أحب حبّاً جديّاً، مستهدفاً. مضى سن الطفولة والمراهقة والحلم الزاهي الألوان، الفراشي الملامس. أنا الآن في سن الشباب على أبواب الرجولة والمسؤولية. وجورجيت ليست برعمة. . . إنها الآن شجرة بانتظار أن تورق وتثمر.

لندخل إذن في هيكل الحب، ولنسجد. دروس اللغة الفرنسية مستمره. الخلوات أصبح لها أجنحة تصفق بين جدران أربعة. وبدأ الوحي يهبط شعراً ورسائل. . . كنت بالأمس أغني إلى «مـي» أنظم لها الشعر لتكتشف أني أقصدها. أصبحت «مـي» الآن تعرف نفسها. لقد استبدلت اسم جورجيت بـ «مـي» لأعرب اسمها، ولأجعل منه اسماً شعرياً ملهماً.

كلّ يوم كان يجب أن أكون على مائدة آل الخوري، ظهراً ومساءً. صار بيتهم مضافة لي مثلما كان مضافة للرواد.

وكل يوم يجب أن أترك رسالة لجورجيت في جارور ماكنة الخياطة. أكتب الرسالة، وأحضر لتناول الغداء، أغسل يدي تترك لي جورجيت المنشفة قرب ماكنة الخياطة هذه، أغلق الباب ورائي وأدسّ الرسالة في حذر السارق... ثم تأتي بعدها لتستلمها من المخبأ فتقرأ... ثم تجيب بابتسامة أو بدعابة، أو بغنجة، أو بقبلة... دليلاً على الاستلام.

الحب الطفل الذي ولد من القلب والعقل معاً، من تمازج وانصهار متبادل، أخذ ينمو... وينمو... إلى أن أفلت من سجن العقل والقلب حيث ولد... لقد تجنّح... ثم صار هياماً... ثم صارت له الأرض والسماء ملعباً ومداراً.

ونحن نكبت... لا نبوح بهذا الحب خوفاً من الغيارى، خوفاً من الأهل، خوفاً من الجيران، خوفاً من العزّال ـ وما أكثرهم ـ... خوفاً على الحب نفسه من أن يسرقه سارق، دون سابق إنذار.

إلاّ أننا تعاهدنا... تعاهدنا في السرّ، وكتمنا في العلن إلى يوم كنّا نتجاذب كتاباً منها إليّ ومني إليها، ولكن في وضع منسجم له ألف دلالة ودلالة، فإذا بخالها إبراهيم يفتح علينا الباب، ويهزّ رأسه ويدير لنا ظهره عابساً...

أيقنت أنه هتك الستائر عن حبنا، وأدرك أننا عاشقان.

ما كنت في حياتي منافقاً ولا دجالاً. كانت ثقة الأستاذ إبراهيم بي قد أصبحت مطلقة. أدير المكتب بنشاط منقطع النظير. لا أخسر دعوى. لا أخلف في موعد. الزبائن يحترمونني ويثقون بي. مفتاح خزانة المكتب بين يدي. أنا الذي ائتمنني الأستاذ إبراهيم على ماله وودائعه... هذا الامتياز له ثمن: أن أحفظ له هذا الجميل..

من هنا، وبعد أن شاهد خدينا يحمران خجلاً جئته إلى المكتب وأقفلت ورائي الباب ورجوته ألاّ يقبل زيارة أحد، ثم فتحت قلبي، وقلت له: أحب

جورجيت وأريد أن أتزوجها. أعرف أني لا أملك مالاً ولكني مؤمن بمستقبلي وبقدرتي على جمع المال. ثم إن لي أملاكاً في «دده» أستطيع التصرّف بها على هواي فأبيعها وأشتري بثمنها أثاثاً وأقيم عرساً مشهوداً.

إبراهيم خوري، لم يعد ربّ المكتب، لم يعد معلمي... كان قد صار أخي الأكبر أو أبـي الروحي. أما بالنسبة لجورجيت فهو بمثابة والدها. ربّاها على صورته ومثاله، كريمة صادقة محبة أنوفة إلى حدّ الكبرياء... كان يثق بها بلا حدود كما يثق بـي بلا حدود. هذه الثقة كانت ملجأي لأفتح له صدري، فلا ألاقي صدوداً ولا تحفظاً...

أجابني: أنا لست أباها وأمها يا عبد الله. أنا خالها. يجب أن تطلبها من والديها ثم أن تخبر بولس وفهيم...

قلت: سمعاً وطاعةً...

تولى الأستاذ إبراهيم إبلاغ الرسالة. جمع العائلة فإذا فريق معي وفريق ضدّي.

جورجيت زينة المنطقة. من هذا عبد الله قبرصي لا يبلغ طوله المتر ونصف المتر ولا يبلغ دخله الخمسين ليرة. لا يزال يأكل من مال إبراهيم. فكيف يفتح بيتاً ويتزوج ويفي مطاليب امرأة مفتوحة الكف، شامخة الأنف، لا تقبل إلا أفضل الثياب ملبساً، وأطايب الأطعمة مأكلاً. ليس طلب عبد الله قبرصي معقولاً ولا مقبولاً.

أما جورجيت فكانت قد أحبتني حبّاً لاهباً. صمدت أمام كل هذه التقولات. قالت سيكون زوجي أو أذهب إلى الدير أو أنتحر...

الجواب القاطع الحاسم أسكت المعارضين...

لم يعد حبنا خفياً، ولا عادت لنا حاجة إلى التراسل بواسطة جارور الماكنة.

ولكن ظلت العين ساهرة، عين إبراهيم الخوري تراقب وتحاسب. كان علينا أن نتحاب كراهبة وراهب إلى أن يرتفع فوق رأسينا الإكليل بالمجد والكرامة... وفقاً للطقوس الكنسية المألوفة.

مـع الصحافة والشعـر والأدب:

ما كانت المحاماة ولا الحب... ولا اللقاءات مع الأستاذ أنطون سعاده لتحول دوني ودون اللقاءات مع فؤاد سليمان، ثم أنا وفؤاد مع الأخطل الصغير وشبلي الملاط وميشال أبو شهلا وعلي ناصر الدين وعارف الغريب وأمين نخلة وألبير أديب وإلياس أبـي شبكة.

إلياس أبو شبكة كان جاري في المكتب، وكان قد تصادق مع فؤاد سليمان. إذا نظم قصيدة أو كتب قطعة بديعة حملها إلـيّ، نجلس حول فنجان قهوة، فيتلو علـيّ ويراقب ردّ فعلي ثم يستمع إلى رأيـي. ما كنت من المقدرة بحيث أستطيع أن أنقد إنتاج أبـي شبكة الجديد والثوري والرائع. كنت أترنح، أعجب، أصفق... وكان هذا حسبـي ونعم الوكيل... فؤاد سليمان كان قد طلق جبران ونعيمه والتحق بأبـي شبكة. أبو شبكة سحره بصدقه وعمقه وثوريته المتمردة.

الفرق بيني وبين فؤاد أنه متأثر ببودلير «Beaudelaire» مثل أبـي شبكة. وأنا تلميذ لامارتين وهوغو والفرق بين أسلوب هؤلاء الشعراء فرق بعيد المدى. أما الباقون، فكان موعدنا في مقهى على ساحة البرج حيث كان العريسي، صاحب محلات الحلويات، قبل الأحداث التي هدمت ساحة البرج بالأمس القريب. هذا المقهى كان صاحبه من آل شقير، ثم انتقل إلى آل فتوح. يسقيك كأساً مع مازات لا مثيل لها. كانت تعقد الحلقات هنالك، يغيب عنها أبو شبكة وحده، لأنه كان قد أعلن الحرب على بشارة الخوري، واتهمه بالسرقة من شعراء فرنسا كما كان بشارة الخوري يتهمه بسرقة بودلير... كلاهما كانا شاعرين كبيرين، ما سرقا بل سُرقا.

ولكن العجب أن ما من شاعر منذ العصر الجاهلي ألا ويغار من الشاعر الآخر . . . هل ننسى الفرزدق وجرير؟

في مقهى آل فتوح كنا نجلس نحن الصغار أنا وفؤاد سليمان مثلاً نتسقط الشعر في لهفة الجائع . نظل نصغي ونصفق استحساناً إلى أن نحظى بلفتة من الشعراء الكبار وبخاصة الأخطل . . . ما من مُعطٍ إلا وهو بحاجة إلى آخذ . أنا وفؤاد في سن الأخذ لا في سن العطاء .

كان لا بدّ لي من إطلالة على الأدب . ميشال أبو شهلا فتح لي أبواب مجلة المعرض أوسع المجلات انتشاراً في الثلاثينات .

أذكر أني أقحمت نفسي في صراع كان ناشباً بين أمين نخلة وخليل تقي الدين حول الرومانسية والرمزية . أمين نخلة مع الرمزية وخليل مع الرومانسية على ما أذكر . فانبريت أدافع عن الرمزية ، لا حبّاً بالرمزية بل حبّاً بأمين نخلة فقد كانت عبارته المبتكرة وكأنها تنزيل التنزيل . سبق الناثرين بنثره وكبار الشعراء بشعره فهو أمير الشعر والنثر . لذلك كنت عنيفاً في الردّ على خليل تقي الدين ، فإذا بالأمين يبحث عني في قصر العدل ، ويفرض عليّ زيارة لأبيه رشيد نخلة ، الذي كان صيته ذائعاً قبل أن ينظم النشيد الوطني .

وصلت إلى عاليه مع الأمين ، فما أن دخلت الباب ، وكان قد عرّفني أمين على أبيه حتى بادرني بهذه العبارة ـ الوسام : «أهلاً بالقنبلة» ، كان رشيد نخلة مقعداً ولكن الفروسية والنبل تسطعان من وجهه الوردي .

وبلغت صداقتنا أنا وفؤاد للأخطل ذروتها ساعة أقنعناه بالذهاب إلى الكورة للاشتراك في حفلة أدبية أحيتها جمعية ثقافية في بشمزين ، برئاسة السيدة روز Rose مفرّج زوجة خليل ملكي .

في تلك الحفلة ألقى الأخطل قصيدته العصماء «سلمى الكورانية» حيث

قال:

من كانت الكورة الخضراء منبته فليس ينبت إلاّ المجد والجاها...

وكانت لنا في الكورة ليال وأمسيات لا تزال عالقة أخبارها في سماء بشمزين العزيزة ـ وتمكنت أواصر الودّ بيننا وبين الشعراء الكبار، حتى أقمنا الأرض وأقعدناها دفاعاً عن الأخطل يوم هاجمه أمين الريحاني في إحدى خطبه يوم قال: «أنتم الشعراء»... واتهمهم بالبكاء والتباكي، نقداً لقصيدة الأخطل:

الهوى والشباب والأمل المنشود تـوحـي فتبعـث الشعـر حيّـا

الهوى والشباب والأمل المنشود ضـاعـت جميعهـا مـن يـديّـا

أقمنا الأرض وأقعدناها فأحسّ الأخطل الصغير أن له فينا أركان حرب، فثارت ثـائـرتـه وألقـى فـي وجـه فيلسـوف الفـريكـي كـراسـه الشهيـر: «نحـن الشعراء...».

ثم لم تمض مدّة قصيرة حتى فتحت لنا «المساء»، جريدة أصدرها عارف الغريب. فرحت أكتب فيها مقالات وقصصاً قصيرة. ثم اقتحمنا عن طريق الصحافي الصديق يوسف أبـي صالح مطابع جريدة الأحوال لصاحبها زيدان ضاهر زيدان. وما مضت مدة من الزمن حتى كنت قد أصبحت في عداد الكتّاب والصحافيين وإن المبتدئين، أتدرّج على يد يوسف أبـي صالح وميشال أبـي شهلا رويداً رويداً.

أذكر أني نشرت قصة عن شاعر كوراني من كفرحاتا ـ اسمه نسيم سابا ـ (توفي باكراً) (عمّ الوزير السابق إلياس سابا) في أحد أعداد جريدة المساء سنة ١٩٣٣، فإذا بـي أتلقى رسالة من الشام موقعة «أ. ص» يثني علـي كاتبها جميل الثناء. فرحت أرقص طرباً. أن ما أكتب يلاقي استحساناً في عاصمة الأمويين... إذن أنا على دروب العزّ...

أما الرسالة وقد حفظتها طويلاً في «أرشيفي» فقد اكتشفت أن مرسلها هو الشيخ إبراهيم المنذر، الخطيب والشاعر السياسي الشهير. وقد ذيلها بتوقيع «حزورة»: «أ. ص.» فإذا بالتوقيع يعني أبـو صلاح ـ وصلاح كان كبير أولاده وباسمه يكنى.

هذا الضياع بين الحب والصحافة والأدب والمحاماة كاد يكون ضياعاً حقيقياً لولا أنطون سعاده.

فـي الحزب السوري القومي:
الـولادة الثانـية:

قدري كان، وأنا في سن الأحلام الزهراء، ومطلع تفجّري العاطفي بحب كبير، أن ألتقي أنطون سعاده، أن أسخر منه في أول لقاء لأنه كان ملتحياً. ثم أن أسخر من نفسي بعد أن عرفته في جدل غير متكافىء، كان فيه هو العالم وأنا الجاهل المغرور.

ما الذي جذب الرجل إلـيّ، ليتابع حواره غير المتكافىء معي ليطاردني في غرفتي في مكتبي، ثم ليطوقني تطويقاً لا فرار لي منه، فأصبح جندياً في صفوفه، بعد أن تصورت نفسي قائداً في جيش المغرمين والعشاق المتيمين.

أجل طاردني أنطون سعاده، كنا نتواعد على اللقاء في مطعم آل الحداد في شارع بلس، أو تحت صنوبرات الجامعة الأميركية الغضّة، أو في مكتبـي، أو على طريق المنارة... كان يشرح لي مبادىء الحزب وتعاليمه دون أن يطلعني أو يشعرني أنه ينطلق من حزب ليدخلني في عداد محازبيه أو أعضائه.

حتى اليوم، وقد بلغت السبعين لا تزال بعض جوانب فلسفة سعاده خافية علـيّ وعلى الكثيرين من رفقائي في القيادة أو في العضوية. ولكني كنت مسحوراً

بشخصية الرجل المحببة إلى القلب بقدر ما تفرض نفسها على العقل والوجدان بما اكتنزته من علم ومعرفة، وما وهبت من مقدْرة ومناقب وحججٍ لا تُـرد.

الحقيقة أن نزوعي الاستقلالي الوحدوي منذ أن فتحت عيني على الحياة كان طابعي المميز. تعلمت في مدرسة الفرير ثم في الجامعة اليسوعية، لكني ما تخليت عن استقلاليتي في التفكير. وكنت أطمح بأن أصبح إنساناً فاعلاً، أن أشترك في عمل يحقق لوطني وحدته واستقلاله.

صحيح أني لم أكن أفهم ما هي الأمة وما هي القومية وأي تحديد علمي في القاموس وعلم الاجتماع والسياسة يمكن أن يكون تحديدها، ولكني كنت أفهم معنى الوطن والوطنية، وكنت أعي وعياً كاملاً أني إنسان حـرّ، يجب أن يحيا في وطن حـرّ وسعيد.

بهرني أنطون سعاده بعلمه وحججه وصفاء فكره وقوة شخصيته وشمول ثقافته، أحسست أنني أمام قائد أعتزّ بأن يكون قائدي. بعد مراحل حوارنا الأولى، لم أكن أحاور بل كنت أتعلم، كنت أتعلم، كنت قد انتقلت من وضعية المحاور إلى وضعية التلميذ ولكن أقولها بدون تواضع. وضعية التلميذ الناجح. كنت ألتهم وأختزن وأستفيد وأقوى. ما كنت أجترّ كنت أتمثل.

ليس هنا مجال استعادة المناقشات التي دارت بيننا، ولا كيف تمّ تطوري النفسي من محاور إلى تلميذ، فقد كتبت بعض ذلك في «عبد الله قبرصي يتذكر تاريخه الحزبـي أو كتابة تاريخ تأسيس حزبه». إلا أن المهم، هو سهولة انقيادي لفكر أنطون سعاده وحججه الدامغة كأنما كنت على موعد معه قبل ولادتي (على مذهب صديقي الكبير ميخائيل نعيمة).

كان لا يزال فؤاد حداد بعد لقاءاتي مع المعلم يسألني: أين صرتم. هل أطلعك على شيء. فأجيب: بأننا نتحاور ونتدارس في مجالات الفكر والنظريات

ولم نتجاوزها بعد إلى أي جديد. يبدو أن فؤاد حداد كان يستعجل سعاده لمكاشفتي بأمر الحزب وإدخالي فيه، وسعاده يتمهَّل ويتأنَّى. لا أقل من ثمانية أشهر على ما أعتقد بذل في سبيلي من وقته لكي يمعن في إقناعي للانضمام إلى الحزب السوري القومي الذي كشف لي نظامه ومبادءه، المكتوبة بخط يده على دفتر مدرسي، أقسمت اليمين بعد أن طرحت عليّ الأسئلة المنصوص عنها في النظام الأساسي (الذي نسميه الدستور) بواسطة السيد نعمة تابت الذي كان رئيساً لمجلس العمد، عميداً للداخلية في أوائل تشرين الأول أو أواخر أيلول من سنة ١٩٣٤.

أقسمت اليمين بحضور أربعة أو خمسة منهم بهجت خولي وفؤاد سليمان، واليمين تتضمن إعلان الخضوع للأنظمة والقوانين الحزبية، وللقرارات التي تصدر عن الزعيم، واتخاذ مبادىء الحزب شعاراً للمنتمي ولأهل بيته وتقيده بعدم البوح بالأسرار الحزبية تحت أي نوع من أنواع الضغط... الخ... عرفت قبل دخولي أن الزعيم المؤسس هو أنطون سعاده. هو وقف نفسه على القضية وأنا وقفت نفسي عليها. لم يعد يعلو فوقها في سلمي القيمي أية قيمة حتى الحب، حتى حبي الشعري المتأجج.

بانضمامي إلى الحزب السوري القومي ولدت ولادة جديدة. أحسست أني لم أعد وحدي. لم أعد قادراً أن أتحرك إلا بضوابط وكوابح. أحسست أني أصبحت رجل قضية. صرت إنساناً جديداً. حدث في نفسي انقلاب فجائي مذهل.

إنني أستعيد وأنا أكتب هذه الذكريات وضعي النفسي وأنا أتوجه إلى منزل حبيبتي. لم يعد بإمكاني أن أنفذ أوامرها أو رغباتها، لأن أوامر ورغبات حزبي هي المفضلة، هي المقدمة هي الأولى في سلّم الأولويات.

أستطيع أن أعلن، أن مجرد انتمائي للحزب وقَسَمي الرهيب بالخضوع لنظامه وقراراته، فتح فجوة في حياتي العاطفية، فتح باب الصراع بين حبي لحبيبتي وحبي لحزبي وزعيمي.

لم ينته هذا الصراع حتى أطلقت زوجتي سنة ١٩٦٨، آخر نفس... عندئذ فقط أصبحت حرّاً في أن أمارس واجباتي الحزبية دون أن أقدم حساباً عن وقتي ورحلاتي ومسؤولياتي... وانتهى الصراع بين حبي وبين حزبي... لقد أصبحت بكليتي (ملكاً) للحزب.

هذه هي الحياة الحزبية، لا تقتضي المنتمي أن يجاهد ويكافح وينافح، ويتحمل شتى ألوان الحرمان، بل تقتضيه إذا كان مغرماً أن يلجم غرامه، لكي لا يكون فوق غرامه بالحزب والوطن والشعب أي غرام آخر... ثم تقتضيه أن يجاهد نفسه، فليس من السهل على الإنسان، أن يتخلى عن بعض نواحي ضعفه الإنساني في سبيل مثله العليا.

قال سعاده لأحد الأعضاء يوماً: «يا حافظ لا تجعل قلبك مقبرة لعقلك، أي لا تجعل حبك فوق معتقدك القومي والتزامك بالقضية».

يبدو لي هنا أن ليس من النشاز أن أذكر منذ الآن كيف أن جورجيت وكنت قد خطبتها من ذويها سنة ١٩٣٥، في شهر آب، قبل انكشاف الحزب بأربعة أشهر، أعرضت عني ونقمت عليّ، ونحن في طريقنا إلى بيروت ساعة سألتني هل تحب أحداً أكثر مني، فأجبتها: أحب أكثر منك الله وسورية، ولكن أحبك أكثر من نفسي، أكثر مما أحب نفسي...

غارت جورجيت من الله ومن سوريا؟... وقاطعتني أياماً...

ما دخلت الحزب عضواً بسيطاً، بل أسند إليّ سعاده فور انتهائي من القسم، عمدة الدعاية والنشر التي نسميها اليوم عمدة الإذاعة والتي أصبحت هكذا بعد تصنيف الدستور في ٢٤/ ١/ ١٩٣٧ كما أصدر مرسوماً بتعيين فؤاد سليمان أميناً للسر.

إن مسؤوليات العضو تظل ضئيلة في مقابل مسؤوليات العمد الموازية لمسؤوليات الوزير في وزارات الدولة، أي مسؤوليات قيادية ثقيلة الحمل على حد

تعبير الخليفة عمر بن عبد العزيز حين خاطب الشعب قائلاً: «إني أحدكم ولكني أثقلكم حملاً».

هكذا تبتدىء مسيرة الجهاد الذي ارتضيته، وهو جهاد مع النفس، ومع الحبيبة ومع خصوم وأعداء الحزب، ومع الأعضاء أنفسهم الذين كان علينا أن نبنيهم فرداً فرداً، وبأكثر ما يكون من الصبر والاحتمال وطول الأناة، وبأكثر ما يكون من الدقة والحكمة في حل المشكلات اليومية التي تواجهنا، داخلاً وخارجاً.

الحب هذا العسل المر:

لمن يريد المزيد من المعرفة عن انتمائي الحزبي ونضالي مع سعاده والرفقاء عليه أن يقرأ: «عبد الله قبرصي يتذكر» ـ تأسيس الحزب وبدايات نضاله التي صدرت في كتاب على حدة بعد أن نشرت في صباح الخير منذ ١٩٧٦. إني أخصص هذه الفصول من ذكرياتي لما أصابني كمغرم متَيم بجورجيت بربر وكيف أني سجلت انتصاراً على العذل والأهل ـ أهلي وأهلها ـ والمزاحمين والأضداد عندما تزوجتها فور خروجي من سجن الرمل في ٢٤/ ١١/ ١٩٣٥.

أقول انتصاراً وأعنيها، لأنني كابدت من المتاعب وخضت من المعارك، ما يبرر هذه الكلمة.

ولقد كان عدوي رقم واحد: «الغيرة». إنها غذاء للحب كما يعرف كل المحبين ولكنها غذاء للمرائر والعذابات المضنية في آن معاً. حلاوتها الوحيدة هي في ما يجنيه المحبون من العسل، بعد أن تُدمى قلوبهم والأعين... هذا العسل المر الذي يستطيبه العشاق، فإذا هو عسل رغم مرارته ومرارة رغم عسله.

في بتعبورة الكورة دروب للقمر (على حد تعبير فؤاد سليمان) بيضاء حتى

تكاد تخالها قمراً معلقاً بالأرض. يسمى أهل القويطع (الكورة الغربية) هذه الدروب دروب الروس، وهي الروس الفاصلة بتعبورة عن جارتها كفرحاتا.

كان الطامعون بيد جورجيت عدداً لا يُستهان به من أهل المنطقة، بعضهم ماتوا وبعضهم لا يزالون أحياء. وكنت أعرفهم واحداً واحداً، وإن لم تشر إليهم الحبيبة لا بعينها ولا بأصابعها لأنها أحياناً كانت تحترم شعوري بالغيرة. كان هذا الشعور اللاهب ناراً تحرق عنقها أحياناً لكي لا أقول شفتيها...

وكانت دروب الروس طريق العشاق... وطريق المرشحين للدخول في مملكة الحب، أو في الأقفاص الذهبية، تلك التي تجلس فيها الفتاة المحبوبة وتاجها الدلال والجمال... والشباب. العشاق يتواعدون مع القمر، أو مع العشيات الطرية، في الصيف والربيع، يدلفون إليها، تخفق قلوبهم والمهج...

ما كان عهدنا نحن أبناء جيل الثلاثينات، في القرى اللبنانية الصغيرة، عهد المراقص والملاهي... ما كان للعاشقين من الحرية إلا القسط اليسير، وأكثر ما كانت اللقاءات تحدث، بين العين والعين، أما بين الفم والفم فكانت شبه مستحيلة وإذا تمت فاستراقاً وعصياناً... لم تكن القيود في يد العاشقات بأقل مما هي في يد العشاق.

من هنا كانت دروب «الروس» ملجأنا للخلاص من الرقباء والمحاسبين والقيمين على قلوبنا... والشفاه. كانت نوعاً من كسر القيود والشرائع...

كنت أحضر مساء كل جمعة أو سبت، أيام الصيف، إلى بتعبورة، إلى بيت خاليها إبراهيم وفهيم. بيتهم القديم في القرية ـ الذي جدد مؤخراً وأصبح بيتاً عصرياً ـ كان قروياً رحباً، تتصدره فسحة وسيعة، فيها كان شباب القرية وشيوخها يتلاقون، فإذا للأكل والشرب مكان، وللشعر والأدب مكان، وللزجل أيضاً مكان...

في تلك الفسحة، كان يلتئم برلمان القرية الصغيرة وأحياناً برلمان المنطقة لدراسة حاجاتها ومطالبها والسعي وراء تحقيقها لدى المراجع المختصة.

ما أعجبني ولفت انتباهي، أن جورجيت كانت تشترك في المداولات، فإذا حجتها قوية ومسموعة، وإذا آراؤها نافذة. وما أعجبني أكثر أن زعامة المنطقة كانت معقودة اللواء لآل الخوري، ما طالبوها ولا طالبوا بها بل جاءتهم عفوياً سلسة الانقياد صادقة...

ما كان قصدي من الشخوص إلى بتعبورة والقويطع، أن أكون عضواً في هذا البرلمان القروي المتواضع؛ كان قصدي أن أسند رأسي إلى ذراع الحبيبة... كم كانت أحلامي خائبة... هل أسمِّي هذه الحالة اليتم في الحب؟

ولكن ألا يسمح لنا بنزهة على دروب القمر، على دروب «الروس»؟ كان ذلك ممكناً أو نادراً وأن بين عيون الرقباء والجواسيس والحسّاد... مرة خرجنا وشباب القرية وشاباتها معنا، فإذا الموكب تظاهرة لي، إذ كان الموكب يردد: قمر دِده هل وطلّ عٍّ دِده وبتعبورة. شمخ أنفي بهذه الحفاوة. ولكن ما لبث جوِّي النفسي أن أكفهر وتملكني الغيظ والغضب...

أحترق إلى أن أصحب الحبيبة متأبطاً ذراعها، لألامس، على الأقل ثوبها الناعم الهفهاف، لأشم عطر شعرها، لأسمع همسات صدرها... ماذا جرى؟ راحت تتأبط ذراع جورج سركيس... وأنا أسير وحدي، يكاد الدخان يصعد من رأسي ـ لقد تحول رأسي إلى بركان صغير.

كادت الغيرة تقتلني في تلك العشية الماكرة.

ولكني تمالكت نفسي، فالشباب يتظاهرون لي، محبة وتكريماً فهل أقطب حاجبيّ، أو أساير وأجامل فأتضاحك وأتظاهر بنشوة الاعتزاز.

إلا أنني بعد العودة أويت إلى الغرفة المخصصة لي، دون أن أكلمها.

شعرت أن العاصفة تهدر في داخلي... ولكنها ـ هي البريئة ـ إذ أي جرم

ارتكبت أن تتأبط دراع ابن خالتها ـ ما حسبت أن للعاصفة سبباً رغم إحساسها بالغضب المكبوت . . .

ثم في اليوم التالي عدنا إلى بيروت أنا والأستاذ إبراهيم دون أن أكلمها عقاباً عن «خطيئتها» علماً أنها بقيت مع أهلها ولم ترافقنا .

ما أن وصلت إلى العاصمة ، حتى قبعت في المكتب وحدي ، أنفث كل السم الذي في أعصابي ، وأدفع بكل الغيرة التي تتآكلني ، في رسالة صاخبة تكاد الكلمات فيها تحرق الورق ـ وأرسلت إليها هذه الرسالة لتوّي على عنوان لولو نصار ابنة عمتها وشقيقة العزيز على قلبي أسد نصار الذي لا يزال مع زوجته العزيزة من أعز الناس على قلبي .

الأحد التالي ، لم أتوجه إلى بتعبورة ، اخترت دوما ـ البترون حيث صديقي الطبيب الوطني الدكتور رشيد معتوق ، طبيب الشعب المحتاج وأبو المروءات والمكرمات . . .

إمعاناً في تكريمي ، دعاني الدكتور رشيد إلى رحلة إلى اللقلوق ، جبل تنورين الشهير بمناخه الطري صيفاً والثلجي شتاءً . امتطي مهرةً كان يربيها بعناية ورفق ، وامتطى هو حصاناً . ورحنا نتسلق التلال ، ثم ننحدر إلى واد يفصل بين دوما وتنورين ، ثم إلى اللقلوق . . . للدكتور رشيد صديق اسمه أسعد بك يونس ، كان مديراً للدوائر العقارية ومقرباً من سلطات الانتداب . قصدناه في زيارة فإذا الدار عامرة بالضيوف وعلى رأسهم أحد كبار موظفي المفوضية العليا الذي يفوتني الآن اسمه . . .

ما قبل رب الدار وربته أن تكون زيارتنا مجرد زيارة ـ قانون الضيافة في لبنان لا أروع ولا أبدع . تدخل بيتاً لصديق على مقربة من موعد الطعام ، غداء أو عشاء ، فإذا أنت أسير أهل البيت . لا يمكن أن تفلت إلا بعذر شرعي واضح ومقبول . لذا أسرنا أسعد بك وزوجته ، فاستسلمنا شاكرين . . .

الدكتور رشيد معروف ومحبوب، ورجل نفوذ شعبي كبير. أما عبد الله قبرصي فإنسان يطل على الحياة، مغموراً باليتم... والحرمان ـ أحسست فعلاً، رغم لطف أهل الدار وكرمهم، أنني غريب بين هذه الشلة من أصحاب الحول والطول. لو كان بإمكاني الهرب لهربت... الدكتور رشيد حاول إنقاذي، فدعاني إلى ركوب المهرة في ذلك السهل الجبلي الفسيح... طربت للفكرة ورحت أسابق الريح... وانطلقت المهرة كالسهم... وأنا بها فخور ومعتز. ما يشعر المرء أن السموات السبع ميدانه إلا على ظهر حصان أصيل.

ما أن رجعت، هاماً بانطلاقة جديدة، حتى رأيت أمامي صبياً لم يكن بعد قد بلغ العاشرة من عمره اسمه جورج، عرفت أنه نجل صاحب الدار. ركب هو أيضاً حصاناً وانطلق ورائي. فإذا الناس يتفرجون على حفلة سباق مرتجلة بين شاب وصبي تركض بهما الخيل كأنما تطير طيراناً... مهرتي حازت قصب السبق... فأخذتني النشوة وتشجعت فجلست مع الضيوف غير هيّاب ولا حيي. ما أثار دهشتي ـ أنا الشاب المحامي ـ أن ربة المنزل، بعد الغداء تأبطت ذراع المستشار ـ الفرنسي، وراحت تدله على مناطق اللقلوق وبساتين التفاح التي كانت قيد الغرس. كيف تتجرأ هذه السيدة الجميلة بحضور زوجها أن ترتكب هذا الخطأ؟ أجل، في ذلك الزمان كنت أعتقد مثل هذا التصرف خطأً فاحشاً.

كانت تعمل ممرضة عند الدكتور رشيد قريبة لي من قلحات من عائلة ستوت... كنا صديقين من أيام مدرسة الصفاء. ما الذي دفعها هي الممرضة أن تنصّب نفسها طبيباً وتسدي إليّ النصائح: «إياك أن تقرب المرأة. كل مرة تنام معها لا تعوض القوة التي تبذل بأقل من كيلوين من اللحم»... لقد فعلت هذه النصيحة في نفسي فعلاً سلبياً، فصرت أخشى أن أنام مع امرأة لئلا تستلبني قوتي. فيما أثبت الطب أن الكبت أكثر ضرراً من الفعل.

وعدت في اليوم التالي إلى بيروت وقد لوحت وجهي شمس اللقلوق، فإذا أنا كتلة احمرار. والتقيت الأستاذ إبراهيم دون أن أسأله عن جورجيت. كان حديثه معي ناشفاً... أوجست خيفة... ثم صبرت إلى أن جاء المساء وكنت أنام في دارهم، فما أن دخل غرفة نومه ودخلت غرفة نومي، حتى كان قراري قد اتخذ: يجب أن أطلعه على ما حدث بيني وبين ابنة أخته التي رباها وتبناها، وفعلت.

فإذا به يقرعني، ويخبرني أنه رأى جورجيت تخرج من غرفتها باكية، فاستدعاها سائلاً عن السبب، تلعثمت ثم دفعت إليه بالرسالة الصاخبة الغاضبة التي كنت قد أرسلتها إليها... على عنوان لولو نصار زوجة جليل سويد، قرأ الرسالة وأنّبها... وصفعها...

لماذا تكتب لها يا عبد الله رسالة بهذه اللهجة؟ ما بينك وبينها؟ بماذا تتهمها بأنها ليست الفتاة التي كنت تحلم بها؟ وبأنها لم تعد مثلَك الأعلى؟ ماذا لحظت عليها؟

ــ أنا آسف. لقد تسرّعت. أنا وهي ضحية حادث غيرة. تأبطت ذراع جورج سركيس وأهملتني. ثارت ثائرتي. طفح كيل النقمة. ما كان لي سبيلاً إلى الثأر، إلا أن أستثيرها، أتهمها، أطلق عليها رصاص الحقد والغضب... لماذا أهملتني. أما إنها تحبني أو لا. فلتقل لـي...

إبراهيم: هل أنت مستعد أن تعتذر؟

أنـا: مستعد. كيف لا؟ ما كنت أتصور أن الرسالة ستقع بين يديك. الآن أشعر بخطأي. لقد تسببت لها بالإهانة والشكوى. أقسم أنها بريئة. وأننا كلانا ضحية الغيرة القاتلة.

إبراهيم: إذاً أكتب لها رسالة اعتذار لأرسلها إليها غداً.

أنـا: حاضر. حاضر.

ورحت أكتب رسالة اعتذار.

ما أن دفعتها إلى الأستاذ إبراهيم، حتى أعادها إليّ...

ـ أهذا اعتذار يا عبد الله أم إصرار؟

ـ والله أحب أن أعتذر.

ـ إن هذه الرسالة أسوأ من الرسالة التي تريد الاعتذار عنها.

ـ إذن فلأغيّر الرسالة.

إصراري كان إصرار الكبرياء والغرور والغيرة. وغيرتها، فإذا بها رسالة حب. ورسالة اعتذار حقّاً. رضي بها إبراهيم، ولكن لا أعرف إذا كانت هي سترضى...

وكان الرضى... والغفران... والعناق الطويل.

وعدنا إلى الرسائل في جارور الماكنة.

انتقل آل الخوري إلى شارع جان دارك في ملك يوسف كنعان من عين كسور.

معارك مطرانية جبل لبنان مستمرة وحبنا مستمر...

تعلو حرارته وتهبط حسب ناموس الغيرة وملابساتها...

يا لحلاوة الحب... طالما أنك لا تستطيع أن تطال الحبيب إلا بعينيك الجائعتين...

أجـل...

ذهبنا مرة إلى الشام لنحضر حفلة تنصيب المطران الكسندروس جحا مطراناً على حمص وطرابلس... قد أكون مخطئاً فقد تكون حفلة تنصيب مطراناً آخر. المهم ذهبنا إلى الشام أنا وجورجيت وخالها وميشال الشويري أحد أركان حرب الأرشمندريت بولس في معركة الجبل. ميشال الشويري اسم يذكرني بالرجولة والصلابة والكرم والنزاهة والوفاء.

حضرنا حفلة التنصيب وكان الوقت صيفاً. في طريق العودة، دعانا الأستاذ إبراهيم إلى حفلة عشاء في البردوني (زحلة).

كل الطريق كان إبراهيم، تلطفاً منه وتسامحاً، قد أجلس جورجيت بيني وبينه... تلك كانت نعمة لا تقدر، كنت أشعر أنني محمول على أجنحة النسور. كنت أحس أني أملك الدنيا والآخرة. هكذا الحب العذري. ما يطمح بأكثر من أن يلامس الحبيب ملامسة الضباب الأبيض للزهور الحمراء..

ورحنا نحتسي الخمرة. يا للعرق اللبناني في بردوني (زحلة). إنه شراب الآلهة، تحيط بك الصخور الشاهقات، وتحت أقدامك النهر، والجمال يتدفق من المقاهي كما تتدفق المياه سخية فضية. إنها الجنة استوطنت البردوني فما بعده جنة...

شربت كما لم أشرب من قبل. لو أن في صدري ثرثاراً متيماً، لما سبقني فكاهة ومرحاً وسعادة... جورجيت إلى جانبي فأنا الحاكم بأمره أو الحاكم بأمرها.

ودبّ دبيب العرق في دمي، فإذا بي أريد أن أذبح النهر (نهر البردوني)... أريد أن أذبح النهر... لم يفلت مني وعيي، ولكني تظاهرت بانفلاته... كنت أقصد إذا بدرت مني أية بادرة غير رضية أن أغطيها بالسكر.

وجورجيت وخالها وميشال يقهقهون انشراحاً وارتياحاً... ويستزيدون من لغة ذبح النهر. وأنا أزيد وأزيد.

إلى أن حان وقت العودة، فإذا بنا نصعد إلى السيارة وقد تغيرت المقاعد. الأستاذ إبراهيم لم يقبل أن أجلس بقرب جورجيت. فصل بيني وبينها. كدت أثور. ولكن القهقهة استمرت. إلى أن مددت يدي وضربت ميشال كفاً على رقبته... كاد أن يتحول الكيف إلى زعل. فاستدركت الأمر، واعترفت أن الخمرة فعلت فعلها في عروقي.

ثم صمت . . . إلى آخر الطريق . قال لي ميشال : يا عبد الله إن زعران البسطة ما تجرأوا عليّ بصفعة ، فكيف تجرأت؟

قلت : إن العرق فعل فعله ، وهذه صفعة حبّ لا صفعة تحدّ أو انتقام . . . أو شجار .

وقبِلَ العذر ، ولكن بالفعل ، حزنت أنه بدرت مني هذه البادرة المؤسفة .

وكان الصمت . . . والنقمة على الأستاذ إبراهيم لأنه فصل بيني وبين جورجيت في تلك اللحظات المسروقة من قلب السعادة . . .

ونصل من جديد إلى العسل المـرّ .

الحبيبة تكاد تفلت من يدي :

الأيام تمر سراعاً ، والعسل المرّ طيب المذاق على ألسنة المحبين وقلوبهم . التقدم في المحاماة على قدم وساق ، والتقدم في الحب على قدم وساق . . . والعمل الحزبـي تترامى حدوده لتكاد تبلغ سورية الطبيعة كلها . لقد أصبح لنا فرع في الموصل . الاجتماعات تتوالى مع الكبار ، والصغار . يجب أن نفعل في طبقات الشعب كلها ، فلا تفوتنا فئة أو طائفة أو عائلة أو نقابة أو مزرعة أو دسكرة . والسرية مصانة الجانب ، لأننا كنا في القيادة والصف مؤمنين بأن انكشاف الحزب معناه الانهيار والتشتت . وأنا أوزع وقتي بين المحاماة والحب والتبشير والإدخال . . . بلغت أعتاب صلاح لبكي ، الشاعر والكاتب والمحامي المتفوق . وبمعونة سعاده والفنان يوسف الحويك أقنعته بالدخول ، وكان عليّ أن أدخله أنا وأن يقسم يمين الانتماء على يدي . . .

كنا قد تعارفنا في قصر العدل وعلى صفحات مجلة المعرض والصحف السيارة . وتلاقينا على منابر المحاماة ، معجب أحدنا بالآخر . صلاح لبكي كان أصبح عميق الجذور في قصر العدل وفي مقصورات الأدب . ثم إنه تزوج من السيدة

عائدة ابنة الأديبة الكبيرة سلمى صائغ وأبوه نعوم اللبكي أحد أوائل رؤساء مجلس النواب اللبناني في العشرينات إذا لم يكن أولهم.

إلا أن الزمن لا يمضي صعوداً فحسب. كل قمة تقابلها هوة، وكل صعود مرشح للهبوط. فجأة اجتمع بجورجيت في خلوة هادئة... وحدنا في الدار دون رقيب أو حسيب.

قالت: هل تثق بـي؟ هل تؤمن بأني أحبك حباً مخلصاً صادقاً وفياً؟

قلت: أجل. لماذا تطرحين هذا السؤال؟

قالت: (وقد اغرورقت عيناها بدمعة عصية) أريد أن أصارحك. أهلي يضغطون علـيّ وأنا أقاوم منذ مدة. عريس من أقربائنا في أميون هو الأستاذ المحامي ميشال رعد يطلب يدي وهم يؤجلون وأنت لا تزال مكانك. لا تزال تقبض رواتبك من خالي إبراهيم على التيسير. لا أعرف كم من الوقت ستجاهد ليصبح بإمكانك أن تتزوجني. إني رفضت بعناد طلبهم ولكن يبدو أن العائلة أجمعت على القبول بالخطيب الجديد وأن علـيّ أن أقبل بدوري. يجب أن نفترق.

قلت: صحيح ما تقولين عن رواتبـي ووضعي المالي إجمالاً، ولكن هل يمكن بهذه السهولة أن نفترق، هل يمكن بهذه السهولة أن تتداعى وأن تنهار قصور أحلامنا؟ أن ننسى وأن ننفصل... أن يصبح أحدنا غريباً عن الآخر.

قالت: يجب أن نلجم العاطفة. أن نحكّم العقل. يقف الإنسان وخاصة إذا كان فتاة ضعيفة أمام إرادة أهله كريشة في مهبّ العاصفة. إني أطالبك بتحكيم العقل. أرجوك أن تساعدني. إني مفجوعة، إني عاجزة أن أقاوم إرادة أهلي.

قلت: ولكن كيف يمكن أن يحدث ما يحدث. أين الخال إبراهيم ونفوذه. هو الذي يرعى حبنا منذ مدة بعد أن فاتحناه. هل يرفع عنا حمايته؟ هل يقبل بالهزيمة؟ هل أطرد من بيت خالي؟ هل تريدينني أن أنتحر؟

قالت: خالي قاوم معي. إلا أنه استسلم في الأخير. قال إنه معجب بك وأنه يحبك وأن لك مستقبلاً وأن الانتظار أفضل لي... ولكن صدّوه وهزموه. لقد أصبحت في سن الزواج ولا يجوز أن أبقى في البيت. عندي أخوات أصغر مني. عار أن أبلغ الثالثة والعشرين دون أن أتزوج.

قلت: حسناً... سأقبل بدوري ولكن على شرط أن تسمحي لي بزيارتك بعد زواجك، الفينة بعد الفينة.

قالت: إذا تزوجت سأسافر أو سأطلب إليك أن تسافر. أنا ما تعودت الخيانة ولا أنت تعودت. علينا أن نرضخ لمشيئة الأقدار. أن يهرب واحدنا من الآخر.

قلت: حسناً... قلتها وكأنها تخرج من فمي حشرجة وضيقاً ويأساً. وكان عناق... ثم وداع.. ثم رحيل.

الجرح الطري لا يوجع، يوجع الجرح بعد بضع دقائق، بعد بضع ساعات. العاصفة التي هبت عليّ، لم ترمني أرضاً، ولكنها خلخلت أعصابي... ما أحسست بالدم الساخن يسري في عروقي جهنماً آكلة.

خرجت من دار الحبيبة، منكس الرأس، مخنوق الأحلام، صفر اليدين، واهي القدمين... شارداً لا أدري إلى أين ـ إلى أين؟ إلى القضية من جديد أم إلى حبيبة أخرى؟

أجل ـ إلى التي كانت أيام الدراسة ملهمتي ولا أقول حبيبتي، لأن تعاطفنا ظلّ في حيز التعاطف... إلى ماري.. قلت «فلنداوها بالتي كانت هي الداء». لنهرب من الحب إلى حب آخر، لعلنا نصبّ في قلب الحبيب الجديد بعض الحمم التي تعتمل في صدرنا المحرور.

ووصلت إلى قلب معهد الحقوق حيث كانت العائلة الصديقة... كانت

ماري تشكو انحرافاً صحياً وإلى جانبها طبيب صديق هو الدكتور إيلي كنعان. سلمت وجلست. وكان عتاب.

العائلة، بالحفاوة التي قابلتني بها، بلسمت الجرح، ولكنها لم تداوِ الوجع. الجرح كان لا يزال نازفاً... والمعشوقة القديمة لا ترحب، لأنها هي أيضاً ناقمة. المرأة لا تغفر لمن كانت تعد نفسها بحبه، ثم فجأة يطير الوعد على كفّ عفريت، علماً بأننا لم نتواعد إلا بما يوحي بالوعد لا الوعد بذاته.

بت تلك الليلة في ضيافة العائلة العزيزة.

غرفتي كانت لا تزال تذكرني... ما تغير من رتابتها شيء... كان ينقصني وجه وجيه الحفار الهادىء المتأني المتأنق، وابتسامته المختصرة المفيدة.

الحبيب المهجور كالقفص المهجور، كالبيت المهجور، أكثر ما يرى أمامه الجدران المنهارة والآمال المتكسرة... الآمال المحطمة... الحبيب المهجور لا ترقد له عين، ولا يهدأ له بال، إن قلبه لم يعد في صدره.

في اليوم التالي، دعوت الدكتور جورج وماري إلى سينما روكسي لجلسة صباحية. كان عنوان الفيلم «راسبوتين» وكان صامتاً. نحن في سنة ١٩٣٥ في شهر كانون الثاني أو شباط. ماكانت بعد الأفلام الناطقة قد غزت واحتلت لبنان على ما أذكر.

وجلسنا، ماري في الوسط نحيط بها أنا وأخوها جورج. وبدأ الفيلم مثيراً. فراسبوتين شيطان أحياناً وأحياناً ملاك. إلا أن عينيّ كانتا هنالك، في رأس بيروت... وأذناي كانتا هنالك أيضاً وكان قلبي... ما كنت أستطيع التركيز ولا المتابعة. كنت هائماً.

تظاهرت أني مصاب بصداع. استأذنت وانصرفت. عرض عليّ الدكتور أن يرافقني فاعتذرت وطلبت أن يكمل وماري الفيلم وكأن سلكاً مغناطيسياً اجتذبني مكرهاً إلى رأس بيروت، إلى شارع عمر بن عبد العزيز حيث منزلها...

دخلت فإذا بالأستاذ إبراهيم وحده يجلس قرب كانون ملـيء بالفحم الموقد، متسربلاً بعباءة عراقية، وفي الصالون ذي النوافذ الزجاجية الشفافة حبيبتي وطالب يدها ميشال رعد يتحادثان.

طلب إلـيّ الأستاذ إبراهيم أن أجلس فرفضت. كنت في وضع يدعو إلى الحذر. كنت مضطرباً أكاد أرتجف غيظاً.

قلت: كيف تقبل بما يجري؟ كيف ترضى بأن يغدر بـي هذا الغدر.

نفض يديه، أنه بيلاطس آخر.

ثم قال: لست المسؤول. أهلها المسؤولون. أخبرتني أنك أنت أيضاً أذعنت. طالما أنك رضيت فلماذا تلومني؟ من منا يستحق الملامة؟

قلت: لا ولن أذعن. إن جورجيت لن تكون إلا لي، شئتم أم أبيتم. ظننتم أني أستسلم طائعاً مختاراً ككبش المحرقة. أنا قادر أن أكون الذباح لا الكبش.

قلت هذه الكلمات كأنما هي قذائف. وانصرفت بعد أن حدجت الجالسين في الصالة بنظرة حادة غضوب... وأغلقت الباب ورائي كأنما أحاول كسره. إغلاق الباب بهذه الحدة كان نذير شر.

وهمت على وجهي ذلك النهار، لا أعرف أين وكيف، إلى أن كان المساء. جرتني قدماي إلى ديارها. فإذا مائدة عامرة والأصدقاء يشربون ويتمازحون ويقهقهون. دخلت وحييت، فإذا بالأستاذ إبراهيم الجالس قرب ابنة أخته يتخلى لي عن كرسيه، فأجلس بتأدب الجريح، جلست وهي إلى جانبي وعلى رأس الطاولة طالب يدها.

قال أحدهم: من يشغل هذه الكرسي يجب أن يدفع خلواً... تظاهرت بعدم الفهم.

صبّت لي جورجيت كأساً من عرق رزوق. قلت: أريد أن أشرب في كباية. صبّت لي ما يقارب «البطحة»... وكنت أمسك بيدها لتفعل لأنها لم تصبّ لي بإرادتها إلاّ كأساً عادية. قليلاً من الماء والثلج وأفرغت العرق في جوفي بعد أن قلت للحاضرين: «كاسكم يا شباب».

دقائق والدنيا تدور بي. رأسي ثقيل. جفناي تكادان تطبقان على عيني فأنام على الكرسي. ما كنت معتاداً أن أكرع الخمر هكذا دفعة واحدة. الجرعة كانت فوق طاقتي.

استأذنت لأدخل مسلماً على الخورية الشيخة سكر، جدّتها، ودخلت... ما تمالكت نفسي.. كلمتين أو ثلاثة وغادرت غرفة الخورية لأدخل غرفة النوم، وأرتمي على السرير، تدور بي الأسرّة والوسائد... وأقاهر النعاس لأني كنت متأكداً أنها ستلحق بي.

كان فؤاد سليمان قد أهداني مسبحة ومسدساً صغيراً. كنت قد وضعت قذيفة في بيت النار. وكدت أن أغفو وأرتاح، عندما سمعت صوت جورجيت تدخل غرفة النوم وتنادي بصوت مخنوق: عبد الله. استعدت كل قواي ووقفت حتى إذا وصلت إلى باب غرفتي صفعتها صفعة قوية، صفعة مطعون بخنجرها. وأخذت المسدس أريد أن أطلق عليها رصاصة ورصاصة أخرى في قلبي. أخذتني بين ذراعيها. راحت تقبلني. حبيبي أنا لك، لن أكون لغيرك. سأطرد الأستاذ... سأكون لك. سنهرب معاً...

قلت: والله إذا لم تكوني صادقة، فلن تسلمي مني إذا سلمت الآن.

قالت: هات المسدس. نضعه في الخزانة ثم تعود إلى الطاولة. لا يمكن أن أغيب أكثر من ذلك...

انفرجت أساريري، أسقط المسدس من يدي. أنا لا أعرف الحقد. ليس بيني وبينه أي سبب أي رباط، أي علاقة. أنا عدو الحقد رقم واحد.

صببت بعض الماء على وجهي، ثم عدت ضاحكاً إلى المائدة. . . وأكملت السهرة مع الأخوان. هم يشربون العرق وأنا أشرب قهوة مرة من صنع جورجيت، يا للعسل المرّ مرة أخرى.

وفي آخر الليل ترافقت أنا والأستاذ ميشال الذي كان زميلاً وصديقاً. . . أقول كيف أصادق من يريد انتزاع قلبي من صدري؟ . . .

سألني: هل من علاقة بينك وبين جورجيت، فكذبت وقلت إنها بمثابة شقيقتي. . .

وكنت أريد أن أذهب ثانية إلى منزل ماري. . . فحملني إلى غرفته في فندق على ساحة البرج فيها سريران.

كانت الغرفة تطل على علب الليل، وعبد الوهاب يغني: «ناداني قلبي إليك». . . كدت أنفض عني الأغطية. أفتح الباب وأخرج لأهيم في شوارع المدينة النائمة. . . كاد يأخذ بتلابيبي عارض جنوني. . . كدت أنسحق أمام صوت عبد الوهاب: «ناداني قلبي إليك».

تركت الأستاذ يغط في نومه صباحاً باكراً، وتوجهت إلى المكتب في السمطية (جادة الفرنسيين) وتلاقيت والأستاذ إبراهيم. كنت قد لبست ثوب الجدّ، وقررت أن أعلن الحرب على كل من يقف مني موقفاً لا مبالياً. على الكل أن يقفوا معي. لا أرضى بموقف حيادي حتى ولو كان إيجابياً. المحايدون خصوم يلبسون ثوب الحياد المزركش بالغش والنفاق، كم أنا متساهل ومتسامح بالأمور العادية وكم أنا قوي وعنيد ومقحام في الأمور المصيرية. أنا الذي أتردد بقتل نملة مستعد أن أقتل إنساناً في سبيل الحق والمبدأ. . . والحب.

وانصرفت إلى العمل. كنت أركض في قصر العدل، من باب إلى باب، ومن دائرة إلى دائرة. أحضر الجلسات وأرافع وأدافع، وأتابع معاملات التنفيذ وكل

المعاملات القلمية. لم يكن لدينا في المكتب معقّب معاملات ولا متدرج، لألقي على أكتافه ببعض أحمالي. العمل في الحالات النفسية المعقدة، المتأزمة، حلاّل العقد ملطّف للأزمات.

ظللت بالأستاذ إبراهيم خوري مقرعاً سباباً وشتاماً في غيابه، منتقداً جارحاً في حضوره، حتى أقنعته بأن حياده خصومة وأن عليه أن يستدعي أهل جورجيت ويضغط عليهم أو يكتب لهم لائماً معاتباً. هو الذي رباها، يجب أن تكون كلمته المسموعة في تقرير مصيرها. أن من الظلم إذا لم نقل من البهتان أو على الأقل الاستضعاف أن تقهر ربيبته وتدفع إلى الزواج من رجل لا تحبه، تاركة رجلاً قامت بينها وبينه صلات حبّ كبير...

وقاطعت أنا شارع عمر عبد العزيز مقاطعة تامة. أدرت لجورجيت ظهري لا انتقاماً بل حرداً، ولأفهمها أن القاعدة القائلة بأن من يتهالك على المرأة تنبذه ومن يهرب منها تهرب إليه، يمكن أن تكون لي مفيدة، فأنا أعرف كيف أغضب وكيف أدير ظهري، وكيف أعض على جرحي وأتظاهر باللامبالاة...

تقتل المرأة لا مبالاة من تحب... يجب أن يكون العقاب معادلاً للذنب، إلا أن الأستاذ الخطيب ميشال رعد كان على موعد أن يحضر الأحد التالي مع أخته... فحضر ومعه الهدايا. وحضرت أنا مدفوعاً بقوة خفية لا أخالها إلا قوة الحب الذي كان يغلي في جوارحي غلياناً...

وبعد العشاء دارت لعبة «عروستي ضائعة»... يخرج أحد الحضور إلى الخارج، ويضمرون على أي شيء: قلم حبر، أحد الأشخاص، أحد الكتب... فإذا بالعريس يخرج... ويدور ثلاث مرات على كل الحضور ولا يحزر ماذا أضمروا له... أفرح أنا في سري كما فرحت جورجيت. يجب أن أكون أنا الفائز المتفوق.

أكتب هذه المذكرات والصديق ميشال صار تحت التراب. إني أكتبها بأمانة، دون أن أنسى أنه كان محامياً لامعاً. إني أكتب عنه الآن كمنافس دون أن أقيّمه تقييماً ذا طابع شمولي.. إني أذكر واقعة كما وقعت. فليعذرني القرّاء.

المهم أني خرجت بدوري وأضمر الحاضرون على شيء ما... ما أن طفت بثلاثة من الحضور حتى حزرت الضمير. فكاد الحاضرون يحملوني ويطوفون بي في شبه تظاهرة... كانوا كلهم من حزبي. من حزب الحب وحزب الوفاء في الحب.

في اليوم التالي قصد الخطيب أو طالب الخطبة مطرانية الأرشمندريت بولس في حدث بيروت. وتحدث الأرشمندريت مع ميشال وما لبث أن أسرّ إلى جورجيت أن «إياك أن تتركي عبد الله».

ربحنا الجولة.

إلا أن الصدمة كانت عنيفة.

وأهل جورجيت أصروا عليها أن تترك بيروت وأن تعيش معهم في الكورة، في بتعبورة عقاباً لها. يريدون أن تظل تحت إشرافهم المباشر، لا تحت إشراف خالها ونفوذ عبد الله قبرصي.

في هذه الفرصة، كانت فريدة، شقيقة جورجيت الصغرى، قد وقعت هي أيضاً في حب طبيب جديد من حامات هو الدكتور توفيق فرح. كانت فريدة صغيرة السن، فلما شاهدت الدكتور توفيق يقبّل يدها، ذهلت فعلاً. فقالت لي جورجيت: الدكتور ينتظرها حتى تنضج. وبالفعل انتظر.

كانت فريدة آية في الجمال. صوتها صوت عندليب أو كنار، قبلة أنظار المراهقين والمطلين على الحياة مثلها. أما الدكتور فرح، فقامة هيفاء، وعينان

كعيون المها، وفتوة ساحرة. . كل فتاة في القويطع وحامات كانت تعتبر أنها ملكة إذا لاقت حظوة في عينيه. وإلى ذلك كان «الحكيم» كما يسمونه في القويطع إنساناً رقيق الشمائل، خدوماً، صدوقاً، لا يسأل عن مال رغم أنه كان في حاجة إليه، فقد باع والده بعض أملاكه ليكمل دروسه الطبية في جامعة دمشق.

كان بيت الخوري وبيت بربر، بيت الدكتور توفيق أيضاً، يسأل الناس عنه إذا احتاجوه لغرض طبـي في هاتين الدارين. لقد أصبح بسرعة من أهل الدار.

وتعارفنا وتحاببنا. . . ولكن كان توفيق يخشاني وأنا أخشاه. أسهمه في البيت أغلى الأسهم وأسهمي كذلك.

كنّا مرة في نهر إبراهيم في حفلة أنس. . دارت حلقات الرقص. كنت ولا أزال أكرهه، رغم أني لا أرى فيه أكثر من رياضة، ووسيلة لانفجار الانشراح والبهجة والكيف. وجورجيت تحب الرقص وتجيده. دعاها الدكتور توفيق لمراقصته فلم ترفض. رحت أتابع جولاتهما وأنا غيران، مقهور، محترق. فلما عادا من الحلبة، سلمت على الدكتور ولم أعِر جورجيت التفاتاً. أحسّت أنها أساءت إلـيّ لأني فاتحتها مراراً بأن الرقص عندي مذمة وخلاعة. هكذا نحن الذين ربينا في القرى، ولم تفعل فينا عادات المدينة فعلها، كنا نشعر بأن كل خروج على المألوف، من جانب المرأة، نوع من التفلت و. . . الانحلال الخلقي والتمرد على الأعراف والتقاليد والأعراض.

وعدنا إلى بتعبورة.

وشربنا كعادتنا كل مساء في دار الأستاذ إبراهيم. وفعلت الخمرة فعلها. . . ما أن أوينا إلى فراشنا وصدف أن كنا في غرفة واحدة أنا والدكتور توفيق، حتى رحنا كلانا نتقلب في سريرنا، والأرق سهران معنا. . كان توفيق البادىء بالكلام: ما لك لا تنام يا عبد الله؟

أجبت: لا أعرف ماذا يؤرقني.

قال: تعال نتفاهم.

فوجدتها فرصة سانحة للتفاهم حقاً. كنت أعتقد أنه يحب جورجيت، وكان يعتقد أنني أحب فريدة، لأنها أصغر منه سناً وفريدة أصغر من جورجيت.

جئت إلى سريره وجلست على طرفه.

وسألته: ماذا تريد؟

قال: من هي حبيبتك جورجيت أو فريدة؟ يجب أن نتصارح. أنا أغار منك وأنت تغار مني. لا أنا بقادر أن أخفي غيرتي ولا أنت بقادر. ونحن صديقان فأصدقني القول.

قلت، بلا مواربة ولا تلكؤ: أحب جورجيت.

قال: وأنا أحب فريدة.

وتعانقنا... وتفاهمنا...

اغتنمتها فرصة لأحدثه عن الحزب. هو زينة شباب المنطقة، فإذا أقنعته ربحت المنطقة كلها. كنت قد جربت حظي مع أديب بربر، ابن عم جورجيت، فإذا به يستجيب وأدخله. كما كنت قد فاتحت أسد نصار فاستجاب. فإذا ربحت الدكتور، فتلك الطريدة الدسمة.

وتابعت في الأيام التالية عندما لم ألقَ رفضاً منه. هو خريج جامعة دمشق، ومنها تخرج اللبنانيون والشاميون، مؤمنين بالوحدة السورية، ملتهبين بالشعور الوطني الاستقلالي.

وكان لي ما أردت. رفع الدكتور فرح يده وأقسم.

رحنا نحب سراً كلاً من جورجيت وفريدة لأن أهل القرى لا يرتاحون

لعلاقات بين شاب وشابة، إلا إذا خطبا الواحد الآخر . . . كنا نتظاهر بأننا لا نزال في مرحلة الاختبار المتبادل .

بعد أن ربحت الدكتور وتفاهمنا، تركته يبني منطقة القويطع حزبياً. ما مرّ شهران أو ثلاثة حتى كانت القرى كلها تغلي بالعقيدة الجديدة. الدكتور فرح عيّن منفذاً عاماً (باللغة الإدارية الحزبية) أي قائد المنطقة كلها .

أما أنا بعد حادث الأستاذ ميشال فقد أحجمت عن المجيء كالمعتاد إلى بتعبورة. أحجمت وكدت أن أعود إلى أحضان حبي القديم، ذلك الحب العذري المكتوم عن الحبيبة نفسها. إلى أن طرأ تطور جديد على وضعي المادي .

كنت قد تعرفت إلى المحامي الأستاذ سليم أبو إسماعيل من دير بابا (المناصف ـ الشوف) وكان له مكتب صغير في شارع المعرض. أوكل إليّ دعوى في المجلس العدلي المختلط، تدور حول أحكام إعدام غيابية بحق اثني عشر من فرسان جبل العرب (جبل الدروز)، يبدو أنهم كانوا مشتركين في ثورة ١٩٢٥، ضدّ الانتداب الفرنسي. قال لي الأستاذ سليم: ترافع عني في هذه الدعوى، فإذا ربحتها سأسلمك مكتبي وكل ما فيه من دعاوى بعد مدة قصيرة، لأني سأعيّن قاضياً في طرابلس. . . العرض مغرٍ جداً، إلا أنني ما حملته على محمل الجدّ. ولقد طربت لفكرة المرافعة أمام المجلس العدلي في دعوى هامة. قد أركبها حصاناً للشهرة ولفتح مجالات جديدة للنجاح تصل بي إلى القمة .

من أطرف ما حدث لي، وقد مثلت أمام المجلس العدلي، في تلك الدعوى العامة، أني وجدت إلى جانبي الأستاذة نينا طراد، زوجة الرئيس شارل حلو حالياً. فحدجتني بنظرة قاسية وقالت لي: كيف تقبل الوكالة عن المتهمين، وثابت في محضر الدعوى أني وكيلة عنهم، قبل أن تستأذنني؟

قلت: بأي قانون أستأذنك. ألست حراً في التوكيل عمن أشاء؟

قالت (باستهزاء): عد إلى نظام نقابة المحامين واقرأه بإمعان قبل أن تجاوبني.

خجلت من قصوري إلا أنني لم أبالِ. أعرف أن الخطيئة لا تعدو كونها خرقاً لقواعد السلوكية المهنية، لا تترتب عليها مسؤولية كبرى.

وترافعت وكانت النتيجة بتبرئة الإثني عشر متهماً. لا أذكر أن الأستاذة طراد استمرت في الدعوى بعد موقفي اللامبالي من اعتراضها الأصولي.

جاءني سليم أبو إسماعيل، مهللاً مكبراً، عانقني وهنأني. وقال لي:

سأفي بوعدي بعد حين.

فرحت بالانتصار ولم أطمئن للوعد... هؤلاء المحامون زملائي، وعودهم عرقوبية، وكلامهم مشوب أحياناً بالحيل الشرعية، يستنبطون ألف حيلة وحيلة للتملص من تعهداتهم، كما يستنبط علماء المنطق، الحجج المتناقضة لإثبات أو نفي أمر معين. ووفى الأستاذ سليم أبو إسماعيل بالوعد بعد أن عيّن معاوناً لمدعي عام الشمال. انتقلت إلى مكتبه واستلمت ثمانين دعوى قيد النظر. ورحت أساوم الزبائن وأقبض بالعملة الذهبية مبالغ محترمة. وكلما قبضت مبلغاً جديداً أرفع قبضتي بيني وبين نفسي مهدداً جورجيت متوعداً... كادت تخونني... ويلها من غضبي... إلا أنني ما أزال أحبها حباً عصبي المزاج غضوباً.

بلغ ما جمعته في شهرين ما يقارب المئة ليرة ذهبية. وتراكمت عليّ الأشغال. وبدأ اسمي يلمع في محيط بني معروف. وكلما أحرزت نجاحاً، كان عقلي الباطن يصيح بي: إنك تقترب رويداً رويداً من جورجيت. كان حبي لها قد طغى على كل شيء. إلا أن كبريائي ما كانت تسمح، بعد صدمة الأستاذ ميشال رعد، أن استسلم من جديد قبل الحصول على الاعتذار اللائق والصادق معاً... من هنا كان تظاهري بالمقاطعة الجدية. ليس من إنسان، رجلاً أو امرأة تتهالك في

إكرامه وتظهر له المودة إلا ويعرض عنك. المستوى الصحيح هو أن يكون كل شيء متبادلاً وإلا اختلّ توازن العلاقات حتى العاطفية منها.

وكنا في يوم من أيام آذار ١٩٣٥، نتعشى معاً أنا والأستاذ إبراهيم خوري وحدنا في مطعم آل فتوح... لا أذكر إذا كان ألبير أديب (صاحب مجلة الأديب من بعد) قد دخل على خطنا ونحن في حديث حميم... كان ألبير أديب من أصدقائي الجدد، يأسر السامعين بحديثه وأدبه وظرفه، هو مؤسس وصاحب مجلة الأديب الشهيرة. قال لي الأستاذ إبراهيم: هذا الصباح نزلت مع جورجيت إلى بيت الأستاذ سليم أبو إسماعيل في طرابلس. تعرف أن زوجته رفيقتها في المدرسة وهما صديقتان حميمتان.

فقلت له: يا سلام ـ عندي جلسة بعد غد في طرابلس.

قال: جلسة من؟ قلت: جلسة فلتان على علتان، ذكرت أسماء اخترعتها اختراعاً.

دقّق معي لأنه بعد كل ما حدث، ورغم موافقته على حبي لجورجيت، لم يكن يرضى أن أنفرد بها، خاصة في طرابلس بعيداً عن رقابته ورقابة أهلها...

إلا أنه لم يكن بمقدوره أن يحول بيني وبين حضور جلسة في محاكم طرابلس.

فحزمت حقيبة صغيرة، وحجزت مقعدين قرب السائق من كاراج عزمي على ساحة البرج، وانطلقت لا ألوي على شيء ـ كانت الليرات الذهبية تتكتك في جيبي ـ (لكي لا أقول تزغرد) وأنا أنتقم بها من الفقر والحرمان والعوز... لم أعد بحاجة لرهن ساعتي كل أسبوع مرة ـ ثم لم أعد بحاجة لمال الأستاذ إبراهيم خوري الذي كان في آخر أيامه معسراً.

لقد تحرّرت من الحاجة ولو إلى حين.

وانطلقت باتجاه الشمال. وإذا البرق والرعد والعواصف والأمطار، تتكاتف كلها لتعطيل الرحلة... السيارة نفسها، لم تكن جديدة، فإذا البرد والمطر يخرقان ستائرها، وإذا بها تدلف من سطحها... كانت حقيبتي صغيرة وضعتها إلى جانبي في السيارة، فاستعنت بها، لكي لا يبلّل الدلف رأسي، ولا يبلّل بالتالي ثيابي الجديدة. توقفنا في نهر إبراهيم. كنا أربعة. طالب ثلاثة منّا بأن نبيت ليلتنا في أحد فنادق النهر. رفضت بحزم. وقلت للركّاب: متى كان المطر يخيف الرجال. إن الرؤية حسنة، وأضواء السيارة كاشفة إلى مسافة بعيدة، ولا خطر علينا ولا من يحزنون.

فأذعن الركاب للتحدي. وسكتوا... والسائق كان رب عائلة تنتظره، فتابع المسير. وصلنا إلى طرابلس، في ذلك الليل العاصف البهيم، تحت الخطر والمطر، حوالي الساعة الثانية عشرة ليلاً... الطريق القصيرة استطالت، والساعة والنصف صارتا أربع أو خمس أو ست ساعات... كل ذلك لا يعني لي شيئاً. ما عني لي شيئاً. كان المهم أن أصل فوصلت.

لم يكن من اللائق أن أطرق باب آل أبو إسماعيل في تلك الساعة المتأخرة، فتحولت إلى بيت خالي حنا. كانت قد مرت أربعة أشهر لم أطل عليهم، ولا كتبت لهم... كنت مستغرقاً بكليتي في معركة كسب المال لبناء القفص الزوجي. أفاق أولاد خالي وكانوا قد صاروا فتياناً فتسابقوا كلهم من جورج إلى فايز إلى موريس إلى نبيه إلى نجيب إلى خليل إلى سمير إلى أنجيل ليقبّلوني. كانوا يعرفون أن هديتي لهم مضمونة. ما قابلتهم مرة إلا والفرنكات تنهمر عليهم كالمطر... أولاد خالي كانوا إخواني الصغار. ألم أربَّ في بيتهم؟.

سهروا معي حتى الثانية صباحاً. فإذا بالخال وامرأة الخال مقبلان من سهرة عائلية طالت حتى تلك الساعة المتأخرة. كان أيضاً اللقاء حاراً. وبادرني خالي

قائلاً: تلاقيت مع الست جوزفين ابنة شقيقة الأستاذ إبراهيم مع صديقتها في سوق الصاغة (لم يكن يعرف اسم جورجيت جيداً).

قلت: أصحيح أنها هنا؟...

كان خالي يريدني أن أتزوج صبية غنية من (كفر صارون). ولم يكن يرى أي خير لي في الزواج من جورجيت لأنها لم تكن ثرية، رغم ثرائها في الأخلاق والعلوم.

ما تظاهرت بالاكتراث.

وغلبني النعاس فنمت بعض ساعات، حتى إذا طلع الصباح هرولت إلى ثيابي، فلبستها كأنما أنا في سباق مع القدر على أمر جلل وانتظرت في الشارع العام إلى أن وجدت تاكسي دون أن أنسى توزيع الفرنكات على أولاد خالي.

كنت أعرف أين موقع بيت المدعي العام، فإذا لم أجده وافيته إلى السراي.

ووصلت إلى ساحة حولها بنايات جديدة. فراح التاكسي يستعمل زموره... يكاد يقلق الحي والشمس ورأد الضحى.

عرفت فيما بعد أن جورجيت قالت لصديقتها: هذا عبد الله قبرصي محام جديد يتدرج في مكتب خالي... قلبها كان دليلها. كانت في حدسها الملهم تدرك أني لا بدّ عائد إليها... وأن أيامنا الأولى، أيام حبنا الكبير نحن إليها راجعون.

ودخلت الدار، هياباً، لأني لم أكن قد وثقت علاقاتي بعائلة سليم أبو إسماعيل كما وثقتها به شخصياً. إلا أنني لم أشعر بالغربة.

وكان لقاء تناجت به عينانا، عيناي العاتبتان وعيناها المشتاقتان التائبتان.

وانفتح باب كان نصف مقفل. وبعثت من مكامنها الذكريات واللواعج والأماني. وكان سكوت وترقب سانحة نتعانق فيها وننصهر من جديد قلبين في قلب وروحين في روح.

وجاءت المناسبة.

كان مرقدي في الصالة. وكانت غرفتها على مقربة منها. تواعدنا أن أتسلل إليها أو تتسلل لي، لنضع خطة المستقبل . . تلك الليلة تاريخية ومنعطف.

خلالها جددنا العهد، ومسحنا بعناق طويل وحار كل آثار الأسابيع الماضية. . . التيار الذي كان يتحرك في فراغ، تحرك من طرفين متوازيين. . . شعرت أن قلقها لم يكن أخف من قلقي، وأنها ما خانت ولا خنثت بالعهد وأن العزم انعقد بدون قيد ولا شرط لتأمين زواجنا بأسرع وقت. في تلك الليلة وقعنا عهد الوفاء والإخلاص، على شفاهنا المحرورة أرقد على ذراعها وأسمع خفقان صدرها، ثم ترقد على ذراعي وتسمع خفقان صدري.

في تلك الليلة وقعنا عقد زواجنا بالأحرف الأولى. . .

وأفقنا في الصباح غير الباكر، ورحنا نزقزق كالحساسين إذ نتناجى في أيام الربيع، طالبة ذكورها، فالربيع فصل زواج العصافير.

لو أن السعادة تكمش باليد، تحصر بين الأصابع، لكان بإمكان أي مخلوق واعٍ وذكي، أن يتلمسها في عيوننا، ويقبض عليها، لتكون تجسيداً للسعادة على الأرض. . . تلك السعادة التي لا تكتمل إلا إذا تلاقى قلبان، ذكر وأنثى، وتعانقا وتشابكا وتعاهدا على الحب حتى الموت.

لقد تعاهدنا على الحب حتى الموت.

وكنا بارِّين بالعهد. . . لقد ماتت وأنا لا أزال أعبدها إن لم يكن بقلبي فبعقلي. لقد جسدت الوفاء والإخلاص والتضحية حتى الاستشهاد. لم يخل آخر النهار من عوائق. . . ظللت بالحبيبة حتى أقنعتها بالذهاب إلى السينما وحيدين. وطرابلس بالليل كانت غير محمودة العواقب لرجل وامرأة يسيران في طريق غير

مأهولة. إخواننا الطرابلسيون كانوا ـ وبعضهم لا يزال ـ غير قادر على احتمال رؤية رجل وامرأة يتغازلان في مكان غير مأهول.

ومع أني ربيت في طرابلس وأعرف هذه الحقيقة، أصررت على السينما... وسمعت وأطاعت. وحضرنا فيلماً غرامياً أثار منا الأعصاب والشهوات. وكنا لا نزال نزقزق بأصوات خفية... أصوات كوشوشات الحصى للأعشاب في مجرى نبع عقيقي. فإذا بجورجيت تنتفض فجأة. تقف. وتمشي، وتطلب إليّ أن أتبعها. ففعلت حائراً. وسرنا في طريق منعزلة. كنت لا أزال أحمل مسدس فؤاد سليمان وكانت الرصاصة في بيت النار. شعرنا بفتى يتبعنا. أخذت المسدس ووضعت يدي على الزناد... جورجيت أسرعت، فطلبت إليها أن تسير معي، لا تتأخر ولا تتقدم.

ولتثبّت لي أنها شجاعة، فعلت، إلا أنها كانت ترتجف. فجأة تراجع الملاحق... واختفى بين البساتين. تنفسنا الصعداء. وأسرعنا الخطى لكي لا نقع في مكمن آخر. ووصلنا وما لبثنا دقائق حتى وصل فجأة الرقيب الحسيب الأستاذ إبراهيم خوري...

يا لحدس جورجيت الذي لا يخطىء ـ ترى هل كان الأنبياء يرون المستقبل بحدسهم المرهف ويسمون ذلك وحياً؟

ما قسا الرجل بنا. يلين الحجر الصلب عند نداء الحبيبين... إنها سنة الحياة، تدفع بالشاب والفتاة إلى العناق دفعاً... لا تستمر الحياة ولا تنمو، ولا كانت البشرية لولا هذا العناق، لولا هذا الحب الإلٰهي.

ثم أليس حبنا مثلاً أعلى للحب. إنه ليس نداء الجسد للجسد فحسب، إنه نداء الروح للروح، والوجدان للوجدان بل العقل للعقل. إنه نداء الانسجام الكلي في حب الوطن وحب الناس. إنه التوافق على بناء عائلة لا من أجل الكسب

والجاه، بل من أجل الحياة بوجهيها المادي والروحي، من أجل النضال في سبيل حياة أفضل لنا وللشعب. . .

هكذا يكون الحب. بل هكذا يجب أن يكون.

أيام الخطوبة: نرجس وياسمين:

أنا والدكتور توفيق فرح صرنا حديث المنطقة. أينما اتجهنا ففي بتعبورة، قرية جورجيت وفريدة، كنا نلتقي. . . ثم كانت أيامنا في بيروت قد فتحت ذراعيها المغلقتين. زالت الحواجز، زالت الرقابة ولنقل خفت، لأن العين الساهرة كانت ترسل أنوارها الكشافة بين الحين والحين لكي لا تصبح حريتنا فوضى وتسيّباً وفلتاناً.

الدكتور توفيق نشط حزبياً، فإذا قرى القويطع تسير وراءه. . . فلم تخلُ قرية واحدة من قفير نحل سوري قومي. أكثرية الشباب المثقف تلقّفت العقيدة واستقرت بها نفساً كأنما كانت تبحث عنها فوجدتها، متى تجرد اللبناني من العصبية الطائفية لا يعود يحتاج لمن يقنعه بالوحدة السورية على أساس قومي اجتماعي يلغي العصبيات الطائفية إلغاءً كلّياً.

كان العمل الحزبي في منطقة القويطع بقيادة الدكتور فرح يجري تحت ستار كثيف من السرية واليقظة، فلا تدري به لا جورجيت ولا فريدة. كان الأعضاء يجتمعون ليلاً في البرية أو في الأماكن المنعزلة ليتلافوا أعين الرقباء والفضوليين.

ما كان هنالك في حياتنا الخطوبية أي مجال للاختلاف على أي شيء. كل خلافاتنا ـ وأشدد على كلمة كل ـ كانت ناشئة عن الغيرة. سبق وأشرت إلى هذا العامل الغريب، وأعود إليه لأنه كان السم في شرابنا وطعامنا وعلاقاتنا اليومية. الغيرة غذاء للحب إذا اعتدلت ومرض عضال مفسد للحب إذا تطرفت. إنني أكرر هذه اللازمة كي لا تبقى في حيزي ويقيني وحدي بل لتصبح قاعدة عامة!.

فجأة ودون سابق إنذار، ونحن نسير على الطريق، أو نحضر عرساً أو مأدبة، أو نجلس في صالة منزل الخطيبتين، كانت تصدر عن جورجيت أو فريدة أو عني أو عن توفيق كلمة، إشارة، لفتة، فإذا الجو يتجهم، وإذا البرق والرعد... والمطر... وإذا الصواعق والزوابع.

كان يحدث أحياناً أن يختلف توفيق وفريدة، فنشتفي أنا وجورجيت بهما. نتغامز. نتمازح فنثيرهما... ولكن ما تمضي أحياناً دقائق إلا والحريقة تندلع في بيتنا نحن الاثنين. هكذا تتم المقاطعة الشاملة. نذهب أنا وتوفيق حزينين غاضبين... اللعنة على أفواهنا! هل يجوز ـ وقد جئنا من بعيد، أن نقاطع اللتين اجتذبتانا من هذا البعيد؟

إلا أن كبرياء الرجل واعتداده بنفسه واستملاءه على المرأة، كانت تفعل فعلها عندنا رغم ثقافتنا واعترافنا بأن المرأة شريكة لا تابعة.

ذهب كل منا إلى مأواه. الدكتور توفيق إلى عرزال أرستقراطي في جوار دارة آل صقر على «الروس»، وأنا إلى غرفة نوم فسيحة في دار آل الخوري، كنت أتقاسمها مع الأستاذ إبراهيم. كنا قد شربنا. الأستاذ غرق في سبات عميق كنت أسمع شخيره، إلا أنني حسبته يتظاهر بالرقاد ليحصي عليّ حركاتي وسكناتي. كان يعرف أنني وتوفيق نسرق الليل لنختلي بالحبيبتين.

قمت أتمشى في الغرفة وأتمتم: «يا الله ما هذه الليلة الحارة». كيف يمكن أن يغمض لي جفن ـ يا خال إبراهيم «الأفضل أن نخرج إلى «السطيحة» حيث قليل من الطراوة وضوء القمر».

سألته بصوت عال: ألا تريد أن نخرج معاً؟

لا جـــواب.

أيقنت أن الخال يغط في نوم هادىء. خرجت وقد وضعت حذائي تحت

إبطي، ورحت أزرع «السطيحة» خطى خفيفة الوطء جيئةً وذهاباً، وأقول بصوت عال: جميل هنا الطقس وطري. ليتنا نأتي بفراشنا وننام في العراء، في ضوء القمر.

لا جـــواب.

تسللت على مهل من السطيحة، ماراً بجوار بيت الخال سليم لطف الله الخوري، متجهاً إلى بيت عمي نخول بربر، حيث تقوم على مداخله دكان يعقوب بشارة (بتعبورة).

يا للمفاجأة، رأيت على الرجمة المحاذية للدكان الدكتور توفيق جالساً القرفصاء وبكل يد من يديه حجراً يضرب به جبهته ويتمتم: الله يلعنك يا توفيق فرح، هذه الصغيرة فريدة تجرك إلى دارها، وتتكبر عليك وتتجبر، كان توفيق ثملاً لكي لا أقول سكراناً.

داهمته في تلك الحال، فسرته المفاجأة. رحنا نتحدث، نتشاكى، ونمعن في لوم جورجيت وفريدة. وأخيراً صممنا على مهاجمة غرفتهما. استرضاءً أو استعطافاً أو عتاباً أو. . . لوماً. أقسى عقوباتنا كانت اللوم الملطف والمضمخ بعبير الحب.

نجحت أنا وأخفق توفيق، لحظات ورأيته يتصايح مع فريدة وترمي بوجهه خاتم الخطوبة، فيما رحت أقهقه أنا وجورجيت، ثم نحاول الإصلاح بينهما دون جدوى. . .

نمت تلك الليلة منتصراً ونام توفيق مهزوماً. . .

هكذا كانت تمر أيام الخطوبة شجار ثم لقاء ثم عتاب. . . ثم عناق. . . ثم شجار من جديد. . . ليس للخطوبة معنى إذا كانت لا تمر بمثل هذه الانفعالات والانفجارات. . . لتعقبها المداعبات والقبلات. . . كل استقرار طويل يحمل رائحة المستنقع. . . كل تحرك يحمل وشوشات النبع للحصى ومسيرته نحو البحر، بعد عناق مع التراب والأعشاب.

الحبس والعرس والزواج:

بعد أن تعاهدنا وتعاقدنا، كان يجب أن نفكر تفكيراً مسؤولاً بالمستقبل. الواردات، رغم الاستيلاء على مكتب الأستاذ سليم أبو إسماعيل، لم تكن كافية. الخال إبراهيم والخال فهيم لم يكونا ميسورين بسبب إنفاقهما على معركة الخال بولس كما سبق القول. كان عليّ أن أتدبر أمري بالتي هي أحسن أو بالتي هي أسوأ. الخطوة الأولى كانت في إيجاد منزل وإيجاد بدل أجاره. وقعنا على المأجور في ملك الأستاذ جميل الحسامي وراء المستشفى العسكري الفرنسي الذي كان معروفاً بسان جان بين شارع كليمنصو ومحطة الديك. إنه اليوم مقرّ السفارة الفرنسية. بدل الإيجار بلغ إلى ٣٦ ليرة عثمانية ذهباً. المنزل في الطابق الرابع، في نفس الطابق الذي يقطنه آل الحسامي أنفسهم.

كيف العمـــل؟؟

كنت لا أزال أملك قطعة من الأرض السليخ تسمى «الدوارة» مساحتها حوالي ٢٨ دونماً مع ما حولها من سليخ. ما كانت تدرّ عليّ بارة واحدة! صممت على بيعها ورحت أبحث عن شارٍ، فوقعت على سمعان موسى (لا يزال حياً يُرزق) فاشتراها مني بخمسين ليرة ذهباً (تساوي اليوم حوالي الثلاثة ملايين ليرة حسبما قيل لي). ثم الأرض السليخ المحاذية لها بنفس الثمن اشتراها ابن عمتي نصر ساسين.

قبضت المبلغ ورحت أسابق الريح إلى بيروت فأدفع بدل إيجار المنزل عن سنة سلفاً وأشعر منذ تلك اللحظة أنني أصبحت زوجاً. جئت بجورجيت لتشرف على التنظيفات والتأثيث. صرفنا الكثير من ليرات الذهب الواردة من مكتب سليم أبو إسماعيل وبقي القليل.

وبدأت الهدايا، لا أزال أذكر منها ثريا كهربائية من الاستاذ موسى سليمان، وكانون نحاس شامي فخم من الأستاذ مخائيل الرويهب، وبردايات للدار من آل العروس، وسجادة فرنجية من مالي الخاص، وبعض الأثاث المستعمل الجيد من خالها فهيم...

الأرشمندريت بولس كان يخوض معركته. فلم نتكل عليه بشيء في ذلك الحين... كان قد سافر إلى القاهرة بقرار من البطريرك الأرثوذكسي الكسندروس طحان، كما ذكرنا سابقاً.

ثم تصالحنا مع العم مخائيل قبرصي، لنا منه غرفة سفرة، جلبناها من طرابلس، سدّد هو قسماً من ثمنها ودفعنا نحن الباقي أقساطاً كانت ترهقنا وترهق العم مخائيل لكثرة ما كنا نتأخر ونتهرب من الدفع.

إذا كان هذا القفص هو ما تعارف الناس على تسميته «القفص الذهبي» فنسمح لأنفسنا بنقض هذا العرف فنسميه «القفص الخشبي أو الطيني». المهم أن أصبح لي بيت ذو سقف وجدران، لأول مرة في حياتي أتصرف فيه بحرية وسعة... فلا هو بيت خالي، ولا هو بيت عمي ولا هو بيت خالي الجديدين إبراهيم وفهيم الخوري... لقد حصلت على نعمة الاستقلال على الأقل في السكن.

وعيّنا موعد الإكليل في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٥. واتفقنا على أن يجري برئاسة المطران الشاعر أبيفانيوس زائد، مطران عكار منذ ذلك الزمان.

لماذا المطران أبيفانيوس؟

على إثر المؤامرة على المطران بولس خوري وإسقاطه في انتخابات مطرانية جبل لبنان الأرثوذكسية، لإنجاح المطران زخريا في المرة الأولى، والمطران إيليا كرم في المرة الثانية، أعلنا الثورة على البطريرك الكسندروس الطحان وكنت أنا بين المعلنين إكراماً للأرشمندريت بولس الخوري، وانشقينا عن الكنيسة الأرثوذكسية القائمة لنؤسس كنيسة أورثوذكسية جديدة برئاسة جديدة أسميناها الكنيسة الأرثوذكسية المستقلة.

هكذا في طائفتنا الأرثوذكسية تستتبع الديمقراطية الشقاقات، فما إن ننتهي

من الشقاق، حتى نقع في آخر. كانت قد أعيدت الوحدة إلى البطريركية الأنطاكية بعد وفاة البطريرك الحداد، فعقدت رايتها للبطريرك الطحان، وما إن استتبّ له المقام، حتى راح يتآمر على مناوئيه وأخصامه حتى مريديه، لأنه كان دكتاتوري الطبع، مستبد الرأي، عصبي المزاج، حقوداً وانفعالياً رغم ذكائه النادر وعلمه وقوة شخصيته.

واتفقنا أن تكون الإشبينة هولندا بربر صعب ابنة عم العروس. والإشبين الزعيم أنطون سعاده. ولما كانت قد نفدت كل توفيراتنا، لجأنا إلى إميل وفوزي عازار، اللذين كان مكتبهما التجاري في مركز الحزب ـ الشركة التجارية السورية شارع فوش، واقترضنا منهما خمسة وعشرين ليرة سورية لسدّ النفقات بما فيها نفقات شهر العسل. (كان للقرش في ذلك الزمان قيمة ورهجة).

قصدت الزعيم في غرفته في رأس بيروت، شارع المقدسي اليوم. تعارفنا أن نسميها كوخاً لكثرة ما كانت متواضعة ورخيصة... قلت للزعيم: إن التقاليد تفرض على الإشبين تقديم هدية ما إلى العروسين. وأنا أعرف أنك لا تملك مالاً. أعطني بطاقة باسمك، فأشتري باقة من الورود الاصطناعية، وأسلمها للعروس باسمك. فيكون كل شيء على ما يرام. ففعل. واشتريت الباقة ودسست في قلبها البطاقة.

ثم رحت باكراً في يوم السبت ١٦ تشرين الثاني ١٩٣٥، أبحث عن مستلزمات العريس. القميص البيضاء المنشاة. الكفوف. محرمة الحرير للجيب... كنت أشتري كل ذلك من شارع ويغان، من محلات آل كرم. فإذا بالرفيق المحامي عادل عيتاني (الذي فقدناه باكراً ولا زلنا نذكره بالحسرة) يبادرني مذهولاً: ماذا تفعل هنا والزعيم في السجن؟... ويلك قلت له، ما السبب؟ قال: لا أدري.

تركت البضاعة في المحل وسارعت إلى تاكسي وانطلقت معه إلى مركز الحزب للاستفسار. وقفت السيارة فهرولت كالمجنون باتجاه مبنى الشركة السورية التجارية التي كنا نتغطى بعنوانها. كنت أقفز الدرج لا ألوي على شيء لم يخطر ببالي لحظة واحدة أن الحزب انكشف، لأننا كنا نحتاط ضد الخيانة والإفشاء بكل الوسائل ومنها الترهيب والتهديد بالموت...

شاهدت شرطياً على مدخل المركز، فلم آبه له، وإذا بي أفاجأ في الداخل بحشد من الأعضاء وعلى رؤوسهم الطير. أدركت أن الواقعة قد وقعت وأني علقت في الفخ. رحت أبحث في جيوبي، فإذا أوراق حزبية. دخلت إلى الحمام وأحرقتها واسترحت. ثم قصدت مكتب إميل وفوزي عازار وتحدثت إليهما فإذا هما خائفان صامتان. ثم عدت أدراجي أريد الخروج، فإذا بالشرطي يمانع. قلت: أنت لا تعرفني. أنا المحامي عبد الله قبرصي لديّ جلسات في قصر العدل، لا يمكنني التخلف عنها.

قال: آسف يا أستاذ ليس الأمر بيدي، انتظر مجيء المفوض العام.

لم أقاوم. لم نكن قد تعودنا على الهجوم والثورة والعنف. ثم لم أكن أعرف ماذا جرى وماذا يجري. كنت حتى تلك اللحظة غير مصدق أن الحزب انكشف.

عادل عيتاني، عندما رأى الشرطي على باب المركز، أكمل صعوده إلى فندق أمبريال الكائن في الطبقة العليا، كان لا يزال حتى الأحداث الأخيرة في لبنان، فندقاً من الدرجة الرابعة. ونجا عادل بنفسه فكان أكثر فطنة مني وأسرع خاطراً.

مرّت برهة وإذا بمأمون إياس والعديد من الرفقاء يدخلون ويؤسرون. الداخل إلى المبنى في ذلك النهار المشؤوم لا يخرج إلا إلى السجن. ثم برهة أخرى، وإذا بمفوض الأمن العام الشيخ اسكندر الدحداح والد القاضي الكبير ومدير الخدمة المدنية، فريد ونجيب الدحداح المؤلف والسفير والمدير العام.

خاطب مأمون إياس سائلاً : ما اسمك؟

أجاب : مأمون إياس .

مأمون إياس أنت إذن الذي يوقع بالحبر الأخضر . أنت وكيل المالية . . . هلعت . . . امتقع لوني . أصبت بصدمة . . . ولكني تمالكت نفسي .

وأنت ! قال لي المفوض ، ما اسمك؟

قلت : عبد الله قبرصي ـ المحامي .

قال ، بعد أن رجع خطوتين إلى الوراء ورفع قبعته وانحنى انحناءة خفيفة : لـي الشرف أن أحيـي المستر غوبلز؟ . . . يعني أني عميد الدعاية في الحزب ، المعادل لغويلز وزير الدعاية في حكومة هتلر . . .

لقد أصبح الشك حقيقة .

قلت : أين تريد أن تسوقنا يا حضرة المفوض؟

فقال : اتبعاني .

كانت التاكسي لا تزال بالانتظار . فذهبنا معاً إلى مديرية الأمن العام في خان أنطون بك . وهنالك وجدنا القادة ثم وصل الزعيم هادئاً ولكن متعباً . حييناه وحيانا دون حركات ولا إشارات .

لمن يريد أن يقرأ تفاصيل ما جرى ، أحيله إلى «عبد الله قبرصي يتذكر» يباع في كل المكتبات . . . (نفد من كل المكتبات) .

وضغطت نقابة المحامين ، بفعل التضامن النقابـي والدفاع عن حقوق المحامي وحصانته ، وتحت ضغط جورجيت التي اتخذت مقاماً لها في دار النقابة : «بدي عبد الله كانت تصيح» . . . من الصباح حتى آخر ثانية من ساعات الدوام .

وخرجنا من السجن بكفالة ، نختبىء تحت بطانة «الجاكات» مرسوماً بتعييني

زعيماً بالوكالة. وكانت الأوامر أن إخلاء السبيل تم بشرط الذهاب إلى القرية وإقامة مراسيم الزواج فوراً... كان الشرط حلو المذاق، بعد مرارة السجن وأوساخه وروائحه السامة...

وكان العرس... وكان شهر العسل بضع ساعات في فندق اللاذقية الكبير ثم عودة بأمر من النقابة إلى بتعبورة ـ الكورة لإقامة جبرية فيها.

يا لبتعبورة وكفرحاتا وكفتون كم أطعمتنا عسلاً شهياً. كم أقامت لنا أعراساً ودقت لنا طبولاً، أنستنا مرارة السجن، وأنستنا حتى الذين يعذبون بين جدرانه الموبوءة زعيماً وأركان ورفقاء. فاستطبنا الإقامة الجبرية وتمنينا لو تدوم.

ثم هل ننسى، ما غمرتنا به دده وبيترومين وطرابلس، من طيبات العواطف، في حلقة من حفلات الفرح والمرح، يسخو فيها الأهل والأصدقاء بمكارم الضيافة والحب، ونسخو نحن في اغتراف تلك الساعات البهيجة، نكتنزها زاداً لمقبلات الأيام السوداء.

حفلات الزواج تاريخ في حياة كل إنسان في وطننا، حيث يبايع المهنئون العروسين لبضعة أيام، يجلسان فيها على عرش من الأحلام والسعادة والأنس والمحبة، ثم فجأة يعودان إلى الأرض بشراً كسائر الناس، يبايعان بدورهما عريساً وعروساً جديدين، لتستمر الحياة في دورانها الرتيب، بين الأعراس والمآتم.

أجل، نزلنا من بساط الريح، من الجو المعطر بكل ألوان الفرح، إلى الأرض الصلبة، إلى التراب، لننسى الورود والرياحين ونواجه الأشواك... والمسؤوليات الصعبة، ما أكرم الحياة بالمتاعب والهموم وما أبخلها بالصفاء والسعادة.

القفـــص الذهبـــي:

ذكرت، بعد أن أقسمت يمين الانتماء إلى الحزب والقضية القومية، أني ولدت ولادة جديدة.

كم يولد الإنسان ولادات جديدة في حياته، وإن تكن ولادات متفاوتة الأهمية مضموناً ومسؤولية وكرامة؟ بعد الهبوط عن بساط الريح، كان علينا أن نواجه عالم الزواج على الأرض. أطلقوا على الزواج اسم «القفص الذهبي»... لنترك الذهب جانباً، ولندخل إلى عالم القفص.. القفص قفص كان من ذهب أو كان من طين أو خشب...

انتهى عهد الحرية والفوضى والفلتان. القفص الزوجي، نوع من السجن، لا يطالعك بالوباء والأوساخ واللعنة، كسجن الرمل، بل المسؤولية على ما في تحملها من لذة ومرارة معاً، كما يطالعك بالشراكة مع الحبيبة والنعمة الكبرى في البنين والبنات متى صاروا وجوداً وكياناً.

التحرك من القفص، أصبح يشبه توسل طلبات إخلاء السبيل لمغادرته بالسلامة والعودة بالسلامة...

الزوجة التي ابتليت بعريس تزوج السجن عوضاً عن أن يتزوجها، التي أصيبت بصدمة مرعبة وهي ترتدي ثوب العرس الأبيض المهفهف كأحلامها اللألاءة، ليست كسائر الزوجات، لها شروط ومطالب وأوامر... إنها غير ملومة إذا اتخذت كل أسباب الحيطة والحذر لكي لا يسقط زوجها مرة أخرى في الخطيئة ويُساق إلى السجن كالعصفور المهيض الجناحين.

ثم إن زوجها محام لا يزال في مرحلة التدريج، في مكتب أخوالها، إنه لم يبن بعد مستقبلاً وإن يكن قد شقّ طريقه. فيجب إذن أن يلمع في عالم المحاماة ليكسب أودها وأوده وأود الجنين الذي أصبح يختلج في أحشائها (نسيت أن أذكر أن زوجتي قبل رجوعنا إلى القفص الزوجي في بيروت أصبحت حاملاً)...

إذن الحزب خصمها رقم واحد، ثم الحاجة خصمها رقم اثنين.. أو يتبادلان هذين الرقمين..

تفاهمنا منذ بداية المشوار الزوجي الطويل، أن إيماني بالحزب إيمان مطلق، لا أتنازل عنه لأي إيمان آخر، أو أي هدف آخر، إلا إذا اقتنعت عدم صوابه أو عدم جدواه. المال عندي والبنون والزوجة الحبيبة يأتون في الدرجة الثانية.. هذه هي العقبة التي كان عليّ أن أواجهها طوال عمري. الحبيبة تريد الحبيب لها وحدها، ومن ثم لأولادها... فكيف ترضخ لأن يشاركها فيه شريك آخر، صارم وضاغط حتى العظم.. كنظام الحزب وإرادة زعيمه. لقد ذرّ قرن الصراع باكراً بين الواجب الحزبي والواجب الزوجي. بالقسوة أحياناً، بالإقناع أخرى، باللطف والوداعة والاسترضاء حيناً، وبالقهر والزجر واللامبالاة حيناً آخر. كنت أوفّق بين تنفيذ أوامر الحزب وبين تلافي النزاعات الزوجية البغيضة والمحمضة، بما علمتني المحاماة وبما في طبعي من مرونة وليونة.

ثم، يجب أن ننصرف إلى تأثيث بيتنا... بعض الأخوة أهدونا بعض حاجاتنا كما ذكرت. ولكن الهدايا لا تروي عطشاً ولا تسدّ كل الحاجات...

رحت أبذل الجهود. أكدّ ليل نهار لكي يصبح لنا منزل، بعد أن استأجرناه بشق النفس، ولم نستطع أن نؤثث فيه إلا نصف غرفة نوم وصالة لاستقبال الضيوف لا بأس بها. خمس ليرات لبنانية كانت أكبر هدية تلقيناها...

يا للزوجة المضحية...

دون أن أطلب منها، سارت إلى جمع مجوهراتها هي التي تحب الجواهر، وطلبت إليّ أن أصحبها إلى صائغ أعرفه. ففعلت. وزنت المجوهرات فإذا ثمنها حوالي الأربعين ليرة ذهبية. لم تبق منها إلا خاتماً وسلسالاً عزيزين على قلبها. ورحنا نبتاع بالمبلغ الأدوات المنزلية وكل المستلزمات التي لا غنى عنها لمنزل عادي.

نسيت أن أذكر، أننا لم نستطع قبل بيع المجوهرات أن ندفع الضمانة لوصل

التيار الكهربائي. كنا نستقبل الناس على ضوء قنديل الكاز والشموع مدة غير وجيزة.

إذن بمجوهرات الحبيبة أثثنا المنزل لا بأموال الطليان والألمان...

يكون الإنسان كافراً إذا لم يذكر للمحسن إحسانه. الجيران أصحاب الملك آل الحسامي، ربة المنزل ورب المنزل وأولادهما وفيق وسامي ونعمت وخطيبها بشير جعلوا أيامنا حلوة ونحن في مسيس الحاجة إلى القرش.

عرف جميل الحسامي وكان محامياً كبيراً أن جورجيت حامل فكان يحمل إليها الفاكهة في مطالعها وهي غالية الثمن، يعاملها كما يعامل بناته دون تمييز. وزوجته الفاضلة، تبنتها من جهتها. وفيق الابن الأكبر كان يشعرني أنه أخ لي لا جار. وأخته نعمت تآخت مع جورجيت وكانت مخطوبة لابن عمها بشير، فإذا هما في دارنا ونحن في دارهما دون كلفة، نشعر أننا بالفعل أصحاب الدار والجيران ضيوفنا. تلك شيم وسجايا في وطننا، قلّما نجدها في أوطان أو أقوام أخرى. لعلها شيمة السوري العربي وسجيته منذ أن كان الإنسان. قلت السوري العربي وأنا أعني اللبناني بالدرجة الأولى.

للّه أيام الضيق كم ذكرياتها عذبة بعد وخز الإبر والكي... حادثتنان في بيتنا بملك الحسامي تصحباني إلى القبر...

الأولى: كان هنالك دكان في محطة الديك على مقربة من منزلنا يملكها إخوان من آل سلطاني ـ عين المريسة. قيل لي إنهما تنازعا ثم اقتتلا ثم مات الإثنان معاً.

كنا نجلب حاجاتنا اليومية من مأكل ومشرب من دكانهما هذا إلى أن أصبح لهما بذمتنا ثمانية ليرات سورية... رفضا أن يبيعانا ما نسد به الرمق بعد بلوغ حسابنا هذا المبلغ «الضخم»، فكنا نعيش على قدر ما يتوفر لدينا. ولكن الطامة الكبرى كانت في كيف ومتى نفي الدين المتوجب، الثمان ليرات سوريات؟ كانت الحيلة تفتق لنا كل يوم عن حجة جديدة لإرجاء الدفع. وكان الأخوان يقبلان على

مضـض. ثم ألحا إلحاح اليائس من استيفاء دينه فكان أحدهما، بالتناوب يطرق بابنا صباحاً والآخر مساءً، ونحن لا نجيب. نقبع في زاوية من زوايا البيت واجفين، نكاد نقطع التنفس... والسلطانيان كل بدوره يصيح بنا: نحن نعرف أنكما داخل البيت، لن تستطيعا الإفلات منا. سنأخذ حقنا ولو بالقوة... ثم أهرب إلى عملي... إلى أن نفد صبري كما نفد صبر آل السلطاني. جئتهما بنفسي عارضاً العرض التالي: إن لدي معطفاً جديداً. هل يقبلان به مقابل الدين المتوجب؟ قبلا فرحين، لأنهما كادا أن ييأسا وكدت أن أصاب بانهيار عصبي. وهكذا كان المعطف خشبة الخلاص...

الثانية: لجورجيت عم كريم حتى السخاء اسمه يوسف أبو حسيب. ما كنا نطأ بلدة بتعبورة، ألا وهو أول من يدعونا إلى داره. ولائمه لا تجارى. بيته مضافة أكثر منه منزل عائلي.

رأيته في بيروت صدفة، فدعوته بإلحاح لأن يتناول طعام العشاء عندنا فقبل. نسيت أنه ليس لدينا كهرباء ولا طاولة سفرة، تعشَّينا على ضوء الشموع وعلى طاولة ماكنة الخياطة. تكاد جورجيت تختنق حياءً من عمها وخجلاً. هي التي كان يناطح رأسها الثريا ابنة أخت إبراهيم وفهيم وبولس الخوري، تطعم عمها على طاولة ماكنة الخياطة وعلى ضوء الشموع؟ يا للفقر كم هو مذل أحياناً إذا كان الفقير لا يفلسف فقره... إلا أن العم يوسف كان غفوراً رحيماً، تفهَّم الوضع وعذر.

عدو المرء الأول إحساسه المرهف. طوبى للذين قلوبهم من حجر. لم أنم تلك الليلة. لم تنم حبيبتي، لكنها وقد شعرت بالألم يمضغ أعصابي، طوقتني بذراعيها، وراحت تخفف عني قائلة:

أحبك، ولو أننا بقينا على هذه الحال مدى الحياة... المهم هو الحب لا المال، ولا الأثاث الفخم والعيش الرغيد... هكذا يكون الحب بلسماً للجراح والهوان. لولا الحب ما استطاع زوجان فقيران أن يتحملا حياة زوجية بدأت بالسجن واستمرت بالحاجة والحرمان والاضطهاد زمناً طويلاً.. هل يناضل الإنسان في سبيل قضية عظمى وهو نائم على فراش من حرير وورد؟ أليس الألم والجهاد متلازمين، توأم برأسين على جسد واحد؟.

الشيخ إبراهيم المنذر والدكتور جورج سابا:

كنت أسمع عن الشيخ إبراهيم المنذر أنه شاعر وخطيب بليغ، وقد ورد اسمه مراراً في هذه الذكريات. في مدرسته في المحيدثة واسمها البستان وعلى يده تعلم معلمي الأول نعمان نصر الأدب العربي وتفوق ونبغ. ثم دخل الشيخ إبراهيم السياسة من بابها الواسع، فإذا هو نائب في مجلس النواب. نائب وطني استقلالي لا موالياً للانتداب كأكثر نواب ذلك الزمان ١٩٢٦ وما بعد...

أول مرة التقيته كانت سنة ١٩٢٩ عندما تقدمت طالباً منحة من المعارف. جئته ببطاقة توصية من البطريرك غريغوريوس حداد. بطريرك العرب آنذاك. أحالني على المدير صبحي بك حيدر. تقدمت إلى الامتحان في حوض الولاية.. ثم لم أعد أسمع عن النتائج خبراً... بقيت صورة الشيخ إبراهيم ماثلة أمام عيني وهو يقودني إلى صبحي بك، كلما خطا خطوة يجب أن يستوقفه صاحب حاجة وهو لا يرد لطالب طلباً... سريع الخاطر، دفاق الحيوية، لا يعرف الراحة إلا في فراشه.. عائلته وعائلة إبراهيم وفهيم الخوري تؤلفان عائلة واحدة. ابنه الأكبر صلاح ضيف دائم في دار آل الخوري، نجم كل مجلس أنس، قيافة وحديثاً وظرفاً...

عندما أصبحت من أهل الدار لدى آل الخوري، أصبحت من أهل دار آل المنذر . . .

أما الدكتور جرجي سابا من شيخان ـ القرنة ـ بلاد جبيل، فقد كان طبيباً في السودان لمدة من الزمن عاد من بعدها ليفتح عيادة يشفي مرضاه فيها بظرفه أكثر مما يشفيهم بعلاجه.

كان والشيخ إبراهيم صديقين حميمين، يفيقان في الصباح الباكر، ولديهما لائحة بعدد عائلات صديقة، يفاجآنها قبل بزوغ الشمس، لتدور حلقات القهوة وأخبار البلد وآخر إنتاج من النكات المستظرفات.

يذكر القراء كيف أن الشيخ إبراهيم أرسل لي رسالة من دمشق، يقيّم فيها تقييماً عالياً قصتي عن الشاعر نسيم سابا شقيق القاضي الكبير شكري سابا وعم الوزير السابق إلياس سابا، والتي كنت قد نشرتها في جريدة المساء. وكيف أن الرسالة كانت موقعة «أ. ص» وكيف أني لم أستطع اكتشاف كاتبها إلا عندما أعياني الأمر، فإذا به يعلن أن «أ. ص» هي الأحرف الأولى من أبو صلاح وكان معروفاً بـ «أبو صلاح» في أوساط المقربين.

العلاقة بيننا استحالت إلى نوع من علاقة الأبوة بالبنوة. وكذلك مع الدكتور جرجي سابا. أدرج كل منهما اسمنا في لائحة الزيارات الصباحية الشيقة التي كانا يقومان بها باستمرار.

ليتصور القارىء أن عروسين مثلي ومثل جورجيت لا يزالان في الأشهر الأولى من حياتهما الزوجية يحبان السهر والنوم العميق عند الصباح، يطرق بابهما قبل بزوغ الشمس!!.

أي طارق، مهما كان عزيزاً، سيستقبل بالتكشير والتجهم وملامح الغضب ولو كان الشيخ إبراهيم أو الدكتور سابا.

كان ذلك عسيراً عليّ وعلى جورجيت، أن نستيقظ في أحد الأيام، ونحن لا نزال مخمولين لنفتح الباب أمام العجوزين، وهما يبادراني بالنكات الظريفة ونحن صامتان كأبي الهول. أحسا أننا لسنا مرتاحين فانسحبا ولم يعودا...

ما تأثرت علاقتنا بسبب الاستقبال الفاتر. كانت جورجيت رشيقة فبررت الفتور بصعوبة نهوضنا باكراً... وانتهت الزيارات الصباحية منذ الزيارات الأولى الخمس.

حتى الكبار في بلادنا، يعتقدون أن الصداقة الحميمة تبرر إزعاج الصديق، ولو في إيقاظه من النوم باكراً دون سبب إلا زيارة صباحية لقتل الوقت بالنكات والطقش والفقش.

من أطرف ما رواه لي صلاح المنذر أنه كان مصاباً بقرحة في معدته، نصحه الأطباء على إثرها بالتقيد بلائحة طعام مملة. ففعل. واستمر مواظباً على التقيد حوالي السنة، والأطباء لا يرحمون. فقرر أن ينتحر. ذهب إلى أثينا واستأجر غرفة عند عجوز فيها، وقصد أقرب مطعم، وأوصى على قنينة نبيذ معتق وقطعة لحم مشوية. وازدرد اللحم مع النبيذ في شهية ذئب جائع. وعاد إلى الغرفة وسلم إلى العجوز رسالة إلى أهله ونام. كانت الرسالة تنص على أن صلاحاً أكل مريئاً وشرب هنيئاً وأنه قصد فراشه لينام ويموت...

بعد مضي ساعتين، استيقظ الرجل وراح يتلمس آثار الموت فلا يجدها. أحس بالعكس أنه مرتاح ونشيط. قفز من سريره واستردّ الرسالة من العجوز وأمضى شهراً بكامله في عاصمة اليونان، يعوض عما فات من صيام وحمية. أليس في تشخيص الأطباء بعض الأوهام أحياناً، كما يكون لدى بعض الناس أمراض وهمية ـ أليس من العجب أن يتساوى أحياناً المريض وطبيبه بأنهما واهمان!.

هل كان من الممكن أن يزدرد صلاح المنذر اللحم والنبيذ ويظل سالماً ولو

كان بالفعل مريضاً بالقرحة كما كانوا يزعمون أو يشخصون؟ . . . ليس هذا تجريحاً بالطب والأطباء، وأنا آخر من يجرح أولئك الذين أنقذوا جسده من الموت . . . ومن الأوجاع والأوهام مراراً وتكراراً كالدكتور عفيف مفرج وسامي قائد بيه ورياض خليفة وأنطون سالم مثلاً ! ! .

خـــاتمـــة :

أتوقف بكتابة هذه الذكريات وأنا في السبعين من عمري. الحرب اللبنانية البغيضة أخّرت اختتامها إلى أن أصبحت في السادسة والسبعين أي على مشارف النهاية.

لن أكذب على القارىء: عنوان هذه الذكريات: الطفولة والشباب. في هذه السن المتقدمة، لا أزال أشعر بالطفولة والشباب، على امتداد هذه السنين، ما رحلت طفولتي ولا رحل شبابي. تلك نعمة من نعم الحياة عليّ، تعويضاً ـ على ما أتصور ـ عما أصبت به من مصائب ونكبات ومحن وما عانيت من اضطهاد وحرمان.

صحيح أن مأساتي بعد وفاة زوجتي في كندا ١٩٦٨ ـ أيام المنفى وأحكام الإعدام، كانت مؤلمة وموجعة، فالرجل بعد زوجته يفقد نصف قوته، نصف كيانه . . . بعد وفاة زوجتي رجعت إلى حالة اليتم من جديد.

التعويض عنها ـ إذا كان من تعويض عن فقدان شريكة الحياة ـ كان في المضي الدؤوب على دروب النضال الحزبي، وفي حنو البنين والبنات والأحفاد، والحفيدات.

أولادي الخمسة صباح وهو محام له مكانته المرموقة في لندن، وعاطف وهو دكتور وخبير عالمي في الاقتصاد القياسي، وضياء مدير غرافيكس في إحدى الشركات المزدهرة في الخليج، وأخيراً عمان ـ الأردن، وابنتاي ضحى وحنان، يحيطونني بكل أنواع الرعاية. وهم بالإضافة إلى صمودي في الحزب السوري

القومي الاجتماعي وإيماني بالقضية القومية، العون لـي على تحمل السنين وعلى تحمل الترمل في كهولتي بعد أن تحملت اليتم في شبابـي وطفولتي.

ها أنا على مشارف النهاية ككل كائن حـي. الصخور وحدها لا تموت ـ وقد تموت، من يدري؟ وإني لأشكر الله أني ما خلقت صخراً. الإنسان هو سيد الكائنات، يدفع ثمن سيادته أنه زائل، إنه مهما عظم واستقوى وتفوق، منحدر يوماً إلى فراش أصفر، ينقل منه إلى تابوت من خشب، ويوارى جدث الرحمة.

كما أتمنى أن أظل قادراً على العطاء، لأكتب كل ذكرياتي، أحبها. أقرأها بعد أن أكتبها وكأنها حدثت مع شخص آخر. ذكرياتي الحزبية من ثورة ١٩٤٩ إلى محاولة الثورة في الشام، إلى مقتل العقيد عدنان المالكي دون مبرر ودون قرار حزبـي، إلى أحداث سنة ١٩٥٨، إلى المحاولة الانقلابية سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، إلى أحكام الإعدام والمنفى في فنزويللا، والتجوال في الأميركتين، ثم العفو العام والعودة إلى الوطن الحبيب حيث جثوت على الأرض وقبلت التراب الأقدس، ثم هذه الحرب اللعينة البغيضة التي أكتب بعض هذه الذكريات فيها على ضوء الشموع وأزيز الرصاص وهدير القذائف والصواريخ.

متى يا رب تنقذ لبنان من هذه الحرب وتنقذ وطني والعرب من إسرائيل؟
متى يا رب ترحم شعبـي وتفتح عينيه على النور، فيهدأ وينصرف إلى التعمير.

وأخيـراً،

لعل هذه السيرة من الألم والحرمان والصمود مفيدة للذين لا يفهمون الحياة إلا ترفاً، كما هي مفيدة للمحرومين والمعذبين في الأرض، إنهم ليسوا وحدهم في الحرمان والعذاب، مصانع الرجال. ولولا العذاب والحرمان ما استقامت الحياة ولا ازدهرت، ولا أنتجت المجاهدين والأبطال الشهداء... وحتى كبار الأدباء والشعراء.

ولا بدّ من أن أشير آسفاً، إلى أني لم أجد أي مجال للتحدث عن زملائي المحامين العاملين أو الذين غابوا ولا عن القضاة والقضاء رغم أن الحديث عن رجال القانون شيق ومثير أيضاً. أليس جماعة الروب، جماعة الفتاوى الظريفة الطريفة، وأئمة العدل والقانون والأحكام، وهم في لبنان يملأون الدنيا أحياء، فإذا رحلوا طويت صفحتهم كأنهم ما كانوا. أليس هذا ظلماً؟؟.

أليس من الظلم مثلاً ألا يكون بين أيدينا كتاب جامع لمرافعات إميل إده وبشارة الخوري وإميل لحود، حبيب أبو شهلا، وجبرائيل نصار، جان جلخ، إلياس نمور، بهيج تقي الدين، رامز شوقي، حميد فرنجية، عبد الله اليافي، ميشال عقل والطليعي، الرائد يوسف السودا، هذا فضلاً عن الأحياء أطال الله بعمرهم، فؤاد رزق، عبد الله لحود، إدمون كسبار، نصري المعلوف، وجدي ملاط، وسليم عثمان، ورشاد سلامة، وعصام كرم، وعبد الله حيدر، ومخائيل الضاهر، وحميد معوض، وسامي ضاهر، وكمال سلهب وغيرهم من الذين لا تحضرني أسماؤهم.

بعدم فتح الباب لقصر العدل في هذه الذكريات أنا نفسي أشترك في الظلم، ظالماً نفسي أيضاً. يا لقصر العدل الذي لم ندخله منذ عشر سنوات كم لنا فيه أخوة وأبناء، بين المحامين وبين القضاة، وكم في تاريخه من حوادث وأحاديث لا يجوز أن تظل دفينة بين جدرانه.

آخر نيسان ١٩٨٦ ــ آخر نيسان ١٩٩٦ (هكذا يمر الزمن ونحن هنا قاعدون).

ملاحظـة هامـة: من المحامين الذين ذكرت لم يبق حياً إلا النقيب والوزير السابق وجدي ملاط، وسليم عثمان، ورشاد سلامة، وعصام كرم، وعبد الله حيدر، والوزير السابق مخائيل الضاهر، وحميد معوض نقيب محامي الشمال أربع مرات!.

ها أنا أنهي القراءة الأخيرة لهذه الذكريات في أول حزيران ١٩٩٠، في بيت ولدي ضياء في عمان، لبنان لا يزال يحترق، محاولات إنقاذه مستمرة، إنها ليست مستحيلة، ولكن العقد لم تنحل حتى الآن منها ولا عقدة، اعتقدنا أن اتفاق الطائف وسيلة للخلاص، فإذا بالعماد ميشال عون الطامع برئاسة الجمهورية يعلن حرب تحرير على سورية، ليحرر لبنان من اللبنانيين الذين هربوا من قنابله وقذائفه وخطاباته، وإذا به يصطدم مع قائد القوات اللبنانية الدكتور سمير جعجع الشهير بعلاقاته مع إسرائيل بعد زملائه بشير الجميل وحلفائه، فيحرقون المناطق الشرقية حتى كسروان، وإذا نحنّ لا نزال تحت الصفر، يحاول العرب عن طريق لجنة ثلاثية من كبارهم متابعة عملية الإنقاذ، والانقاذ لا يأتي، بخاصة أن الشرعية اللبنانية وحكومة الوفاق الوطني بقيادة الرئيس إلياس الهراوي، ورئيس الحكومة الدكتور سليم الحص عاجزان وحدهما عن إنهاء الحرب في الشرقية وبسط سلطانها على كامل التراب اللبناني. لقد دعوت على أساس أن السلام في لبنان لا يستجدي بل يفرض إلى أن تؤلف الجامعة العربية قوات عربية مشتركة، تدخل لبنان بالقوة إذا اقتضى الأمر، وتجرد الميليشيات والأفراد من السلاح لكي لا يبقى إلا سلاح السلطة الشرعية، ثم تجري الانتخابات حرة لجمعية تأسيسية تضع دستوراً جديداً للبلاد، وتوحد الجيش، ثم تتحول الجمعية التأسيسية إلى مجلس نواب، ينتخب رئيساً جديداً للجمهورية، ثم حكومة اتحاد وطني، ثم تسحب القوات العربية ليتسلم الجيش اللبناني القوي ضبط الأمن، ويحمي سيادة القانون والحدود، طبعاً معالجة الانسحاب الإسرائيلي بالدرجة الأولى وفقاً للقرار ٤٢٥.

أما حزبي السوري القومي الاجتماعي، فانقسامه المشؤوم سيكون سبباً مباشراً في تعجيل رحيلي عن هذه الحياة، لأني أمضيت عمري مناضلاً في قيادته،

ولأنه أملي وأمل الأمة في النهوض والتقدم والوحدة. إن انشقاقه هدم نفوذه، هدم قيمته في نظر الشعب ورهجته وهيبته. هو الحزب الذي بقي فوق كل الشبهات في هذه الحرب اللبنانية اللعينة، والذي فرض الاحترام والإعجاب ببطولاته بعد العمليات الاستشهادية التي قامت بها سناء محيدلي ورفاقها، كما فرض احترامه والإعجاب بأخلاقه وسهره على راحة المواطنين، فما قتل بريئاً ولا سلب ولا نهب، ولا اعتدى على الأعراض والأرزاق، هذا الحزب، بسبب الصراع على السلطة، يصبح تنظيمين، يظلان رغم كل المزاعم، حزباً واحداً ولكن برأسين أو ثلاثة.

أخر ما أكتبه هو الشعارات التي رفعتها على إثر الانشقاق، إن وحدة الحزب آتية وهي حتمية، وأن لا بديل عن وحدة الحزب، فإذا بقي منشقاً، تحول إلى عشائر وقبائل (وقد زاد عليها الأمين يوسف الأشقر كلمة و (أفخاذ))، وأن انتصارنا ليس في الوصول إلى الحكم، بل هو الانتصار في ضمير الشعب، الانتصار في الشعب، فكيف يمكن تحقيق هذا الانتصار والشعب في كل مكان ينظر إلى انشقاقنا وكأنه الانهيار الكامل. متى انتصر الانهيار.

متى انتصرت إلا وحدة الإرادة ووحدة الروح؟ متى انتصر التمزق والتبعثر والحقد؟ متى انتصرت الأطماع الفردية إلا بالمؤامرات والاغتيالات والخلافات والأحقاد والصراعات على السلطة في حزب هو حزب النهضة، حزب التقدم، حزب وحدة الروح ووحدة الإرادة، حزب العقيدة الواحدة والقائد الواحد. هل يمكن أن تنتصر فيه إلا الوحدة لتحقق بها وحدة الشعب والأرض والحياة والمصير؟.

أكتب هذا إلى من بقيت له عينان ليقرأ، ووجدان ليعي ويؤمن أن من هنا، من هنا فقط الطريق إلى البقاء، إلى استعادة القوة، إلى استعادة الأمل بالانتصار.

عمان في ١/ ٦/ ١٩٩٠

عبد الله قبرصي

في حفلة تكريم الأديب والمحامي الأستاذ إميل بجاني في مجلس الفكر في بيت مري
صيف ١٩٩٥ ويظهر المؤلف على طرف اليمين

في حفلة تكريم الأديبة الكبيرة إميلي نصر الله في مجلس الفكر في مركزه في سن الفيل
وتظهر الرئيسة الدكتورة كلوديا شمعون أبي نادر والمحتفى بها والمؤلف

مع الدكتور عبد المجيد القصاب والأمين الراحل مصطفى عبد الساتر

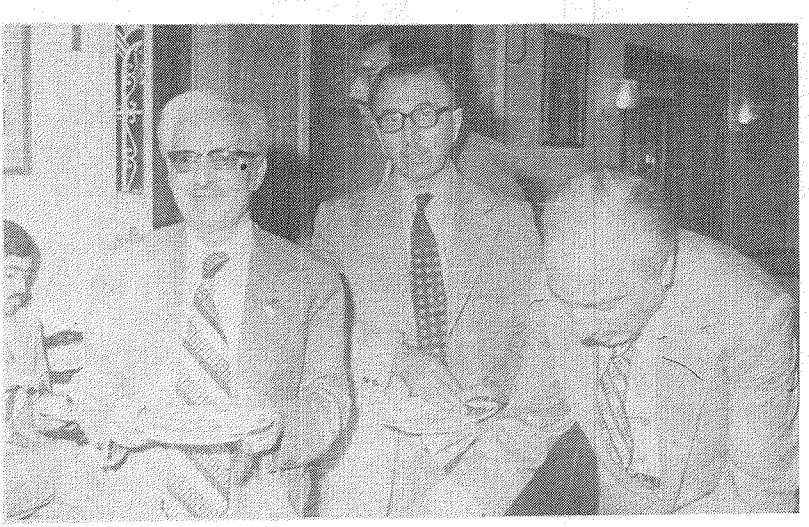

أول آذار 1949 مع عبد الله سعادة، إبراهيم يموت، هشام شرابي، فريد صباغ
وعبد الله قبرصي

الفهرس

الإهداء 5
المقدمة 7
مقدمة ـ عبد الله قبرصي يتذكر طفولته وشبابه 21
في كنف العمومة 35
حبي الأول الطفولي 45
كنت ناطوراً بارعاً 45
عرس خالي 47
الفرنسيون في القرى 51
في مدرسة دير البلمند 53
مدرسة البلمند تقفل أبوابها 65
في مدرسة الصفاء في كنف نعمان نصر 65
إلى مدرسة الفرير بطرابلس 69
الصيف و«الأستاذ» عبد الله 70
عودة إلى الفرير 75
وقائع وعبر ... من مدرسة الفرير ـ طرابلس 76
طرابلس في ذلك الزمان 79
المعلمون 81
الجائزة الكبرى 82
رحلة ربيعية 83
أنيس روفائيل والصبايا والشعر 84
أنا وآل القرطباني 87
أنا وجبران 89
الأكاديمي الفرنسية والنادي الأدبي العربي 96

قصيدة الأخ جان 99
خطبة الكولونيل ريكلانك 101
في رحلة اللاذقية 102
حمل الأغراض في السوق 105
الشهادة النهائية ـ الامتحان والاحتفال 107
من معلم في الضيعة إلى مدير مدرسة الروم في طرابس 110
عرس وغرام 113
امتحانات الدخول إلى معهد الحقوق الفرنسي 116
في معهد الحقوق في بيروت 121
في بحنين (عكار) 1930 130
١ ـ المطران أغناطيوس حريكي والوظيفة 133
٢ ـ كيف تسببت بموت جدي 133
٣ ـ لقاء مع المطران عريضة ـ سنة 1930 135
٤ ـ مأتم جبران خليل جبران 136
٥ ـ أنا وسلمى 138
السنة الثانية 138
رحلة إلى أرز الرب ـ آب 1931 147
عودة على بدء 151
حفلة تأبين الأرشيدياكون مخائيل الحاج (بترومين) 154
حفلة الشهادة ومقاطعة بيت عمي 156
في الطريق إلى المستقبل 161
قبلت الدعوة 164
الدعوى الأولى 169
محمد خير الصاوي ومصطفى شيخ الأرض 171

الحب الجديد حبان 174
مطرانية جبل لبنان للأرثوذكس 180
الحب على دروب العزّ 184
مع الصحافة والشعر والأدب 187
في الحزب السوري القومي 190
الولادة الثانية 190
الحب هذا العسل المر 194
الحبيبة تكاد تفلت من يدي 202
أيام الخطوبة: نرجس وياسمين 220
الحبس والعرس والزواج 223
القفص الذهبي 228
الشيخ إبراهيم المنذر والدكتور جورج سابا 233
خاتمة 236

هذا الكتاب

حين قرأت مذكرات المناضل عبد الله قبرصي تساءلت وبكثير من الدهشة: كيف استطاع هذا الرجل أن يتحمل ذلك العذاب في سبيل إيمانه وعقيدته من دون أن يتراجع أو تفتر له همّه ؟...

وكيف لم تسلبه معاناته الطويلة، حُبَّه للناس وللحياة ؟.. كيف لم تقضي على شفافية روحه ورقة طباعه ؟..

بل إن من يرافقه، أو يجالسه، يلاحظ كم أن آلامه كانت واسطة لصقل ما وهبه الله من طاقات فكرية، خلقية وإبداعية . وقد جعلته أكثر إنسانية، ودفعته إلى مناصرة المعذبين والمظلومين .

وهذا الصنف من البشر يكاد ينقرض في زمن المساومة وتبادل الخدمات، و ... كلّ شيء بحسابه .

لكن عبد الله قبرصي إذا ما استُنفر لنصرة قضية حق أو لمساعدة امرئ مظلوم، هبّ بعفوية وحماسة، غير مبالٍ بحساب الربح والخسارة .

وعبد الله قبرصي رجل عنيد، وإلا فكيف ثابر على تمسّكه بمبادئه ومناقبه، وفي مقدّمها الإخلاص، والوقوف في وجه الطغيان لنصرة الحق على الباطل، ضارباً عرض الحائط حساب العقبات أو الخسائر !...

وبرغم ما عانى الرجل من مشقّات، فقد ظلّ محتفظاً بحيوية يغبطه عليها الشباب، وبقيت له روحه المرحة، وسرعة خاطره، وتوقّد ذهنه؛ وكأنما قسوة العيش هي المحك الذي يشحذ الفكر ويصقل الروح يدفعهما إلى ذروة التجلي . إن أقلّ ما يمكن تقديمه لهذا المناضل العنيد، هو الشهادة له، والإعتراف بفضائله وشمائله، وتسجيل مبادئه ومواقفه، لتكون قدوة ومثالاً، في زمن اختلطت فيه القيم وضاعت المقاييس .

عبد الله قبرصي، أيها الشجاع البطل، علِّمنا بعض أسرارك .

إملي نصر الله